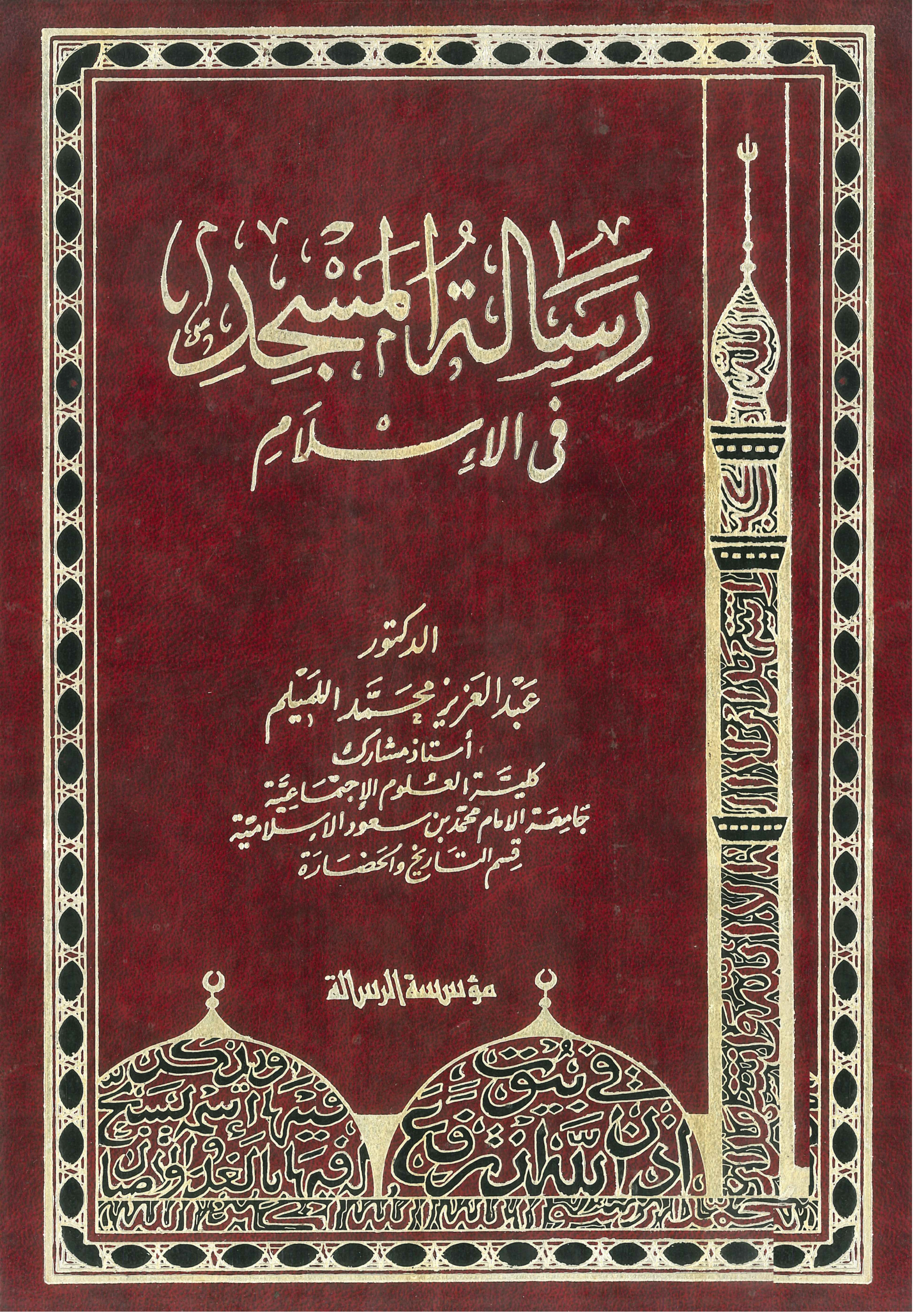

رسالة المسجد
في الإسلام
الدكتور
عبد العزيز محمد اللميلم
أستاذ مشارك
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
قسم التاريخ والحضارة
مؤسسة الرسالة
في بيوت أذن الله أن ترفع
ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال


رسالة المسجد
في الإسلام

الطبعة الثانية
١٤١١هـ = ١٩٩١م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

رسالة المسجد في الإسلام

الدكتور
عبد العزيز محمد اللميلم
أستاذ مشارك
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
قسم التاريخ والحضارة

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من أوجب الله طاعتهما علىٰ الأبناء ، وقرنها بطاعة الله سبحانه .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وقضىٰ ربك ألَّا تعبدوا إلَّا إيَّاه وبالوالدين إحساناً ﴾ .

فإلى أبويَّ الكريمين أهدي هذا الجهد المتواضع .

راجياً أن ينفع الله به .

« عبد العزيز »

فهرس الموضوعات

رابعاً : **الباب الثالث**

أبرز مساجد الأمصار الإسلامية وأعظمها أثراً في النواحي العلمية والسياسية

المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والرسل ، وعلى صحابته الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهرواْ والله يحب المطهرين ﴾[1] .

ويقول جل ذكره : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾[2] .

ولما كانت رسالة المسجد هي رسالة الإسلام الخالدة على مرّ الأيام ، ولما كان للمسجد دوره وآثاره في المجتمع الإسلامي ، وهي الآثار التي قامت على أساسها دولة الإسلام الكبرى ، ولما كان المسلمون في أيامنا هذه يتطلعون من خلال القرون الماضية إلى تلك المساجد ، ويرجون أن يعود إليها مجدها القديم ، لذا فقد انعقد مؤتمر للمسلمين في مكة المكرمة سمي بـ « مؤتمر رسالة المسجد » وذلك في الفترة من ١٥ ـ ١٨

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٨ .

(٢) سورة النور آية ٣٦ .

رمضان المبارك من عام ١٣٩٥هـ الموافق من ٢٠ ـ ٢٣ سبتمبر عام ١٩٧٥م ، حيث تمخض هذا المؤتمر عن عدد من القرارات والتوصيات التي اتخذها المؤتمرون ، والتي يرجى من ورائها الخير الكثير للأمة الإسلامية .
هذا البحث الذي أقدمه الآن للقاريء الكريم عبارة عن بحث قدمته لنيل درجة الماجستير في العام الجامعي ٩٤/ ١٣٩٥هـ ، حيث سجلته قبل انعقاد مؤتمر رسالة المسجد المذكور بما يقارب السنتين . وقد كان النظام المتبع سابقاً هو أن يقدم الطالب بحثاً بالإضافة إلى عدد من المواد المنهجية ، مما اضطرني إلى محاولة إعادة النظر فيه وتنقيحه وزيادته بما يتلاءم ووضع المسجد حسبما تيسر لي .

ولقد هفت نفسي إلى الكتابة في هذا الموضوع ، نظراً لما يتمتع به المسجد من رسالة سامية ، ومكانة رفيعة في نفوس المسلمين قاطبة ، مع محاولة التعرف منه على الرسالة الحقيقية للمساجد ، وما ينبغي أن تصير إليه في هذا العصر الذي نعيش فيه .

لقد كان المسجد ـ بالإضافة إلى كونه بيت عبادة ـ معهداً للعلم والأدب ، ومركزاً للقيادة والتوجيه ، وملجأً للمسلمين في حل مشاكلهم ، ومكاناً للألفة والمحبة بين المسلمين عندما يجتمعون فيه لأداء صلواتهم ، منه تخرج أبطال الإسلام على يد معلمهم ومربيهم محمد بن عبد الله ﷺ ، ففتحوا أقطار الدنيا ، وغيروا وجه التاريخ لصالح الأمة الإسلامية .

وقد اعتمدت في هذا البحث على العديد من المصادر الأولية المتعلقة بالموضوع ، لعل من أهمها ـ بالإضافة إلى القرآن الكريم ، والسنّة النبوية المطهرة ـ ابن هشام والطبري وابن الجوزي وابن كثير والسمهودي والخطيب البغدادي وابن دقماق والذهبي وابن سعد والغزالي والسهيلي

والعمري وابن فهد والمقريزي ، والمقـري وابن النجار ، وغيـرهم كثير . كما اطلعت في نفس الوقت على عدد من المراجع الحديثة الهامـة ، التي أفـادتني كثيراً في طـريقة اتبـاع المنهج العلمي في البحث ، كمـا حاولت الاستفادة منها بعرض وجهة نظر أصحابها في إبراز بعض الجوانب العلمية والسياسية للمسجـد في الإسلام ، إضـافة إلى مـا اقتبسته منهـا ، لعل من أبرزها الجبرتي وإبراهيم رفعت باشا وحسين باسلامة والشناوي والطنطاوي والعارف ومحمد الغزالي وأحمد فكري وغوستاف لوبون وسيغريـد هونكـة وحسين مؤنس ومحمود شيت خطاب وحسن عبد الوهـاب ومحمد عنـان ، وكثير غير هؤلاء .

هذا بالإضافة إلى العديد من المصادر والمراجع التي اطلعت عليها ، والتي تزيد في حصرها على ما سجل في هـذا البحث، غير أنني لم أثبت منها إلَّا ما ورد في الهوامش .

هذه نبذة قصيرة قدمتها قبل العرض عن محتويات هذا البحث الذي يحتوي على مقدمة وثلاثة أبواب ، يتناول كل باب منها عدداً من الفصول ، وخاتمة ، بالإضافة إلى عدد من المـلاحق ، وفهرس عـام للموضـوعات . جعلته في مقدمة البحث ليسهل الاطلاع عليه ، وثبت بالمصادر والمراجع .

ففي المقدمة : تحدثت عن الدوافع لاختيار الموضوع .

وفي **الباب الأول** : عن « الهجرة ، بناء الدولة الإسلامية » .

وقد قسمته إلى فصلين .

الفصـل الأول : تكلمت فيه **عن الهجـرة** وإرهـاصـاتهـا حيث أمـر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة عندما اشتد إيذاء قـريش لـه ولأصحابه ، ثم بعد ذلك هجرته ﷺ إلى المدينة واتخاذها مستقـراً ومقامـاً للمسلمين .

الفصل الثاني : تحدثت فيه عن « بناء الدولة الإسلامية » وكيف أرسى النبي الكريم قواعدها بعد هجرته ، وبناء مسجده الشريف في المدينة ، حيث وجدت دعوته عليه الصلاة والسلام مجالاً رحباً من الأمن والطمأنينة والاستقرار في المدينة المنورة .

الباب الثاني :

تحدثت فيه عن : « المساجد الهامة في الجزيرة العربية » وقد قسمته إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تحدثت فيه عن : المسجد النبوي : تخطيطه ، ونظام بنائه » .

حيث تطرقت إلى التخطيط الذي اتبعه النبي ﷺ في بناء مسجده في المدينة ، وكيف سار الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم على نهجه في بناء المساجد في الأمصار الإسلامية التي فتحها المسلمون ، حتى أصبح مسجد رسول الله في المدينة مثلاً يحتذى في سائر مساجد الأمصار الإسلامية ، كما حاولت جاهداً تفنيد آراء المستشرقين ومن سار على منوالهم حول تحديد المصدر الذي استمد منه المسجد نظامه التخطيطي ، كالكنائس ، والهياكل اليهودية ، وقاعات الاستقبال في القصور الفارسية وغيرها . وأن نظام بناء مسجد رسول الله نظام أصيل مبتكر لم يستمد نظامه من أية جهة كانت .

الفصل الثاني : « الرسالة العلمية والسياسية للمسجد النبوي » .

ركزت في هذا الفصل على أمثلة من عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ، لأن مسجد رسول الله هو النواة الأولى لإقامة الدولة الإسلامية ، ونظراً لأن المسجد أول ما بدأ تلك الرسالة كان على يد رسول الله وصحابته

الكرام ، ولما كان الرسـول عليه الصـلاة والسلام يستهـدف من عمله هذا إقامة أمة جديدة ، وبناء دولة إسلامية ، قوامها العدل والمساواة ، والتكافل الاجتماعي ، لذا فقد اتخذ النبي ﷺ من مسجده في المدينة مدرسة لتعليم أصحابه الدين الحنيف ، لكي يتحملوا أعباء الدولة الإسـلامية ، ومقـارعة الخصوم بالحجة البالغة عن علم ومعرفة بأحكام الدين ، ودار ندوة يجتمع فيها بالمسلمين للتشاور معهم في أمور دينهم ودنياهم ، وساحة تتجمع فيها الجيوش ، وموضعاً لاستقبال السفراء ، ولعل هذا هو البـاعث الأول للنبي ﷺ على الأمر ببناء مسجده في المدينة ، إذ لم يكن القصد منـه أن يتخذه المسلمون معبداً يؤدون فيه شعائر دينهم فحسب ، بل كان يهدف إلى معنى روحي وعلمي وسياسي واجتماعي معاً .

وبالإضافة إلى ذلك فقد اتخذ صحابة رسول الله والتابعون لهم من هذا المسجد مدرسة لتعليم الناس أمور دينهم ودنياهم ، كما كان العديد من الخلفاء يتلقون البيعة من الناس في هٰذا المسجد ، ويحددون من على منبره سياساتهم تجاه رعاياهم .

الفصل الثالث : تناولت فيه الحديث عن : المسجد الحرام ، مسجد قباء ، مسجد الضرار .

فالمسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس ، وهو أول المساجد التي لا تشد الرحال إلَّا إليها ، وقد ألمحت بشيء من الإيجاز إلى التوسعات التي مر بها المسجد الحرام بالإضافة إلى الجوانب العلمية والسياسية التي قام بها هذا المسجد .

أما مسجد قباء ، فهو أول مسجـد بني في الإسلام ، وهـو المسجد الـذي أسس على التقوى ، حيث أشـرت إلى كيفية تـأسيسه عنـدمـا قـدم

رسول الله إلى المدينة ، ثم تطرقت إلى التجديدات والتوسعات التي مر بها هذا المسجد ، إضافة إلى مكانته في نفوس المسلمين .

أما مسجد الضرار فهو المسجد الذي أقامه المنافقون مضاهاة لمسجد قباء ، وإضراراً بالمسلمين ، إذ يلتقون فيه للمكر بالإسلام تحت شعار التجمع للعبادة ، ويطعنون فيه على رسول الله ، ويستهزئون به وبأصحابه ، حتى كشف الله لنبيه نواياهم الخبيثة ، ونهاه عن الصلاة فيه ، مما حدا برسول الله إلى هدمه وحرقه .

الباب الثالث :

تحدثت فيه عن « أبرز مساجد الأمصار الإسلامية ، وأعظمها أثراً في النواحي العلمية والسياسية » .

وقد قسمته إلى ثلاثة فصول ، حسب الأماكن التي توجد فيها تلك المساجد الجامعة .

الفصل الأول : تحدثت فيه عن « مساجد العراق والشام » .

حيث ابتدأت بأول مسجد أقيم بعد الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، وهو « مسجد البصرة في العراق » ، ثم اتبعته بمسجد الكوفة في العراق كذلك ، حيث يعتبر ثاني مسجد يقام خارج الجزيرة العربية ، وأخيراً تحدثت عن جامع المنصور ببغداد .

وقد ألمحت إلى شيء من تأسيس هذه المساجد الثلاثة ، والأدوار التي قامت بها تلك المساجد في النواحي العلمية والسياسية .

ثم تحدثت كذلك عن المسجد الأموي في دمشق ، وكيف تم انشاؤه في عهد الوليد بن عبد الملك وما قيل في ذلك ، بالإضافة إلى الجانب

العلمي والسياسي الذي قام به هذا المسجد .

ثم تكلمت عن المسجد الأقصى المبارك ، وبنائه وتجديده ، وبعض الأحداث التي مرّ بها هذا المسجد ، ودوره العلمي والسياسي في هذا .

الفصل الثاني : « مساجد مصر » الفسطاط ، الطولوني ، الأزهر . حسب أولوية قيام هذه المساجد في مصر .

وقد بدأت الحديث عن أول مسجد أقيم في مصر بعد فتحها على يد القائد « عمرو بن العاص » ، ذلك هو «جامع عمرو في الفسطاط » وقد ألمحت إلى بنائه ، وما طرأ عليه من زيادة وتجديد ، وما قام به من أدوار في المجالين العلمي والسياسي .

ثم تحدثت كذلك عن الجامع الطولوني الذي أقيم في مدينة القطائع ، وما هي الأدوار التي قام بها ذلك الجامع ، مع محافظة هذا الجامع على بنائه وتخطيطه منذ ذلك الوقت إلى الآن . وأخيراً تحدثت عن جامع الأزهر بصفته واحداً من أبرز مساجد الإسلام ، حيث قام بأدوار متعددة سواء العلمي منها أو السياسي ، منذ أن أنشيء في عهد المعز لدين الله الفاطمي من قبل القائد جوهر الصقلي ، إلى أن أصبح جامعة من أكبر جامعات العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر . إذ لم يقتصر هذا الجامع على الجانب العلمي ، بل تعداه إلى السياسي ، لعل من أبرز ما قام به في هذا الجانب هو دوره القيادي في محاربة الاحتلال الفرنسي لمصر .

الفصل الثالث : تحدثت فيه عن :

« مساجد المغرب والأندلس » .

جامع القيروان في تونس ـ جامع الزيتونة في تونس ـ جامع القرويين

في فاس في المغرب الأقصى ـ جامع قرطبة في الأندلس .

وقد تحدثت في البداية عن دور جامع القيروان في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، بصفته أول مسجد أقيم في شمال افريقيا « من قبل القائد العربي عقبة بن نافع الفهري » ثم تحدثت عن جامع الزيتونة الذي أقامه حسان بن النعمان الغساني ، ودور هذا المسجد في نشر الثقافة العربية الإسلامية ، ونشر الدين الإسلامي ، وكذا دوره السياسي في محاربة الاحتلال . أما جامع القرويين في المغرب الأقصى فيعتبر معقلاً للتراث العربي الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية ، إذ قام بأدوار جليلة في الحفاظ على اللغة العربية « لغة القرآن الكريم » والشريعة الإسلامية في تلك المنطقة ، منذ أن أنشيء في القرن الثالث الهجري حتى أصبح جامعة في بداية العقد الرابع من القرن العشرين ، حيث تخرج العديد من العلماء من هذا المسجد سواء كانوا من العرب أو من غيرهم ، كما كان لهذا المسجد دور هام في مكافحة الاستعمار في تلك المنطقة .

أما جامع قرطبة في الأندلس ، فقد تطرقت إلى إنشاء هذا الجامع على يد بانيه « عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، والدور الذي قام به هذا المسجد منذ انشائه إلى أن حول إلى كاتدرائية عندما استولى الاسبان على قرطبة سنة ١٢٣٦م .

خاتمة :

تحدثت فيها عن بعض النقاط الهامة التي ناقشتها ، والنتائج التي توصلت إليها .

الملاحق :

هناك عدد من الملاحق التي ادرجتها ضمن هذا البحث لعل من أهمها :

ملحق : يتضمن نص القرارات والتوصيات التي تمخضت عن مؤتمر رسالة المسجد الذي عقد في مكة المكرّمة من ١٥ ـ ١٨ رمضان عام ١٣٩٥هـ الموافق من ٢٠ ـ ٢٣ سبتمبر ١٩٧٥م **وملحق آخر** : عن التوسعة التي مرت على مسجد رسول الله ﷺ في المدينة وملحق ثالث: يتضمن عدداً من الخرائط والصور الفوتوغرافية لعدد من مساجد الإسلام التي تحدثت عنها في ثنايا البحث .

وأخيراً ، ذيلت البحث بثبت للمصادر والمراجع التي أفدت منها ، وأشرت إليها في الهوامش .

ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أنوه بالشكر الجزيل لكل من أسدى إلي معونة في هذه الدراسة مما يعجز لساني عن شكره ، فلهم مني كل تقدير واحترام ، وجزاهم الله عني خير الجزاء .

والله أسأل مخلصاً له الدين ، أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، وأن يمنّ علينا بالتوفيق والسداد ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وهو الهادي إلى سواء السبيل ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

في ١/٥/١٤٠٧هـ **عبد العزيز اللميلم**

الباب الأول

الهجرة
وبناء الدولة الاسلامية

الفصل الأول

الهجرة

كانت هجرة النبي ﷺ حداً فاصلاً بين عهدين :

العهد المكي : وهو الذي عاش فيه المسلمون مستضعفين مستهدفين لكل ألوان الأذى والتعذيب .

والعهد المدني : وهو الذي بدأت فيه قوة المسلمين ، حيث نعموا فيه بالاستقرار والعزة والمنعة والسؤدد .

ومع أن الهجرة كانت في مظهرها هزيمة وفراراً من ظلم قريش وجبروتها ، إلَّا أنها كانت في حقيقة أمرها انتصاراً باهراً للمسلمين ، لأنها أتاحت الفرصة لأن يستجمع المسلمون قواهم ، ويعدوا العدة لقتال أعدائهم ، يقول البعض في هذا :

إذا كان في تاريخ البشرية أحداث غيرت مجرى التاريخ ، فلسنا نعرف على التأكيد حدثاً بعينه غيّر مجرى تاريخ البشرية له من الأهمية والروعة والجلال ما لهذه الهجرة النبوية ، خرج محمد من مكة خائفاً ليس معه غير رجل واحد ، ومن حوله مئات بل آلاف من الأعداء ، قد أجمعوا على قتله والتخلص منه ، فينجو من براثنهم بأعجوبة .

وفي أقل من ربع قرن يكون هذا الطريد المستضعف قد أسس أعظم

دولة في العالم في القرون الوسطى ، وأقام أساس حضارة أنقذت الإنسان مما عرف في تاريخه بالقرون السود ، حضارة قوامها العلم والعدل ومكارم الأخلاق ، لتكون في واقع الأمر حجر الأساس في الحضارة الحديثة برمتها[1] .

لقد كانت الهجرة حدثاً تاريخياً خطيراً ، فهي لم تكن مجرد هجرة من بلد إلى بلد ، وإنما تكمن عظمتها ومواضع العبرة والتقدير فيها في الحقائق الآتية :

١ ـ الظروف والملابسات التي أحاطت بها ، فقد تمّت من غير إرادة قريش ، وعلى غير رغبتها لأنها كانت تريد بالإسلام شراً ، وبمحمد فتكاً ، فحالت الهجرة بينها وبين ما تريد .

٢ ـ تمّت الهجرة في الليلة التي عقد فيها المشركون العزم على قتل محمد والخلاص منه إلى الأبد ، كما تمّت والمشركون حول داره يترقبونه ليقتلوه .

٣ ـ كانت المرحلة الفاصلة للجولة الأولى بين الإسلام وخصومه ، أي بين قوتين غير متكافئتين على الإطلاق ، قوة قريش بإمكانياتها الهائلة في السلطان والبطش والقوة والنفوذ ، وقوة المسلمين ولم يكن لهم من سلاح يجابهون به كل هذا ، سوى الإيمان العميق بالدعوة الجديدة ورسالتها .

٤ ـ استأنف الإسلام بعد الهجرة مرحلة جديدة من مراحل الدعوة في جوٍّ من الطمأنينة ، وبين أنصار خلَّص ، أحفظ للدعوة ، وأغير عليها ممن

---

(١) مظهر/ جلال ـ محمد رسول الله ـ سيرته وأثره في الحضارة ص ١١٠ .

نـزلت بينهم في بـاديء الأمـر في مـوطنهـا الأصلي ، الـذين كـانـوا يتربصون بها الدوائر ، لكي يقضوا على الرسول وأصحابه .

٥ ـ كـانت الهجرة فيصـلاً بين عهدين ، عهـد ظلم واضطهـاد وعدوان ، وعهد جديد للمقاومة ورد هذا العدوان ، وكانت بداية عهد الاستقرار والاطمئنان في حياة الإسلام ، فقبلها كان المسلمون لا يقدرون على رد عدوان تنزله بهم قريش ، لأنهم لم يكن لديهم من الإمكانيـات ما يؤهلهم للوقوف أمامهـا موقف الخصم للخصم والنـد للند ، فتحملوا أنواع إيذائها صابرين .

أما بعد الهجرة فقد استقـر بهم المقام ، وبـدأوا يكونـون جيشهم ، ويقيمون دولتهم ، ويضعون اللبنة الأولى في الدولة الإسلامية الكبرى التي امتد ظلها في أقل من قرن من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ، ومن أجل هذا كانت الهجرة وستظل أثيرة لدى المسلمين عزيزة عليهم .

وعندما تشاور المسلمون السـابقون مـع الخليفة عمـر رضي الله عنه لتحقيق رغبته في اختيار حادث هام في حياة الإسلام والمسلمين للتأريخ به لم يختاروا غير حادث الهجرة .

كما يشير إلى أسباب الهجرة وبيان نتائجها قول الله تعالى :

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾(*) . وقـال جل من قـائل : ﴿ وإذ يمكـر بك الـذين كفروا ليثبتـوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾(**) ﴿ إلَّا تنصروه فقد

(*) سورة الأنفال آية ٢٦ .

(**) سورة الأنفال آية ٣٠ .

نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾(*) .

وكانت الفترة المكية بمثابة التمهيد للفترة المدنية من العهد النبوي ، فقد تكونت فيها نواة المجتمع الإسلامي من أولئك الأفراد الذين قبلوا الدين الجديد ، وآمنوا برسوله ، وتقررت فيها قواعد الإسلام الأساسية ، وخاصة ما تعلق منها بالعقيدة ، فوضحت بذلك وجهة الإسلام وسبيله .

أما الفترة الثانية فقد فصل ما أجمل من قواعد الإسلام في الفترة الأولى ، ونزلت التشريعات التي احتاجت إليها الدولة الجديدة في الشؤون العامة والخاصة على حد سواء ، ونزل الوحي بعدد كبير من القواعد العامة التي تستنبط منها التشريعات الجزئية التي لم ينص عليها مباشرة في القرآن أو السنّة ، وما كان ذلك إلَّا نتيجة طبيعية لنشوء الدولة الإسلامية الأولى ، وتميُّز المسلمين كأمة عن غيرهم ممن عاشوا في جزيرة العرب خلال هذه الفترة ، وهذا الاتصال بين الفترة المكية والمدنية واضح لكل من تتبع مسيرة الدعوة الإسلامية وتطورها في عصر النبوة[1] .

وتعتبر الهجرة حدثاً عالمياً خطيراً حيث بدأ بها التاريخ الإسلامي المجيد .

ويعود السبب إلى استخدام التاريخ الهجري تاريخاً رسمياً للدولة الإسلامية إلى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار أصحابه في موضوع التاريخ الهجري ، فاتفق الجميع على أن يكون التاريخ من عام

(*) سورة التوبة آية ٤٠ .

(١) دائرة معارف الشباب ص ص ١٠٦٧ ـ ١٠٦٩ .

(٢) العوًا في النظام السياسي للدولة الإسلامية ص ص ٤٤ ـ ٤٥ .

الهجرة ، لأنه الوقت الذي عزّ فيه الإسلام ، وهو الذي أُمِر فيه رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة .

ويقال بأن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب قائلاً :

« إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ ، فجمع عمر الناس ، فقال بعضهم : أرِّخ بالمبعث ، وقال آخرون : أرِّخ بالهجرة ، فقال عمر : الهجرة فرقت بين الحق والباطل ، فأرخوا بها ، وبالمحرم لأنه منصرف الناس من حجهم ، فاتفق الجميع على أن تبدأ السنة الهجرية بالمحرم[1] .

ويقول الطبري : إن أول من أمر بالتأريخ في الإسلام هو عمر بن الخطاب رحمه الله[2] .

وأضاف ابن كثير : ثم قالوا : وأي الشهور نبدأ ؟ قالوا : رمضان ، ثم قالوا : المحرم فهو مصرف الناس من حجهم ، وهو شهر حرام ، فاجتمعوا على المحرم لأنه هو أول شهور العرب ، إذ جعلوا السنة الأولى سنة الهجرة وجعلوا أولها المحرم كما هو معروف[3] .

أما ابن عساكر فقد قال عن ذلك :

ائتمر أصحاب رسول الله ﷺ متى يكتبون التاريخ ؟ فقال بعضهم : نكتبه من الشهر الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : من حين أوحي إليه ، وقال بعضهم : نكتبه من هجرته التي هاجر فيها من دار الشرك إلى دار الإسلام ، فاجتمع رأيهم على أن يكتبوا التاريخ من هجرة النبي

---

(١) السهيلي : الروض الأنف جـ ٤ ص ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ٣٨٨ .
(٣) السيرة النبوية جـ ٢ ص ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

عليه الصلاة والسلام ، ثم قالوا : بأي شهر نبدأ ؟ فاختلفوا في ذلك ، ثم بدا لهم أن يجعلوه من المحرم[1] .

وقد علّق البعض على هذا الحادث قائلاً :

ولعل في اختيار المسلمين يوم الهجرة مبدأً للتاريخ الإسلامي ـ سواء أكان عمر هو صاحب الرأي أم علي ـ دلالة واضحة على اتفاق المسلمين خاصة وعامة ، وإدراكهم امتياز يوم الهجرة على سائر أيام الإسلام العظيمة التي كانت له فتحاً مبيناً مثل يوم البعثة النبوية ، ويوم العقبة ، ويوم بدر ، ويوم الحديبية ، ويوم فتح مكة . وما رأي عمر أو علي ، وموافقة صفوة الصحابة والمسلمين جميعاً إلَّا دليل على عظم هذا اليوم الخالد في تاريخ الإسلام والبشرية ، وامتيازه على كل أيام الإسلام الأخرى ، ولعل من الناس من يدهش لاختيار يوم فرَّ فيه محمد من مكة بالخلود والذكر وإيثاره على أيام النصر والعزة والتمكين[2] .

من كل هذا نرى بأن عدداً من المؤرخين قد اتفقوا على أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من أرّخ بالتاريخ الهجري وأنه بدأه بالمحرم .

وتعتبر الهجرة حدثاً عالمياً لأنها مهّدت الطريق لظهور خير أمة أخرجت للناس ، بما حققت من أروع المثل ، وأسمى المباديء في الجهاد والتضحية والتضامن والإخاء بصورة إنسانية نظرياً وعملياً . وقد أشار القرآن الكريم إلى فضل الهجرة والمهاجرين فقال جل من قائل : ﴿ الذين آمنوا

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير جـ ١ ص ص ٢٣ ـ ٢٤ .
(٢) عطار/ أحمد عبد الغفور/ الهجرة ص ٦٤ .

وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ فالذين هاجروْا وأخرجواْ من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعدما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾[3] كما أن القرآن الكريم قد امتدح الأنصار الذين آووا رسول الله ونصروه هو وأصحابه بقوله تعالى فيهم : ﴿ والذين تبوأواْ الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان به خصاصة ﴾[4] .

أما الأحاديث النبوية الشريفة فقد أشارت هي الأخرى إلى أهمية الهجرة إلى الله تعالى ، يقول رسول الهدى ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وقد بدأ بهذه الهجرة عهد جديد في حياة الإسلام والمسلمين ، عهد لم يشهد العالم له مثيلاً في التآلف والتضامن والمساواة والمؤاخاة ، حيث انفتحت قلوب الأنصار لاخوانهم المهاجرين ، فآووهم في دورهم وقاسموهم في معيشتهم .

« ولقد شرفت المدينة المنورة بهجرة رسول الله ﷺ إليها ، وصارت

---

(١) سورة التوبة آية ٢٠ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٩٥ .
(٣) سورة النحل آية ٤١ .
(٤) سورة الحشر آية ٩ .

كهفاً لأولياء الله وعباده الصالحين ، ومعقلاً وحصناً منيعاً للمسلمين ، ودار هدى للعالمين »[1] .

وقد تحدث البعض عن أهمية الهجرة النبوية بالنسبة للمسلمين إذ يقول : من الثابت الذي لا ريب فيه أن هجرة المصطفى ﷺ من مكة إلى المدينة كانت إيذاناً بولادة أول مجتمع إسلامي راسخ متماسك على وجه الأرض .

ومن الثابت أيضاً أن النبي ﷺ أقام هذا المجتمع على ثلاثة أسس :

أ ـ المسجد الذي شاده .

ب ـ الأخوة التي عقد أواصرها بين المسلمين .

جـ ـ الوثيقة «أي الدستور» التي اكتتبها بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وبين المسلمين وغيرهم ، وليس في هذا بحد ذاته ما يلفت النظر أو يثير الانتباه ، وإنما الذي يلفت النظر حقاً هو أنه عليه الصلاة والسلام بدأ من هذه الأسس الثلاثة بالمسجد يستعجل في بنائه ، ويحثهم على إتمامه ، ولا يلتفت إلى شيء آخر غيره ، حتى إذا أتم بناءه عمد إلى الأساس الثاني وهو عقد أصرة الأخوة الإسلامية بين المسلمين ، حتى إذا نضجت هذه الأخوة وقام لها سلطان حقيقي في النفوس عمد عليه الصلاة والسلام إلى الأساس الثالث ، ألا وهو وضع الوثيقة الملزمة ، والمباديء الرئيسية الضابطة والمنظمة لعلاقات المسلمين بعضهم مع بعض ، وعلاقاتهم مع الآخرين .

من المسجد إذاً ولد المجتمع الإسلامي المتماسك ، وفي حماه قام

---

(١) السيرة النبوية/ ابن كثير جـ ٢ ص ٢٨٤ .

كل من الأساسين العظيمين لأول مدنية إنسانية صحيحة ، وهي التآلف القلبي ، والنظام الدستوري .

ولو تأخر دور المسجد عن مكان الصدارة في البناء والتأسيس لما استقام المجتمع الإسلامي على نهج ، ولعاد أنكاثاً وأشتاتاً لا يمسكه شريان ، ولا يضبطه نظام مهما قامت للتآخي والألفة شعارات ، ومهما وضعت للتنظيم والعدالة دساتير وأحكام[1] .

كانت هجرة المسلمين إلى يثرب بداية النهاية للعهد المكي الذي دام ثلاث عشرة سنة ، وكذلك كانت فاتحة العهد المدني في حياة رسول الله ﷺ الذي دام عشر سنوات .

وتختلف حياة المسلمين خلال كل من العهدين « المكي والمدني » اختلافاً كبيراً ، ففي العهد المكي : تعرضت الدعوة واتباعها لحملات شديدة من التكذيب والسخرية والاستهزاء والإيذاء ، وعاش النبي ﷺ وقتها في كنف عمه أبي طالب يحميه ويدافع عنه حتى مات ، فقد عاشت الدعوة أول أمرها في طي الكتمان ثلاث سنوات حتى جاء أمر الله لنبيه بالجهر بها ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾[2] . وعندما بدأ عليه الصلاة والسلام في إعلان دعوته في أوساط قريش نفروا منه ، وبدت منهم العداوة والبغضاء ، ولجأوا إلى سلاح التعذيب والتنكيل بكل من آمن بالدعوة الجديدة ، فاضطر فريق ممن آمنوا بدعوة رسول الله إلى الفرار إلى الحبشة بأمر رسول الله ﷺ ، علهم يجدون فيها ملجأ وملاذاً من اضطهاد قريش لهم

---

(١) السيد/ عبد الستار/ الألفة والمحبة في ظلال المسجد/ بحوث مؤتمر رسالة المسجد ص ٣٦٠ .

(٢) سورة الحجر آية ٩٤ .

عند حاكمها النجاشي ، وبقي من لم يستطع الخروج لسبب أو لآخر بمكة مستهدفاً لأقسى أنواع الاضطهاد[1] .

ويحسن أن أورد نبذة قصيرة عن هجرة المسلمين إلى الحبشة الأولى والثانية ، وما لقي هؤلاء عند ملكها النجاشي ، ولنترك للبعض الحديث عن هذا الموضوع إذ يقول :

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر على منعهم مما هم فيه من البلاء ، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يملك من القوة والسلطان في قريش ما يستطيع به دفع الأذى عمن آمنوا به ، فقال لهم رسول الله : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله عز وجل بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام[2] .

وقد علّق البعض على هذه الكلمة التي أمر فيها رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة إذ يقول :

« هذه العبارة التي قالها رسول الله عليه الصلاة والسلام » حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ، دليل على أن الهجرة لم تكن إلَّا إجراءً وقتياً ، قصد به مجرد حماية الأفراد المسلمين من أذى قريش وبغيها الذي لم يكن الرسول قادراً على منعهم منه[3].

---

(١) سيرة الرسول ومعالمها من القرآن والسنّة المطهرة ص ١٢٠ .

(٢) السيرة النبوية/ ابن هشام جـ ١ ص ٣١٥ .

(٣) في النظام السياسي للدولة الإسلامية ص ٤١ .

وكـان أول من خـرج من المسلمين من بني أميـة بن عبـد شمس ، عثمان بن عفان رضي الله عنه ومعه امرأته رقية ابنة رسول الله ﷺ ، ومن بني عبد شمس أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو أحد بني عـامر بن لؤي ، ومن بني أسـد بن عبد العـزي بن قصي ، الزبير بن العوام ، إلى آخرهم .

وقد عدّهم ابن إسحاق في أول الأمر عشرة وقال : كان هؤلاء العشرة أول من خـرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ، ثم خـرج جعفـر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، فمنهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه ، ثم عدهم بعد ذلك تمام اثنين وثمانين رجلاً بالعشرة الذين ذكرت أسمـاؤهم ، ومن كان منهم معـه أهله وولده ، ومن ولد له بأرض الحبشة ، ومن كان منهـم لا أهل معه[١] .

أما ابن سعد فقد خالف ما أشار إليه ابن هشام بالنسبة لمن هاجر إلى الحبشـة في المرة الأولى إذ يقـول : كان عـددهم أحد عشـر رجلاً وأربـع نسوة[٢] أما الهجرة الثانية إلى الحبشة فقد أشار ابن سعد هو الآخر إلى أن عـددهم كان ثـلاثة وثمـانين رجلاً ، وإحـدى عشرة امـرأة قرشيـة ، وسبع غرائب[٣] .

ولما خرج من خـرج من أصحاب رسـول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مهاجراً إليها ، ورسول الله ﷺ يدعو الله سراً وجهراً ، قد منعه الله بعمه أبي

---

(١) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ١ ص ص ٣١٥ ـ ٣١٦ ، تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ٣٣١ .

(٢) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٠٤ .

(٣) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٠٧ .

طالب ، وبمن استجاب لنصرته من عشيرته ، ورأت قريش أنهم لا سبيل لهم إليه ، رموه بالسحر والكهانة والجنون ، وأنه شاعر ، وجعلوا يصدون عنه من خافوا منه أن يسمع قوله فيتبعه .

وقد اجتمع أشراف قريش يوماً في الحجر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم . فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول ، ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها ، ثم مضى ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف وقال : أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفس محمد بيده ، لقد جئتكم بالذبح .

فأخذت القوم كلمته فما منهم رجل إلّا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه(*) بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول :

انصرف يا أبا القاسم راشداً فوا الله ما كنت جهولاً[1] .

ولما استقر بالذين هاجروا إلى أرض الحبشة القرار بأرض النجاشي واطمأنوا ، تآمرت قريش فيما بينها في الكيد بمن ضوى إليها من المسلمين ، فوجهوا عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي إلى النجاشي ، مع هدايا كثيرة أهدوها إليه وإلى بطارقته ، وأمروهما أن يسألا النجاشي تسليم من قبله وبأرضه من المسلمين إليهم ، فشخص عمرو

(*) يرفؤه : يهدئه ويرفق به .

(١) الطبري / تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .

وعبد الله إليه في ذلك ، فنفذا لما أرسلهما إليه قومهما ، فلم يصلا إلى ما أمل قومهما من النجاشي ، فرجعا مقبوحين[1] .

وقد وضح ابن هشام هذه النقطة إذ يقول :

لما قدم الوفد الحجازي هداياه للنجاشي وبطارقته قال أحدهما للنجاشي :

أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، فقالت بطارقة النجاشي : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم ، فغضب النجاشي وقال : إذاً لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني ، فدعا النجاشي أصحاب رسول الله فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبيّنا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلما جاءوا وكان النجاشي قد دعا أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ثم سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ فكلمه جعفر بن أبي طالب فقال له : أيها الملك ،

---

(١) نفس المصدر والجزء ص ٣٣٥ .

كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصوم ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك ، فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأه علي ، فقرأ عليه صدراً من ﴿ كهيعص ﴾ فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون . فلما خرج وفد قريش من عند النجاشي قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم ، والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ، ثم غدا عليه من الغد فقال : أيها الملك . إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه ، فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، فاجتمع القوم ، ثم قال

بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ، ردوا عليهم هداياهما فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه ، فخرج مَنْ عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءوا به[1] .

نعم لقد استعملت قريش جميع الوسائل لصد النبي ﷺ عن دعوته ، وإكراه أصحابه إلى العودة إلى دين آبائهم وأجدادهم وترك عبادة الله ، ولكن دون جدوى ، لأن النبي ﷺ كان صاحب رسالة ، لم يكن له مطمع في شيء من متاع الدنيا وزخرفها ، وإنما كان هدفه إعلاء كلمة الله ونشر دينه في أقطار الأرض كما أمره ربه سبحانه وتعالى .

وظلت الدعوة على هذه الحال حبيسة مضطهدة في مكة ، وبقي مسلموا مكة ممن لم تتح لهم فرص الهجرة إلى الحبشة ـ في سجنهم هذا ولسان حالهم يقول كما قال القرآن الكريم عنهم : ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾[2] .

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لرسوله وللمؤمنين حينما أتاح

---

(١) السيرة النبوية/ ابن هشام/ جـ ١ ص ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨ .
(٢) سورة النساء آية ٧٥ .

للإسلام جماعة من أهل يثرب حضـروا موسم الحـج ، وقابلوا النبي عليـه الصلاة والسلام ، وآمنوا به وعاهدوه على نشر الإسلام في بلدتهم « يثرب » وبايعوه في مـوسمين متلاحقين وهمـا بيعتا العقبـة الأولى والثانيـة على أن يمنعوه ويحموه . ولنترك لابن هشام الحديث عن ذلك إذ يقول :

خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقـال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قـال : أفلا تجلسـون أكلمكم ؟ قالـوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، فقال بعضهم لبعض :

يا قوم ، تعلموا والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مـا بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فنـدعوهم إلى أمـرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فـإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا .

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار إثنـا عشر رجلاً فلقوه بالعقبـة وهي العقبة الأولى ، فبـايعوا رسـول الله ﷺ على بيعة النساء ونص البيعة هو : قال عبادة بن الصامت : كنت فيمن حضر بيعة العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً فبايعنا رسـول الله ﷺ على بيعة النسـاء وذلك قبل أن تفترض الحرب ، على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ،

ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك فأمركم إلى الله عزّ وجلّ إن شاء عذّب وإن شاء غفر(١) .

أما بيعة العقبة الثانية فقد واعد الأنصار رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً ومعهم امرأتان هما : أم عمارة ، واسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي .

وقد اجتمع هؤلاء النفر في الشعب ينتظرون رسول الله ﷺ حتى جاء ومعه عمه العباس ، فلما جلس رسول الله كان العباس أول متكلم ، فقال : يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز ومنعة من قومه قد أبى إلَّا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عزّ ومنعة من قومه وبلده ، فقالوا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فقال رسول الله ﷺ : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر ، وقام أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية جـ ٢ ص ص ٢٩ ـ ٣٢ .

قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم[1] .

ومنـذ ذلك الحين أذن رسـول الله ﷺ لأتبـاعـه بـالهجـرة إلى يثـرب واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها ، فخرجوا أرسالاً ، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة[2] .

وأضاف ابن فهد إلى ذلـك قائـلاً : فمن أراد الخروج فليخـرج فإن البلاد قريبة ، وأنتم عارفون بها ، وهي طريق عيركم إلى الشـام ، فجعلوا يتجهزون ويتواسون بالمال والظهر ويخفون ذلك[3] .

نعم لقد خرج هؤلاء القـوم يتسللون جماعـات وفرادى سـراً ما عـدا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي خرج جهاراً نهاراً ، ودخل على قريش في الكعبة قائلاً لهم : من أراد أن تثكله أمه ، وييتم ولده فلألقه وراء هذا الوادي فإني مهاجر إلى يثرب ، فلم يجرؤ أحد على منعه أو مناوأته .

ويـروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنـه أنه قـال : ما علمت أحـداً من المهاجـرين هاجـر إلَّا مختفياً ، إلَّا عمـر بن الخطاب رضي الله عنه ، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب(*) قوسه وأنفض(**) بدنه ، وجعلها في يديه معدة للرمي بها ، واختصر عنزته(***) ، وحملها مضمومة

---

(1) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ .
(2) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ٥٨ .
(3) إتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ جـ ١ ص ٣٥٣ .
(*) تنكب : أي وضعه على كتفه .
(**) أنفض بدنه : أي أخرج سهماً من كنانته .
(***) العنزة : هي أطول من العصا وأقصر من الرمح في أسفلها حديدة مدببة .

إلى خاصرته ، فمضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أتى المقام فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحِلَق واحدة واحدة ، فقال لهم : شاهت الوجوه لا يرغم الله إلَّا هذه المعاطس(****) ، من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي ، فما تبعه أحد إلَّا قوم من المستضعفين ، علمهم ما أرشدهم إليه ، ثم مضى لوجهه[1] .

وكيف لا يكون ذلك وهو الرجل الذي أعزّ الله به الإسلام ، إذ يقول رسول الهدى ﷺ : اللهم انصر الإسلام بأحد العمرين ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فكان عمر بن الخطاب ، وقال عنه ابن مسعود : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وهجرته كانت نصراً ، وإمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه[2] .

والمتتبع لهذا الحدث يرى بأن رسول الله ﷺ قد هاجر سراً بينما نجد أن عمر بن الخطاب قد هاجر جهاراً نهاراً ، متحدياً فرسان قريش وصناديدها .

فلماذا هاجر رسول الله سراً ؟ بينما هاجر عمر جهراً ؟

من المعروف والمسلّم به أن رسول الله ﷺ كان أثبت جناناً ، وأكثر شجاعة من سائر المسلمين ، والأدلة على هذا كثيرة ، ولعل ثباته في معركة أُحد خير شاهد على ذلك . وللإجابة على هذا التساؤل يمكن أن يقال بأن

(****) المعاطس : كناية عن الأنوف لأن العطاس يصدر منها.

(١) أبو فارس/ محمد عبد القادر/ في ظلال السيرة النبوية/ الهجرة النبوية ص ص ٣١ - ٤٢ .

(٢) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ١ ص ٣٣٣ .

عمر بن الخطاب هو غير رسول الله ﷺ إذ يعد تصرفه شخصياً ، لا حجة تشريعية فيه ، فله أن يختار من الوسائل والأساليب ما يحلو له ، وما يتفق مع قوة جرأته ، وإيمانه بالله تعالى .

بينما نرى أن رسول الله ﷺ يختلف تماماً عن عمر ، فرسول الله مشرع فيما أوحي إليه من عند الله ، وسنته هي المصدر الثاني من مصادر التشريع ، وجميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعاً لنا ، فلو أنه فعل كما فعل عمر لحسب الناس أن هذا هو الواجب ، وأنه لا يجوز أخذ الحيطة والحذر عند الخوف ، مع أن الله سبحانه وتعالى قد أقام شريعته في هذه الدنيا على مقتضى الأسباب ومسبباتها.

لأجل هذا استعمل رسول الله ﷺ كل الوسائل والأساليب التي يهتدي إليها العقل البشري في مثل هذا العمل ، إذ أبقى علي بن أبي طالب في فراشه ، واستعان بأحد المشركين ليدله على الطريق ، وأقام في الغار ثلاثة أيام متخفياً ، ليوضح بذلك أن الإيمان بالله عزّ وجلّ لا ينافي استعمال الأسباب المادية التي أراد الله عزّ وجلّ بعظيم حكمته أن يجعلها أسباباً .

أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر الإذن من الله له في الهجرة ، فلم يتخلف معه أحد بمكة - إلاَّ من حبس أو فتن - إلاَّ أبا بكر الصدّيق ، وعلي بن أبي طالب .

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله عليه الصلاة والسلام في الهجرة ، فيقول له الرسول لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله هو الصاحب ، ولما تيقن أبو بكر من ذلك ابتاع راحلتين واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك(1) .

---

(1) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ١ ص ٣٣٣ .

وقد عرض أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ إحدى الراحلتين ، إلَّا أن الرسول رفض أن يأخذها إلَّا بثمنها ، بل أصرّ على دفع الثمن ، لأن البذل في هذه الهجرة ضرب من العبادة ينبغي الحرص عليه لا أن يعتمد على الآخرين في مثل تلك الأمور .

وقد فاز أبو بكر رضي الله عنه بصحبة رسول الله ﷺ ، ويا لها من صحبة ، لا نستغرب هذا عندما نعلم تضحيات أبي بكر رضي الله عنه ، وهو الذي نزل فيه قول الله تعالى : ﴿ وسيجنبها الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزىٰ ، إلَّا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ﴾(*) كما يقول ابن كثير في تفسيره وغيره وهو الرجل الذي قال فيه أشرف خلق الله : « ما أحد آمن علي في صحبته ، وذات يده من أبي بكر ، وما نفعني مال ، ما نفعني مال أبي بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لأتخذت أبا بكر خليلاً » .

وقد استمرّ المسلمون على هذا المنوال حتى أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه بالهجرة إلى المدينة ، وقد أنجاه الله تبارك وتعالى من مؤامرة قريش لاغتياله في بيته ، إذ خرج من مكة سراً يصحبه رفيقه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه .

يقول عروة بن الزبير عن هذا الموضوع :

أجمع مشركوا قريش أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج ، وعلموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة ، وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين ، فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا

(*) سورة الليل الآيات من ١٧ ـ ٢١ .

رسول الله ، فإما أن يقتلوه وإما أن يسجنوه ، وإما أن يخرجوه ، وإما أن يوثقوه ، فأخبره الله عزّ وجل ، قال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾(**)(١) .

ويقول البعض : عندما بلغ قريش تأهّب النبي ﷺ إلى يثرب ، اجتمع رجالها بدار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره ، فاتفق رأيهم على قتله فخرج من داره ليلاً بعد أن أمر علي بن أبي طالب أن ينام في فراشه ، فخرج عليه الصلاة والسلام من داره وقريش تتربص به ، فحثا على رءوسهم التراب ، وعلي نائم في فراشه ليوهم المتآمرين بأن رسول الله ﷺ نائم فيطمئنون إلى أنه لن يفلت من أيديهم ، وكلف رسول الله علياً بأن يتخلف في مكة حتى يؤدي عنه تلك الودائع التي كانت عنده للناس ، ذلك أنه لم يكن بمكة أحد يخشى على شيء إلاَّ وضعه أمانة عند محمد لما يعلم من صدقه وأمانته ، بالرغم من العداوة التي كان يكنها الكثير من رجالات قريش البارزين لرسول الله ﷺ(٢) .

التقى الرسول ﷺ بأبي بكر الصدّيق ، وأخبره أن الله قد أذن له في الخروج من مكة ، فطلب أبو بكر صحبة الرسول فأجابه إلى ذلك ، ومضى الإثنان إلى غار بجبل ثور وكانت قريش إذ ذاك ترقب تحركات الرسول ﷺ ، وانتدبت من يتتبع أثره حتى وصل البعض إلى الغار ، فأوجس أبو بكر

---

(١) مغازي رسول الله ص ١٢٨ .

(**) سورة الأنفال آية ٣٠ .

(٢) السهيلي / الروض الأنف جـ ٤ ص ١٨٢ ، ابن فهد / إتحاف الورىٰ جـ ١ ص ٣٦٢ .

خيفة ، وأخذ رسول الله يهديء من روعه قائلاً له : ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك قائلاً : ﴿ إلَّا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾[1] .

وكان عبد الله وأسماء إبنا أبي بكر يأتيانهما بأخبار قريش وبالطعام كل يوم ، حتى نزلا من الغار بعد ثلاث ليال ، وأخذا طريقهما إلى يثرب .

يقول ابن إسحاق : أمر أبو بكر ابنه أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام إذا أمست بما يصلحهما[2] .

ولما فشلت قريش في العثور على رسول الله ﷺ وصاحبه ، جعلت لمن يعثر عليهما أحياءً أو أمواتاً جائزة سنية قدرها البعض من المؤرخين بمائة ناقة .

وكان سراقة بن مالك هو الرجل الذي كاد أن يفوز بتلك الجائزة ، لولا لطف الله بنبيه ، إذ خرج باحثاً عنهما ومن معهما حتى أبصر بهم ، يقول سراقة عن نفسه : فأخذت رمحي وخرجت حتى أتيت فرسي فركبتها ،

---

(١) سورة التوبة آية ٤٠ .

(٢) السيرة النبوية/ جـ ٢ ص ٧٤ ، مغازي رسول الله ص ١٣٠ .

ففرت بي حتى دنوت منهم ، فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت ، وامتطيتها ثانية فانطلقت حتى قربت منهم ، وكان أبو بكر يكثر الإلتفات ليتبين ذلك العدو الجسور ، فلما دنا سراقة عرفه أبو بكر فقال لرسول الله ﷺ : هذا سراقة بن مالك قد رهقنا ، وما أتم كلامه حتى هوت الفرس مرة ثانية ملقية سراقة من على ظهرها ، فقام معفراً ينادي بالأمان .

وقد وقع في نفس سراقة أن الرسول حق ، فاعتذر سراقة لرسول الله وسأله أن يدعو الله له ، وعرض عليهما الزاد والمتاع ، فقالا : لا حاجة لنا ، ولكن عم عنا الطلب ، فقال : قد كفيتم ، ثم رجع فوجد الناس جادين في البحث عن محمد وصاحبه ، فكان لا يلقىٰ أحداً من الطلب إلّا رده وهو يقول : كفيتم هذا الوجه(١) .

ويقول البعض عن سراقة : أصبح سراقة أول النهار جاهداً عليهما ، وأمسى آخره حارساً لهما(٢) .

ويجب أن لا يغيب عن البال بأن ما حدث لسراقة وفرسه عندما لحق برسول الله ﷺ ما هو إلّا معجزة خارقة لرسول الله اتفق أئمة الحديث والتاريخ على صحتها .

لم يسلك رسول الله ﷺ في هجرته الطريق السهل المألوف بين مكة والمدينة ، وإنما سلك الطريق الصعب المهجور ، المأمون نسبياً ، ولكنه معرض للتيه في الصحراء ، فاستأجر رسول الله دليلاً ماهراً ، نعم لقد استأجر دليلاً خبيراً بطريق الصحراء ليستعين بخبرته على مغالبة

---

(١) ابن سيد الناس/ عيون الأثر جـ ١ ص ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ، إتحاف الورىٰ جـ ١ ص ٣٨٥ .

(٢) فقه السيرة ص ١٧٥ .

المطاردين ، ونظر في هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها ، فإذا اكتملت في أحد ولو كان مشركاً فلا مانع من استخدامه والانتفاع بموهبته ، وهذا ما حصل عندما استأجر رسول الله رجلاً كافراً لكنه كان خبيراً فذّاً في معرفة هذا الطريق الوعر ، ذلكم هو عبد الله بن أريقط في رواية ، وابن أرقط في رواية أخرى .

ويحسن أن أورد هذا الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ وصاحبه حسبما جاء في سيرة ابن هشام إذ يقول :

سلك عبد الله بن أرقط بالرسول ﷺ وصاحبه أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخرار ، ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفاً ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة محاج ، ثم سلك بهما مرجح محاج ، ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين ، ثم بطن ذي كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن ، ثم على العبابيد ، ثم أجاز بهما القاحة ، ثم هبط بهما العرج ، وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهم ، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم يقال له : « أوس بن حجر » على جمل له إلى المدينة ، وبعث معه غلاماً له يقال له : « مسعود » من هنيدة ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية الغائر ، حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما قباء علىٰ بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين[1] .

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الطريق أنظر الخريطة رقم (١) في ملحق الصور والخرائط .

وقد نزل عليه الصلاة والسلام على كلثوم بن هدم أخي بني عمرو بن عوف .

ويقال : بل نزل على سعد بن خيثمة ، فأقام بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسس مسجده ، وخرج من قباء يوم الجمعة ، وصلى الجمعة في بني سالم بن عوف ، إذ صلاها في المسجد الذي في بطن الوادي « وادي رانوناه » فكانت أول جمعة صلاها في المدينة[1] .

نعم لقد هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى يثرب حينما اشتد إيذاء قريش له يصحبه في ذلك أول من آمن به من الرجال « أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه » فلما وصل إلى قباء في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٦٢٢ ميلادية أسس فيه أول مسجد بني في الإسلام ، وأول مسجد أسس على التقوى . يقول الله تبارك وتعالى عن هذا المسجد : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾[2] .

لقد قام رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ببناء ذلك المسجد ، وكان رسول الله أول من وضع حجراً في قبلته ، ثم جاء أبو بكر فوضع حجراً إلى جانب حجر رسول الله ، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبي بكر ، ثم أخذ عثمان حجراً فوضعه إلى جنب حجر عمر ، ثم قال رسول الله : ليضع كل رجل حجره حيث أحب .

---

(١) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ص من ٧٨ ـ ٨٢ ، ابن الجوزي/ الوفا بأحوال المصطفى ص ٢٥٠ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٨ .

وبعد بناء مسجد قباء والصلاة فيه إنتقل رسول الله ﷺ إلى يثرب حيث استقبله الأنصار ، وحاول كل واحد منهم الإمساك بزمام ناقته طالباً منه الإقامة عنده ، فقال لهم رسول الله : دعوها فإنها مأمورة .

وعندها بركت على باب مسجده الحالي ، ثم وثبت وسارت غير بعيد ، ورسول الله واضع لها زمامها ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ، ونزل عنها رسول الله ﷺ ، ثم قال : أي الدور أقرب ؟ فقال أبو أيوب زيد بن خالد الأنصاري : داري ، هذا بابي وقد حططنا رحلك فيها ، فقال رسول الله ﷺ : المرء مع رحله(١) .

وعندها نزل النبي عليه الصلاة والسلام بدار أبي أيوب سبعة أشهر تقريباً(٢) .

وكان رسول الله ﷺ في أسفل الدار وأبو أيوب وزوجته في أعلاها فقال له أبو أيوب : يا رسول الله ، لا أعلو سقيفة وأنت تحتها ، فتحول النبي إلى أعلى الدار ، وأبو أيوب في الأسفل(٣) .

بركت الناقة على مربد لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما غلامان يتيمان تربيا في حجر أسعد بن زرارة ، فابتاعه النبي عليه الصلاة والسلام منهما ليبنيه مسجداً ، وقد عرضاه على رسول الله بدون بيع ، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام رفض إلَّا أن يشتريه ، وكلف أبا بكر بتسديد القيمة

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٣٧ ، الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ص ٧٦ ـ ٧٧ .
(٢) فتوح البلدان ص ١١ ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ١ ص ٢٦٠ .
(٣) ابن كثير/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ٧٨ .

وقدرها عشرة دنانير[1] . أما ابن خلدون فيشير هو الآخر إلى قصة شراء الأرض إذ يقول :

سأل رسول الله ﷺ عن المربد ، وأراد أن يتخذه مسجداً فاشتراه من بني النجار بعد أن وهبوه إياه أولاً فأبى قبوله ، ثم أمر بالقبور فنبشت ، وبالنخل فقطعت[2] .

أما ابن هشام فقد أورد قصة مبرك الناقة على هذا النحو إذ يقول :

وقد اعترضت رسول الله العديد من القبائل قائلين له : أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة ، وهو يقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فانطلقت حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده ، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني النجار ـ وهما في حجر معاذ بن عفراء ـ سهل وسهيل ابني عمرو ، فلما بركت ورسول الله عليه السلام لم ينزل عنها ، وثبت وسارت غير بعيد ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ثم تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها ، فنزل عنها رسول الله ، فاحتمل أبو أيوب « خالد بن زيد » رحله فوضعه في بيته ، ونزل رسول الله ، وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيمان لي ، وسأرضيهما ، فاتخذه مسجداً[3] .

ويقول أبو أيوب : لما نزل علي رسول الله في بيتي نزل في السفل

---

(١) تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد ص ص ١٣١ ـ ١٣٢ ، رحلة ابن بطوطة ص ١١٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون (العبر) جـ ٢ ص ١٦ .

(٣) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ٨٣ ، السيرة النبوية/ ابن كثير جـ ٢ ص ٢٧٣ .

وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهر أنت وكن في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفل ، فقال : يا أبا أيوب ، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت ، قال أبو أيوب : فكان رسول الله ﷺ في سفله ، وكنا فوقه في المسكن[1] . ومن المعروف أن المكان الذي اتخذه الرسول عليه الصلاة والسلام مسجداً إنما كان مصلى لرجال من المسلمين قبل أن يتخذه رسول الله مسجداً . من كل هذا نرى بأن الهجرة النبوية المباركة كانت مبدأ عظمة الإسلام ، ومطلع حرية الأمة الإسلامية ، ذلك اليوم الذي بدأت به الهجرة هو اليوم الذي فرّق الله فيه بين الحق والباطل ، وهو اليوم الذي استقل فيه المسلمون بأمرهم ، ونالوا به حريتهم في عبادة ربهم بكل أمن وطمأنينة ، وكان مقدمة لسلامة الأمة الإسلامية من كيد خصومها في الداخل والخارج ، فأقامت تلك الأمة المسلمة واجبات دينها بهدي من خالقها سبحانه .

(١) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ٨٩ ، ابن الجوزي/ الوفاء بأحوال المصطفى ص ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

الفصل الثاني

بناء الدولة الإسلامية

لقد وجدت الدعوة بعد استقرار رسول الله ﷺ ومن آمن به في المدينة المنورة مجالاً رحباً من الأمن والحرية والإخاء ، ومنطلقاً للجهاد ، ونشر الدعوة والكفاح والنضال ضد أعدائها ، فأخذ رسول الله ﷺ يبني ويؤسس المجتمع الإسلامي المؤمن المتحد القوي في يثرب .

وقد كان أول عمل شرع فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام بعد قدومه إلى المدينة هو تأسيسه لمسجده الذي اتخذ منه مكاناً للعبادة ، ومنطلقاً للجهاد ، وساحة تتجمع فيها الجيوش لقتال أعداء الله ، ومدرسة لتعليم أصحابه أسس الدعوة إلى الله تعالى ، ومكاناً لاستقبال الوفود القادمة إلى المدينة(*) .

وقد وضع النبي حجر الأساس لمسجده حيث أخذ حجراً فوضعه بيده أولاً ، ثم أمر أبا بكر فجاء بحجر فوضعه إلى جنب حجر النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم عمر كذلك ، ثم عثمان ، ثم علياً[١] .

ويبدو لي أنه لو كان هذا الموضوع كما قيل لما اختلف المسلمون من

(*) عن هذا المسجد : أنظر ملحق الصور والخرائط من رقم ٢ ـ ٩ .

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ١ ص ٢٣٧ .

المهاجرين والأنصار في أمر الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ .

لقد بني مسجد رسول الله بالطين واللبن ، وسقف جزء منه بسعف النخيل ، وترك الجزء الآخر مكشوفاً . وخصصت إحدى نواحيه المسقوفة ـ بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ـ لإيواء الفقراء من المهاجرين ممن لا يملكون سكناً وهم من يسمون بأهل الصفة . ولم يكن المسجد يضاء ليلاً إلَّا وقت صلاة العشاء ، إذ توقد فيه أنوار من القش ، وقد اتخذت فيما بعد مصابيح شدت إلى جذوع النخل[1] .

وإلى جانب المسجد أقيمت مساكن زوجات النبي ﷺ ، وذلك في الناحية الشرقية من المسجد ، مع أنها لم تبن في وقت واحد .

وقد أشار القرآن الكريم إلى المسجد في مناسبات متعددة ، يقول تبارك وتعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾[2] ويقول سبحانه : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾[4] . وقال جلّ من قائل : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾[5] .

---

(١) هيكل/ محمد حسين/ حياة محمد ص ٢٢٠ .
(٢) سورة الأعراف آية ٢٩ .
(٣) سورة الأعراف آية ٣١ .
(٤) سورة الجن آية ١٨ .
(٥) سورة النور الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

أما الأحاديث فقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في المساجد يقول عليه الصلاة والسلام : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، ويقول أيضاً : أحبّ البلاد إلى الله مساجدها ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى . ويقول : من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة ، ويقول : إن الله تعالى قال : إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زواري فيها عمارها ، فطوبى لمن تطهر في بيته ثم زارني في بيتي ، فحق على المزور أن يكرم زائره . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وبالرغم من وجود العديد من النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة التي تبين بجلاء لا لبس فيه الهدف الأسمى من إقامة المساجد ، إلّا أن هناك ـ وللأسف الشديد ـ من يدعي بأن الذي دعا المسلمين إلى التفكير جدياً والتبكير بإنشاء المسجد ، هو إحساسهم بأن البيوت الخاصة تضيق باجتماعاتهم ، ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ، ومن هنا أسسوا المسجد وأطلقوا عليه بيت الله إشارة إلى أن الداخل فيه لا يحتاج إلى استئناس ولا استئذان ، وربما جارى المسلمون جيرانهم من اليهود والنصارى ، فقد كان لهؤلاء وأولئك بيع وكنائس يذكر فيها اسم الله ، ويتعبد فيها[1] .

وفي اعتقادي أن ما أشار إليه هذا الكاتب هو رأي خاطيء ، ويتعارض مع ما أشار إليه القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة ، لأن العرب قبل الإسلام كانوا يحسون فعلاً بأن بيوتهم تضيق باجتماعاتهم ، ولهذا كانت لهم دار الندوة في مكة المكرمة للتشاور فيما بينهم ، وسقيفة بني

---

(١) شلبي / أحمد/ تاريخ التربية الإسلامية ص ١٠٢ .

ساعدة في المدينة المنورة ، وكذا دور الضيافة لإيواء الفقراء والمحتاجين والضيوف والزائرين ، وفي المجتمعات الريفية توجد كذلك دور للضيافة ، وكيف يجاري المسلمون اليهود والنصارى ؟ والمسلمون إنما يعملون بأمر رسول الهدى ﷺ الذي يستمد آراءه من الله سبحانه وتعالى ، فهم ليسوا بحاجة إلى مجاراة أحد من الناس في مثل تلك الأمور .

فمن أين استقى الكاتب تلك المعلومات ؟

المعروف أن رسول الله ﷺ حينما أسس مسجده في المدينة المنورة كان الهدف الأول من إنشائه هو أن يكون مقراً للعبادة كما أمره ربه ، لا كما يراه الكاتب من أن الهدف الأسمى من إنشائه إنما يعود إلى ضيق بيوت الناس ليكون منتدى لهم ، وإنما انشيء ليكون متعبداً للمسلمين أولاً وقبل كل شيء ، ولهذا فإن ما أشار إليه الكاتب لا يتفق ـ في نظري ـ مع الواقع والمنطق .

والأغرب من هذا أن نجد من يكتب عن مسجد رسول الله ﷺ بأنه لم يبن لأن يكون مصلى لجماعة المسلمين ، وإنما بني ليكون داراً للرسول ليسكنها ، ثم ألحق بها رحبة واسعة مسورة ليؤدي فيها المسلمون صلواتهم .

يقول كريز ويل عن هذا الموضوع : إن النبي لم يبن مسجده في المدينة ليكون مصلى للجماعة الإسلامية ومركزاً سياسياً واجتماعياً لها ، وإنما ابتني ـ على حد زعمه ـ داراً لنفسه ليسكنها، وألحق بها رحبة واسعة مسورة ليؤدي فيها المسلمون صلواتهم[1] .

---

(١) نقلاً عن د . حسين مؤنس في كتابه/ المساجد ص ٥٢ .

ويعلق الدكتور حسين مؤنس على هذا قائلاً : إن الإنسان ليتعجب ويتأسف في الوقت نفسه من تشبث هذا الرجل بذلك الرأي العقيم الذي قاله سنة ١٩٣١م عندما نشر المجلد الأول من كتابه الضخم عن « العمارة الإسلامية الأولى » ثم كرره بنصه سنة ١٩٥٨م في الموجز الذي عمله لهذا الكتاب(١) .

أصبح مسجد رسول الله ﷺ منذ إنشائه مكاناً للصلاة والعبادة ، وملتقى الرسول بالصحابة ، ومقراً للمجاهدين المسلمين منه ينطلقون إلى ساحات الجهاد ، ومركزاً يرتاده المسلمون ليتعلموا أصول دينهم .

وقد كان لظهور الإسلام أثر عميق ليس في حياة العرب فحسب ، بل في حياة الشعوب والأمم التي انتشرت فيها تعاليمه السمحة ، فامتزجت في ظلاله الأجناس المختلفة ، والحضارات المتعددة .

لقد استطاع النبي عليه الصلاة والسلام في فترة وجيزة أن يضع حداً لهذه الحالة المضطربة التي كانت متمثلة في الحروب والمنازعات الجاهلية التي كانت سائدة في بلاد العرب ، ونجح عليه الصلاة والسلام في أن يجعل من الدين الإسلامي ديناً ثابت الأركان ، راسي البنيان ، وأن يوحد العرب مع غيرهم من الشعوب الأخرى في ظل حكومة إسلامية مركزها المدينة المنورة ، وأن يملأ قلوب معتنقي هذا الدين بمثل عليا كريمة ، وعواطف إنسانية نبيلة ، دفعت بهم في مجالات التقدم على مر الأيام .

يقول البعض في هذا :

---

(١) نفس المصدر ص ٥٢ .

لقد كان العصر النبوي بقسميه مرحلة تأسيس وبناء لكيان الأمة الإسلامية ، ووضع الأسس العامة التي سوف تحكم مسيرة هذه الأمة على طول التاريخ ، وكان هذا هو الشأن في الناحية السياسية ، كما كان هو الشأن في كل النواحي الأخرى التي عرض لها الإسلام في تشريعاته وتنظيماته ، وفي نصوص الوحي وإشاراته ، ولذلك فإن النصوص التي تتعلق بالنظام السياسي في هذه الفترة لا تتعرض للتفصيلات إلَّا بالقدر الذي تمليه الضرورات العملية للمجتمع المسلم في المدينة[1] .

لقد جاء الإسلام عقيدة ومنهجاً وأخلاقاً مثلى ، وكان بعثاً روحياً وسياسياً لبلاد العرب ، التي أصبحت نواة المجتمع الإسلامي الواسع فيما بعد ، وشاء الله سبحانه وتعالى أن تكون المدينة المنورة هي المهد الأول الذي مكن فيه للإسلام والمسلمين ، وجاء الإسلام إلى المدينة وافداً مهاجراً ليتخذ منها قاعدة لبناء دولته وحضارته ومجتمعه ، وذلك بفضل صدق وإخلاص أهلها ممن بايعوا رسول الله ﷺ في مكة ، ونصرته ومؤازرته عندما هاجر إلى مدينتهم ، هذه المدينة التي أصبحت فيما بعد دار الهجرة ، وحاضرة الدولة الإسلامية التي آوت الرسول عليه الصلاة والسلام بعد هجرته ، ومعه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وشهدت الجانب التشريعي الأول في صدر الإسلام .

وفي مسجد المدينة التف المسلمون حول محمد ﷺ يتلقون القرآن الكريم ، ويستمعون إلى الحديث النبوي الشريف ، وفيها شاهدوا قضاءه عليه الصلاة والسلام ، وقسمته للغنائم ، واستنفاره للجيوش ، وموادعته

---

(١) في النظام السياسي للدولة الإسلامية ص ٤٥ .

للخصوم ، وإلى المدينة التجأ المسلمون المهاجرون بدينهم تحت ضغط قريش والقبائل الأخرى في أطراف الجزيرة العربية ، وتعلقت بها الأنظار ، وعقدت عليها الآمال ، حتى كان صلح الحديبية .

ثم كان الفتح الأعظم « فتح مكة » في السنة الثامنة من الهجرة ، فأصبحت منذ ذلك الحين مركز الحجاز الروحي والسياسي ، وعاصمة الدولة الإسلامية حتى أوائل خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما انتقل إلى الكوفة ، واتخذها عاصمة للدولة الإسلامية آنذاك[1] .

ما أن استقر الرسول ﷺ بالمدينة وذلك بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، والمعاهدة بين المسلمين واليهود ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وسار الإسلام سيراً حثيثاً ، وتحولت العقيدة من الوثنية إلى الإسلام ، واستؤصلت قواعد الشرك بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، فتناول الإسلام بيان الحلال والحرام ، وتوضيح الحدود والأحكام ، وشرع للصلاة الأذان والجمعة والجماعة ، وأقام حركة تعاونية على أساس قوي يتضح في فرض الزكاة على الأغنياء والحض على الصدقات ، وتعيين حقوق الفقراء في أموال الأثرياء ، وإنشاء بيت مال المسلمين ، وتكوين جيش قوي مؤمن ، ليكون مستعداً استعداداً تاماً لمقاومة كل من يناويء الإسلام ، أو يعتدي على حقوق المسلمين ، وليرهبوا عدو الله وعدوهم[2] .

ومن أهم المباديء التي أثرت في تقدم العقل الإنساني مبدأ المساواة والإخاء بين معتنقي هذا الدين الجديد ، بغض النظر عن جنسياتهم

(١) الخطيب/ محمد عجاج : السنة قبل التدوين ص ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .
(٢) الأبراشي / عظمة الرسول ﷺ ص ٢٢٩ .

وألوانهم ، فقبل أن ينادي « جان جاك روسو » قبيل الثورة الفرنسية بالحرية والإخاء والمساواة بألف عام كان النبي الأمي عليه أفضل الصلاة والسلام قد قدم للبشرية الوثيقة التي احترمت الإنسان ، وأعطته حقه من الحرية والعدالة والمساواة ، تلك هي وثيقة المساواة ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربي على عجمي إلَّا بالتقوى ، وقد أيّدها الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾(١) .

وقال جلّ من قائل : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾(٢) .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام هو الحكم بين الناس وفق التشريع السماوي ، وبهذا ائتلفت العواطف في إطار عميق ينتظم تأدية الفرائض العامة في جو من المثل العليا ، تثبت أنها أقوى وأبقى من أي رباط يقوم على الجنس ، أو عقيدة تنهض على السياسة .

وللتدليل على صدق تلك المباديء والمثل العليا التي نادى بها رسول الله ﷺ وطبقها على أمته دون محاباة أو مجاملة ، يحسن أن أورد نص المعاهدة التي كتبها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، والتي وادع فيها اليهود ، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم .

وهذا هو نص المعاهدة :

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٢) سورة الحجرات آية ١٠ .

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنوا عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنوا ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنوا الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنوا عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنوا النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنوا الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً(*) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغىٰ منهم ، أو ابتغىٰ دسيمة(**) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن

(*) المفرح : هو المثقل بالدين والكثير العيال .

(**) الدسيمة : العظيمة .

مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلَّا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً وإن المؤمنين يبيء(*) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط(**) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلَّا أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلَّا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ﷺ ، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلَّا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ(***) إلَّا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلَّا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلَّا نفسه وأهل بيته .

(*) يبيء : يمنع .
(**) اعتبط : قتل بلا جناية .
(***) يوتغ : يهلك .

وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلَّا بإذن محمد ﷺ ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلَّا من ظلم ، وإن الله على أبرّ هذا ، وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبرّ دون الإثم ، وإن لم يأثم أمرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلَّا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلَّا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة . وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلَّا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلَّا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن برّ واتقى[1] .

---

(١) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ص ٨٨ ـ ٩١ ، ابن كثير/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ص ٣٢٠ ـ ٣٢٣ .

ويقال بأن هذا الكتاب أو المعاهدة إنما كتبت قبل أن تفرض الجزية على غير المسلمين في الوقت الذي كان فيه الإسلام ضعيفاً ، وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب . وقد علّق البعض على ذلك قائلاً : لقد نصّت وثيقة دستور المدينة على اعتبار الإسلام أساساً للمواطنة في الدولة الإسلامية الجديدة التي قامت في المدينة المنورة ، وأحلت الوثيقة الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية ، فعبرت عن المسلمين بأنهم « أمة من دون الناس ، كما يجعل هذا النص من المسلمين أمة يجمع أفرادها الإيمان بالدين الذي جاء به محمد ﷺ دون نظر إلى أصولهم القبلية أو النسبية ، وهذه ظاهرة يعرفها المجتمع العربي لأول مرة في تاريخه ، فلم يجتمع فيه الناس قبل الإسلام إلّا على أساس من صلات القرابة والنسب . كما نصّت الوثيقة على اعتبار اليهود المقيمين في المدينة من مواطني الدولة ، وحددت ما لهم من الحقوق ، وما عليهم من الواجبات[1] .

فعلى أساس النصوص السابق ذكرها تكونت الدولة الجديدة واخذت تباشر مهامها التي شملت كل نواحي النشاط السياسي المعروفة آنذاك في مجالاتها المختلفة ، فأقامت العدالة عن طريق القضاء ، ونظمت الدفاع وسياسة الحروب في الغزوات التي باشرها الرسول بنفسه أو بواسطة قواد سراياه وبعوثه ، وبثت التعليم بين رعاياها ، ونظمت موارد الدولة المالية بتنظيم الزكاة وطرق جبايتها وفق ظروف العصر ، وعقدت المعاهدات مع الجماعات التي كانت محاربة لها ، أو التي اختارت السلم إزاء دعوتها ، وانفذت السفارات إلى العالم الخارجي ، فوضعت بذلك أساساً للعلاقات

---

(١) العوا/ في النظام السياسي للدولة الإسلامية/ ص ص ٥٣ ـ ٥٤ .

الدولية حين تكون الدولة الإسلامية طرفاً فيها[1] .

وعلى هذه الصورة ثبتت دعائم النظام السياسي في المدينة ، ورسخت قدم الدولة الناشئة التي ضمت بعد عشر سنوات تقريباً معظم أنحاء الجزيرة العربية ، ودخل في عقيدتها وانضوى تحت لوائها سكان هذه الجزيرة جميعاً تقريباً ، وقد مارست هذه الدولة الجديدة السلطات التي تمارسها أية دولة في العالم - قديمة أو حديثة - وهي سلطات التشريع ، والقضاء ، والتنفيذ[2] .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال : « تآخوا في الله أخوين أخوين » .

ولقد تمت المؤاخاة بين أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار حين نزل المهاجرون المدينة ، وذلك ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عزّ الإسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾[3] ثم جعل المؤمنين كلهم أخوة فقال : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[4] .

وقد أخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخي ، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين ، وإمام المتقين ،

---

(١) في النظام السياسي للدولة الإسلامية ص ٥٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٦٠ .
(٣) سورة الأنفال آية ٧٥ .
(٤) سورة الحجرات آية ١٠ .

ورسول رب العالمين ، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلي بن أبي طالب أخوين . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ وعم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وزيد بن حارثة ، مولى رسول الله عليه الصلاة والسلام أخوين . وإليه أوصى حمزة يوم أُحد حين حضر القتال إن حدث به حادث الموت ، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين ، الطيار في الجنة ، ومعاذ بن جبل بن سلمة أخوين . وكان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه وخارجة بن زهير أخو بلحارث بن الخزرج أخوين . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعتبان بن مالك أخو بني سالم بن عوف أخوين . وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن معاذ بن النعمان أخو بني عبد الأشهل أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخو بلحارث بن الخزرج أخوين . والزبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وقش أخو بني عبد الأشهل أخوين . ويقال : بل الزبير وعبد الله بن مسعود حليف بني زهرة أخوين . وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخو بني النجار أخوين . وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخو بني النجار أخوين . وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وأُبيّ بن كعب أخو بني النجار أخوين . ومصعب بن عمير بن هاشم وأبو أيوب خالد بن زيد أخو بني النجار أخوين . وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعباد بن بشر بن وقش أخو بني عبد الأشهل أخوين . وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم وحذيفة بن اليمان أخو بني عبد عبس حليف بني عبد الأشهل أخوين .

ويقال : ثابت بن قيس بن الشماس أخو بلحارث بن الخزرج خطيب رسول الله ﷺ وعمار بن ياسر أخوين . وأبو ذر وهو « برير بن جنادة الغفاري ، والمنذر بن عمرو المعتق ليموت أخو بني ساعدة بن كعب بن الخزرج أخوين . ويقال عن أبي ذر أنه : جندب بن جنادة .

وكـان حـاطب بن أبي بلتعـة حليف بني أسـد بن عبـد العـزي ، وعويم بن ساعدة أخو بني عمرو بن عوف أخوين . وسلمان الفـارسي وأبو الدرداء عويمر بن ثعلبة أخو بلحارث بن الخزرج أخوين . وبلال مولى أبي بكر رضي الله عنهما ، مؤذن رسول الله ﷺ ، وأبو رويحة عبد الله بن عبـد الرحمن الخثعمي ثم أحد الفزع أخوين .

فهؤلاء من سمي لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه فلما دون عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خـرج إلى الشام فـأقام بهـا مجاهـداً ، فقال عمـر لبلال : إلى من تجعـل ديوانك يا بلال ؟ قال : مع أبي رويحة ، لا أفارقه أبداً ، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني ، فضمّ إليه ، وضم ديوان الحبشة إلى خثعم لمكان بلال منهم[1] .

غير أن ابن كثير قد خالف ابن هشام في بعض ما ذكره من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إذ يقول :

أما مؤاخاة النبي ﷺ وعلي ، فإن من العلماء من ينكر ذلك ، ويمنع صحتـه ، ومستنده في ذلـك أن هذه المؤاخـاة إنما شـرعت لأجل ارتفـاق بعضهم من بعض ، وليتألف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم ، ولا مهاجري لمهاجـري آخر ، اللهم إلاَّ أن يكـون النبي ﷺ لم يجعـل مصلحة علي إلى غيـره ، فإنـه كـان ممن ينفق عليـه رسول الله ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب .

---

(١) السيرة النبوية/ ابن هشام جـ ٢ ص ص ٩١ ـ ٩٣ ، ابن كثير/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦ .

ونفس الشيء بالنسبة لحمزة إذ يكون قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار ، وكذلك مؤاخاة جعفر ومعاذ بن جبل إذ أن جعفر بن أبي طالب إنما قدم في فتح خيبر في أول سنة سبع من الهجرة ، فكيف يؤاخي بينه وبين معاذ بن جبل أول مقدمه عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ؟ اللهم إلَّا أن يقال : إنه أرصد لأخوته إذا قدم حين يقدم[1] . »

ويقول في موضع آخر : قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ، فقال له سعد : أي أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالي فخذه ، وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى اطلقها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلوني على السوق ، فدلوه فذهب فاشترى وباع ، فربح فجاء بشيء من أقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه ودع من زعفران فقال له رسول الله ﷺ : « مهيم ؟ » فقال : يا رسول الله تزوجت امرأة ، قال : ما أصدقتها ؟ قال : وزن نواة من ذهب ، قال : أولم ولو بشاة .

وقال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير ، لقد كفونا المئونة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال : لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم[2] .

من هنا يتمثل الإيثار والتضحية بأجلى مظاهره عندما يقاسم

---

(١) ابن كثير/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ٣٢٦ .

(٢) ابن كثير/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

المهاجري الأنصاري في ماله وما تحت يده ، وذلك مصداقاً لقول الله تعالى ممتدحاً الأنصار إذ يقول تبارك وتعالى : ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[1] .

وعن موضوع المعاهدة بين المسلمين وغيرهم في المدينة ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار يتحدث الشيخ الغزالي إذ يقول :

أما عن صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر ، فقد أقامه الرسول ﷺ على الإخاء الكامل ، الإخاء الذي تمحي فيه كلمة « أنا » ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها ، فلا يرى لنفسه كياناً دونها ، ولا امتداداً إلَّا فيها .

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية فلا حمية إلَّا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلَّا بمروءته وتقواه .

كما جعل رسول الله ﷺ تلك الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ، ولا يقوم لها أثر . وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال .

والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة ، فحيث يشيع الجهل والجبن والبخل والجشع لا يمكن أن يصبح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا

---

(١) سورة الحشر آية ٩ .

أن أصحاب رسول الله ﷺ جبلوا على شمائل نقية ، واجتمعوا على مبادىء رضية ، لما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله .

ثم إن محمداً عليه الصلاة والسلام كان إنساناً تجمع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات ، فكان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه ، وداروا في فلكه ، رجالاً يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء .

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات حتى موقعة بدر الكبرى ، عندما نزل قوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم ﴾[1] عندها ألغي التوارث بعقد الأخوة ، وعادت الأمور إلى ذوي الرحم[2] .

أما الموضوع الآخر وهو : صلة الأمة بالأجانب وهم من لا يدينون بدينها ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سَنَّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب ، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر ، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلَّا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط ، هو رجل مخطيء بل متحامل جريء .

فعندما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة وجد بها يهوداً توطنوا ، ومشركين مستقرين . فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام ، بل قبل ـ عن طيب خاطر ـ وجود اليهود والوثنيين ، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند ، على أن لهم دينهم ، وله دينه .

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٥ .

(٢) فقه السيرة ص ص ١٨٩ ـ ١٩٢ بتصرف .

هذه الوثيقة التي كتبت بين المسلمين واليهود تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر السكينة في ربوعها ، والضرب على أيدي العادين ، ومدبري الفتن أياً كان دينهم .

كما اتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو ، وأقرت حرية الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها ، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها .

كما أشار الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المعاهدة إلى العداوة القائمة بين المسلمين وكفار قريش في مكة ، وأعلن رفضه الحاسم لموالاتهم ، وحرم أسداء أي عون لهم[1] ويتساءل الشيخ الغزالي قائلاً :

أكان اليهود صادقين في موافقتهم على هذا العهد ؟ ويجيب على هذا قائلاً : أغلب الظن أنهم لم يكونوا جادين حين ارتضوه ، وقبلوا إنفاذه .

وآفة العهود أن يرتبط الوفاء بها بمدى المنفعة المرجوة منها ، فإذا بدا أن المعاهدة المبرمة لا تحقق المطامع المبتغاة ، قل التمسك بها والتمست الفرص للتحلل منها . فاليهود غالباً ما يبنون عظمتهم المادية والسياسية على تفرق العرب ، قبائل متناحرة ، وعندما دخل العرب في الإسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى ، وتتابعت الأيام تؤكد أن الإسلام سوف يصنع من العرب أمة واحدة ، استشعر اليهود القلق ، وساورتهم الهموم ، وشرعوا في التفكير جدياً في الكيد لهذا الدين ، والتربص بأتباعه .

وكان المتوقع من اليهود هو الترحيب بالإسلام ، فإن لم يحصل ذلك فليكونوا على الأقل أبطأ من الوثنيين في مخاصمته ، لكن اليهود صمتوا أول

---

(١) فقه السيرة ص ص ١٩٣ ـ ١٩٥ بتصرف .

الأمر صمت المستريب ، ثم بدا لهم ، فقرروا الإعلان بالجحود .

ولما جاء رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة مدَّ يده إلى اليهود مصافحاً ، وتحمّل الأذى مسامحاً ، حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ومحو دينه ، استدار إليهم ، وطبق حكم الله فيهم ، حيث عاملهم بما يستحقون .

فبتقوى الله والإخلاص له دعمت الناحية الروحية في هذا المجتمع الجديد .

وبالإخاء الحق ، تماسك بنيانه ، وتوثقت أركانه .

وبالعدل والمساواة والتعاون ، رسمت سياسة الأجانب ، وعومل أتباع الأديان الأخرى .

بعد هذا كله استقرت الأوضاع ، ووجد المسلمون متسعاً لتجديد قواهم ، وترتيب شؤونهم[1] .

---

(١) فقه السيرة ص ص ١٩٥ ـ ١٩٧ بتصرف .

الباب الثاني

المساجد الهامة
في الجزيرة العربية

الفصل الأول : المسجد النبوي ـ تخطيطه ـ نظام بنائه .

الفصل الثاني : الرسالة العلمية والسياسية للمسجد النبوي .

الفصل الثالث : المسجد الحرام ـ مسجد قباء ـ مسجد الضرار .

الفصل الأول

المسجد النبوي
تخطيطه - نظام بنائه

تخطيط المسجد

ما أن وطئت أقدام رسول الله ﷺ أرض يثرب حتى أقام مسجده فيها ليجعل منه بيتاً لله ، ومركزاً لدعوته إلى الإيمان بالله ، وكان هذا هو أول ما شغل به .

وكان بناؤه في المكان الذي بركت فيه ناقته لأول مرة ، وهو مربد(*) لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما غلامان يتيمان من الأنصار في كنف أسعد بن زرارة فساومهما النبي بالمربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير . وكان جداراً ليس عليه سقف ، وقبلته إلى بيت المقدس ، وكان أسعد بن زرارة يصلي فيه بأصحابه ، ويجمِّع بهم فيه الجمعة قبل مقدم رسول الله ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل الذي في الحديقة وبالغرقد الذي فيه أن يقطع ، وأمر باللبن فضرب ، وكان بالمربد قبور جاهلية فأمر بها رسول الله فنبشت ، وأمر بالعظام أن تغيب ، وكان بالمربد ماء مستنجل فسيروه حتى ذهب[1] .

أقيم مسجد رسول الله على قطعة من الأرض مربعة الشكل تقريباً ،

(*) المربد : هو المكان المعدّ لتجفيف التمر .

(1) ابن سعد/ الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٣٩ .

وجعل الأساس قريباً من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، ثم احيط بجدران من اللبن ، وكان المسلمون يتسابقون إلى العمل فيه يدفعهم إلى ذلك حبهم لله ورسوله ، وكان النبي صلوات الله وسلامه عليه يشاركهم بنفسه في العمل والبناء، فكان ذلك يزيدهم قوة، ويضاعف من حماستهم إذا أوشك الكلل أن يتسرب إليهم ، ويهتفون من أعماق قلوبهم : لئن قعدنا والرسول يعمل ، لذاك منا العمل المضلل[1] .

وقد اختلفت الآراء حول مقدار مساحة المسجد ، فذكر البعض : أنه كان مائة ذراع طولاً ، في مائة ذراع عرضاً ، وأنه كان مربعاً ، وقال البعض الآخر: إنه كان أقل من ذلك ، والراجح لدى كثير من المؤرخين أن مساحة المسجد كانت ثلاثة وستين ذراعاً عرضاً ، في سبعين ذراعاً طولاً ، وكانت القبلة متجهة إلى الشمال نحو بيت المقدس . وقد أقيم بيت الصلاة في هذه الجهة ، بحيث كان يتخذ شكل ظلة أو سقيفة من جريد النخل المغطى بالطين ، يعتمد على عمد من جذوع النخل ، وظلت القبلة على هذا الإتجاه نحواً من سبعة عشر شهراً ، حيث تحولت نحو الكعبة ، وذلك حينما كان النبي ﷺ يصلي الظهر بأصحابه فبعد أن صلى ركعتين أمر بالإتجاه نحو الكعبة فاستدار إليها هو ومن معه من المصلين وبهذا سمي المسجد الذي صلى فيه بمسجد القبلتين .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[2] .

---

(١) ابن هشام/ السيرة النبوية جـ ٢ ص ٨٣ .
(٢) سورة البقرة آية ١٤٤ .

ويقول السمهودي : صلى رسول الله عليه الصلاة والسلام بالمسجد الذي سمي بمسجد القبلتين الظهر ، فلما صلى ركعتين مستقبلاً بيت المقدس أمر أن يتوجه إلى الكعبة المشرفة فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة ، واستقبل الميزاب ، فسمي ذلك المسجد بمسجد القبلتين[1] ويقع هذا المسجد على هضبة مرتفعة في منازل بني سلمة ، في طرف الحرة الغربية الشمالية للمدينة ، وتسمى حرة الوبرة ، وحوله حرار وبساتين ، ويقع وادي العقيق في غربه .

ولقد كان في هذا التحول مظهر استقلال للمسلمين ، إذ أشعل في قلوب اليهود ناراً من الحقد الدفين عندما صرفت القبلة إلى الكعبة[2] ولذا قال اليهود فيما بينهم : « ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿ قل لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

وبعد تحويل القبلة أقيمت ظلة أخرى متجهة نحو الجنوب ، فأصبح للمسجد ظلتان ، وبقيت الظلة القديمة يستظل تحتها فقراء المسلمين ، وكان يفصل بين الظلتين أو السقيفتين رحبة واسعة سميت بالصحن . ثم تطور هذا النظام فيما بعد بحيث اتصلت الظلتان من الشرق والغرب بمجنبتين أو رواقين جانبيين ، وجعل للمسجد ثلاثة أبواب هي :

باب آل عثمان في الشرق ، ويسمى باب جبريل ، وهو الباب الذي كان النبي ﷺ يدخل منه إلى المسجد ، وباب عاتكة ـ الذي يسمى الآن

---

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ١ ص ٣٦١ ، المدينة المنورة في التاريخ ص ٧٨ .

(٢) الأنصاري/ عبد القدوس/ آثار المدينة المنورة ص ٨٩ .

باب الرحمة ـ ويقع إلى الغرب ، والباب الجنوبي وكان يقع في القسم الشرقي من الجدار الجنوبي « أي بين مصلى رسول الله والحجرة النبوية المطهرة » وقد سد هذا الباب حينما حولت القبلة إلى الكعبة واستعيظ عنه بالباب الشمالي .

وقد أشار صاحب كتاب مرآة الحرمين إلى أبواب ومحاريب ومآذن المسجد النبوي إذ يقول : للمسجد النبوي خمسة أبواب ، اثنان في الجهة الغربية وهما : باب السلام في أول الجدار الغربي من جهة الجنوب ، وباب الرحمة في ثلث هذا الجدار . وواحد في الجهة الشمالية ، يقال له : باب التوسل ، أو الباب المجيدي ، وهو قريب من الزاوية الشمالية الشرقية ، وبابان في الجهة الشرقية ، أحدهما : باب النساء في مقابلة باب الرحمة ، والداخل منه يرى على يمينه محراباً وعلى يساره « الصفة أو دكة الأغوات ، وهي مستطيلة طولها إثنا عشر متراً في عرض ثمانية أمتار ، وفي جنوبه قريباً منه باب جبريل[1] .

أما المآذن فيوجد بالمسجد النبوي خمس مآذن ، في كل ركن من أركانه مئذنة ، أما الخامسة فهي أمام باب الرحمة وتسمى مئذنة باب الرحمة[*] ، فالمئذنة الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية تسمى مئذنة باب السلام ، أما الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية فتسمى المئذنة الرئيسية التي يؤذن عليها رئيس المؤذنين[**] ، أما الواقعة في الركن الشمالي الشرقي فتسمى المئذنة السليمانية ، أما الواقعة في الركن الشمالي الغربي

---

(١) رفعت إبراهيم / مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤٤٨ .

(*) هذه المئذنة أزيلت ولم يبق في المسجد النبوي الآن سوى أربع مآذن فقط وهي الواقعة في الأركان الأربعة من المسجد .

(**) كان هذا على عهد المؤلف في سنة ١٣٢٥هـ تقريباً .

فتسمى المئذنة المجيدية .

ويوجد المنبر في الرواق الثالث من الجهة القبلية ، ويقع عن يساره المحراب النبوي ، وعن يمينه المحراب السليماني ، أما المحراب العثماني(***) وهو لثالث الخلفاء فهو في الجدار القبلي وهو في نهاية الزيادة التي زادها عثمان رضي الله عنه في المسجد[1] .

وفي زاوية المسجد الجنوبية الشرقية تقريباً جزء فصل من المسجد بسور من النحاس الأصفر طول كل من ضلعيه الجنوبي والشمالي ستة عشر متراً ، أما الشرقي والغربي فطوله خمسة عشر متراً ، يقال له المقصورة الشريفة ، وداخلها بناء ذو خمسة أضلاع ، وارتفاعه نحو ستة أمتار ، وفيه قبر رسول الله في الجهة القبلية، ثم في شماله قبر أبي بكر الى الشرق قليلاً ثم قبر عمر شرق قبر سلفه قليلاً ، والبناء الخارجي أقامه نور الدين زنكي لما بلغه اعتزام الصليبيين ـ الذين كان يحاربهم ـ على إخراج الجثة الشريفة ، فبني ذلك البناء ، ونزل بأساسه إلى منابع الماء ثم أفرغ عليه الرصاص حتى لا يستطيعوا له نقباً[2] (****) .

أما أبواب المسجد النبوي الآن فهي كالآتي :

(١) الأبواب الواقعة في الناحية الغربية من المسجد :

أ ـ باب السلام : ويقع في الركن الجنوبي الغربي من المسجد تقريباً وعلى يمينه تقع مئذنة باب السلام في الركن الجنوبي الغربي ، وتسمى مئذنة باب السلام .

(***) محراب عثمان ؛ يقع مقابلاً للمحراب النبوي في الجهة القبلية من المسجد .

(١) مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤٤٩ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٤٥٠ .

(****) عن هذا الموضوع انظر ملحق الصور رقم (٦) في آخر الكتاب .

ب ـ باب الصديق : ويقع إلى الشمال من باب السلام ، ويتكون من ثلاثة مداخل كبيرة .

جـ ـ باب الرحمة : ويقع إلى الشمال من باب الصدّيق ، وكان يسمى في السابق « باب عاتكة » .

باب سعود : ويقع إلى الشمال من باب الرحمة ، ويتكون من ثلاثة مداخل كبيرة .

(٢) الأبواب الواقعة في الجهة الشمالية من المسجد :

أ ـ باب عمر بن الخطاب : ويقع في الركن الشمالي الغربي من المسجد تقريباً ، وعلى يمينه تقع المئذنة الشمالية الغربية .

ب ـ باب عبد المجيد : ويقع في منتصف الجدار الشمالي للمسجد تقريباً وهو واقع بين بابي عمر وعثمان .

جـ ـ باب عثمان : ويقع في الركن الشمالي الشرقي للمسجد تقريباً وعلى يساره تقع المئذنة الشمالية الشرقية .

(٣) الأبواب الواقعة في الناحية الشرقية :

أ ـ باب صغير يقع في الركن الجنوبي الشرقي للمسجد ، وقد أنشيء لدخول الإمام .

ب ـ باب آخر يقع إلى الشمال من باب الإمام أكبر منه فتح في الآونة الأخيرة ، وذلك توسعة لدخول المصلين وخروجهم بعد السلام على رسول الله ﷺ وصاحبيه وكذلك لإدخال الموتى للصلاة عليهم في المسجد .

جـ ـ باب جبريل : ويقع إلى الشمال من الباب السابق .

د ـ باب النساء : ويقع إلى الشمال من باب جبريل .

هـ ـ باب عبد العزيز : ويقع أيضاً إلى الشمال من باب النساء ويتكون من ثلاثة مداخل كبيرة . مثل باب الصدّيق ، وسعود .

وقد أقام النبي ﷺ إلى جوار مسجده داراً لـزوجته عـائشة رضي الله عنها ، وأخرى لزوجته سودة رضي الله عنها ، وأقام من حول المسجد من الناحية الشرقية بقية منازل أزواجه رضوان الله عليهن « أي كـانت كلها في الشق الأيسر من المسجد إذا كنت متجهاً إلى القبلة » .

وقد بلغت دور أزواج النبي ﷺ تسعاً . ويقال : بأن سعة كل حجرة في هذه الدور كان بقدر تسعـة أذرع عرضـاً ، وسبعة أذرع طـولاً . ويشير البعض إلى أن حجر أزواج رسول الله ﷺ ليست من المسجد ولكن أبوابها شارعة فيه ، وكانت هذه المنازل تسعة بيوت باللبن ، ولها حجر من جريد مطرور بالطين[1] .

وقد بنى النبي ﷺ مسجده مـرتين : **الأولى** : حينما هبط إلى يثـرب مهاجراً في السنة الأولى من الهجرة بعد خروجه من قباء ، فجعله قريباً من ثلاثة وستين ذراعاً عرضاً ، وسبعين ذراعاً طولاً . **والثانية** : بعد فتـح خيبر في السنة السابعة من الهجرة ، نظراً لزيادة عدد المسلمين ، إذ جعله نحواً من مائة ذراع طولاً ، في مائة ذراع عرضاً ، فأصبح المسجد بهذا مربعاً ، ولعل هذا هو السبب في اختلاف آراء المؤرخين حول مساحـة المسجد ، حيث أن مساحته الأولى هي ثلاثة وستون ذراعاً عرضاً وسبعون ذراعاً طولاً . أما في الثانية فهو مائة ذراع طولاً ، في مائة ذراع عرضاً . وقد جعل أساسه

---

(١) ابن النجـار/ الدرة الثمينـة ص ٦٠ ، المدخـل إلى مسـاجـد القـاهـرة ومـدارسهـا ص ١٦٨ .

من الحجـارة ، وجدره من اللبن ، وأعمـدته من جـذوع النخل ، وارتفـاع سقفه خمسة أذرع في المرة الأولى ، وسبعة أذرع في الثانية ، وسقفه بجريد النخل والخوص .

وقد أضافت سكنى الرسول ﷺ في الجامع أهمية خاصة إليه ، فقد أصبح المركز السياسي للجماعة ، وأغلب الظن أن الرسـول عليه السـلام قصد إلى هذا المعنى عندما قرر إبتناء حجراته هناك . فما كان يعسر عليه أن يبني لنفسه مسكناً آخر قريباً من المسجد ، ولكنه أراد أولاً أن يكون مقامه داخل المسجد نفسه ليصبح المسجد المركز السياسي للجماعة ، وأراد ثانياً أن يرى المسلمون بأعينهم كيف يعيش ، رغم ما كان يتمتع به من سلطان واسع ، ليكون ذلك نموذجاً يحتذيه غيره ممن يخدمون الجماعة ، فقد أراد أن يعلمهم بأن الخدمة العامة فيجماعة الإسلام ليست رياسـة أو سيادة ، وليست ممارسة سلطان على الناس ، وإنما هي خدمة عامة تؤدىٰ للجماعة خالصة لوجه الله لا يقصد منها إلى إثراءٍ أو جاه أو ترف أو مظهـر إنما هي واجب يؤدىٰ حباً في الإسلام وجماعته ، وابتغاءً لثواب الله وحده[١] .

وقد بنى رسول الله ﷺ في مسجده عريشاً كعريش موسى سبعة أذرع تمامات وخشبات وظلة[٢] .

وقد نهج المسلمون هذا المنهج في بناء المساجد التي أقـاموهـا في الأمصار الإسلامية ، ويتمثل ذلك في كل من مسجـد البصرة الـذي اختطه عتبـة بن غزوان سنـة ١٤هـ ، حيث أقيم على قطعـة من الأرض يحيط بها سياج من القصب، ثم بني بعد ذلك بـالطين واللبن بـأمر من أبي موسى

---

(١) مؤنس/ حسين المساجد ص ٦٢ .
(٢) وفاء الوفا/ السمهودي جـ ١ ص ٢٣٩ .

الأشعري عامل عمر على البصرة ، وسقف بالعشب ، ومثله مسجد الكوفة الذي حفر حوله خندق عوضاً عن الجدران[1] .

كما اتبع عمرو بن العاص في بناء مسجده بالفسطاط سنة ٢١هـ نفس المنهج الذي اتبع في بناء مسجد الرسول ﷺ ، وكانت مساجد البصرة والكوفة والفسطاط خالية من المحاريب المجوفة ، والمنابر والمآذن ، على غرار مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام وقت إنشائه ، فلما أراد عمرو بن العاص أن يتخذ له منبراً في مسجده ، بل اتخذه بالفعل ، كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً : أما بعد : فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقىٰ به على رقاب المسلمين ، أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبيك ، فعزمت عليك إلاَّ ما كسرته ، وعندها كسره تنفيذاً لأوامر الخليفة[2] .

وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام نخرت الجذوع في عهد أبي بكر ، فجددها وبنى المسجد بجذوع النخل والجريد[3]، وفي عهد عمر ضاق المسجد بالمصلين فجدده في سنة ١٦هـ (٦٣٧م) وبناه على شكل بناء الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجعل أساطينه من لبن ، وسقفه بالجريد وجعل عمده من خشب ، وزاد فيه بأن جعله مائة وعشرين ذراعاً عرضاً من الشرق إلى الغرب ومائة وثلاثين ذراعاً طولاً من الشمال إلى الجنوب ، وكانت الزيادة من الجنوب والغرب والشمال فقط ، حيث كانت بيوت أزواج النبي واقعة إلى الشرق من المسجد ، كما جعل على المسجد ستة

---

(١) حتّي / تاريخ العرب مطول جـ ١ ص ٣٢٩ .

(٢) السيوطي / حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة جـ ١ ص ٦٥ .

(٣) للمزيد من التفاصيل عن التوسعات التي مر بها المسجد النبوي منذ عهد رسول الله إلى يومنا هذا أنظر: الملحق الثاني : في آخر الكتاب ص ٣٣٨ وما بعدها .

أبواب[1] يقول ابن الجوزي في هذا :

كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن ، وسقفه الجريد ، وعمده الخشب من النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد ، وأعاد عمده خشباً ، ثم غيره عثمان وزاد فيه زيادة كثيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة(*) وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج[2] وأشار البلاذري إلى أن عثمان بن عفان نقل إليه الحصباء من العقيق[3] ، وبهذا أصبح طول المسجد مائة وستين ذراعاً ، وعرضه مائة وثلاثين ذراعاً[4] . وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه يشرف على عمارة المسجد ، حيث أقام العمد الحجرية في موضع العمد الخشبية ، بحيث لا يتغير موضع الأساطين التي كانت على عهد رسول الله ، وهذه سنة اتبعها كل من تعرضوا لتعمير المسجد وتجديده وزيادته .

وقد بقي المسجد على حالته تلك حتى عهد الوليد بن عبد الملك الذي كتب إلى عامله في المدينة عمر بن عبد العزيز ، وكلفه بهدم المسجد النبوي وبنائه من جديد ، بالإضافة إلى هدم حجر زوجات رسول الله ﷺ وإدخالها في المسجد .

ومن المحتمل أن يكون أحد الأسباب في هدم بيوت أزواج النبي وإدخالها في المسجد هو لغرض سياسي ، الهدف منه تبديد الشكوك التي

---

(١) المدخل إلى مساجد القاهرة ص ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(*) القصة : هي الجص.

(٢) الوفاء بأحوال المصطفى ص ٢٥٥ .

(٣) فتوح البلدان ص ٦ .

(٤) السمهودي/ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ١ ص ٣٦ .

تحوم حول اجتماع المناوئين للبيت الأموي في هذه الدور ، واتخاذها وكراً تدار منه المؤامرات ضد الدولة الأموية ، وخصوصاً أفراد البيت العلوي المناوئين للأمويين . **هذا مجرد استنتاج ليس إلا .**

وقد بعث الوليد بن عبد الملك إلى عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز بالأموال والعمال ، حيث بدأ بهدم المسجد في عام ٨٨هـ وانتهى منه في عام ٩١هـ ، أي أن بناء المسجد استغرق ما يقرب من ثلاث سنوات .

كما زاد فيه الخليفة العباسي المهدي . وقد توالت الزيادات في المسجد النبوي في عهود العديد من الخلفاء والسلاطين الذين توالوا على حكم الدولة الإسلامية في الوقت الذي كانت فيه الجزيرة العربية ـ وبالذات الحرمين الشريفين تابعة لهم ، سواء بالنسبة للدولتين الأموية والعباسية أو المماليك أو العثمانيين ، كل هؤلاء أسهموا بقسط وافر من التجديد والتوسعة ، حتى كان عهد السلطان العثماني عبد المجيد الأول ، الذي أجرى أكبر عمارة مر بها المسجد النبوي بعد تأسيسه منذ ذلك الوقت حتى عهد عبد المجيد هذا ، إذ قدرت المساحة التي أضيفت إلى المسجد بحوالي (١٢٩٣ متر مربع) .

ولعل أكبر التوسعات والتجديدات التي مرت على المسجد النبوي هو ما قامت به حكومة المملكة العربية السعودية من زيادة في المسجد النبوي ، إذ تم في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أكبر توسعة مرت على المسجد النبوي منذ إنشائه ، إذ تقدر بحوالي (٦٠٢٤ متر مربع) ، بالإضافة إلى المساحة التي أزيلت في عمارة عبد المجيد وقدرها (٦٢٤٧ متر مربع) ،فتكون مساحة العمارة السعودية (١٢٢٧١ متر مربع) ، وقد بدأ الهدم في شوال من سنة ١٣٧٠هـ وانتهى البناء في عام ١٣٧٥هـ . في

عهد الملك سعود بن عبد العزيز . وهي التوسعة السعودية الأولى . ولما ضاق المسجد بالمصلين تم في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز هدم البيوت الواقعة إلى الشمال والغرب من المسجد ، وذلك في سنة ١٣٩٣هـ ، وجعل عليها مظلات حماية للمصلين من الشمس أحيطت بسور ، وتم تبليطها بالرخام ، وإنارتها وتهويتها وفرشها ، وتبلغ مساحتها (٣٥٤٠٦ متر مربع) .

وفي عهد الملك خالد بن عبد العزيز تم هدم جزء آخر من البيوت الواقعة غرب المظلات قدرت مساحتها بحوالي (٣٢٤٠١ متر مربع) وذلك في عامي (١٣٩٨/ ١٣٩٩هـ) ، وأضيفت إلى المظلات على نفس التصميم إذ بلغت المساحة الإجمالية للمظلات (٦٢٨٠٧ متر مربع) . أما في عهد الملك فهد بن عبد العزيز فقد تمت توسعة الحرم النبوي الشريف وهي التوسعة السعودية الثانية، والتي تقدر مساحتها بحوالي (٨٤٠٠٠ متر مربع) أي أربعة أضعاف المسجد المبني حالياً .

وتشمل التوسعة والبناء الجهات الغربية ، والشمالية ، والشرقية ، وتتضمن تكييف الهواء ، وتهيئة السطح للصلاة فيه أوقات المواسم ، وأن يكون التأسيس قابلاً لإقامة طابق آخر إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

وقد انتهى هدم البيوت الواقعة شرق المسجد فيما بينه وبين البقيع في شهر رمضان سنة ١٤٠٥هـ[1] وقد ابتدأ العمل الجاد في البناء ـ بالنسبة للتوسعة السعودية الثانية ـ منذ فترة وجيزة ، حيث العمل جار على قدم وساق[2] .

---

(١) نشرة من عشر صفحات عن المسجد النبوي وتوسعته ، موجودة في مكتبة الحرم النبوي من إعداد المسؤولين عن المكتبة .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن التوسعة انظر الملحق الثاني ص٣٣٨ وما بعدها .

فجزى الله القائمين على هذا العمل الخيري ، منذ عهد رسول الله ﷺ حتى الآن خير الجزاء .

وما دمنا بصدد الحديث عن تلك التوسعة التي قامت بها المملكة العربية السعودية مؤخراً فيحسن أن أورد ما أشار إليه أحد المؤرخين المحدثين إذ يقول :

« إن مسجد رسول الله الجديد يعتبر من ثمرات هذه النهضة المعمارية المساجدية التي نحن بصددها لأن السخاء الذي أنفقت به المملكة العربية السعودية على ذلك المسجد أعطى للمعماريين الفرصة ليظهروا أحسن ما عندهم ، خاصة وقد أتاح لهم ذلك إنشاء عقود طويلة مدببة تنتهي بحذوة فرس مدببة هي الغاية في الجمال .

والجديد هنا هو تلبيسها مع الجدران بالمرمر المختلف الألوان ، وفرش الأرضية بأجمل ما في الأرض من الرخام، فأصبحت كالمرآة تنعكس فيها صورة هذه العقود ، مما جعل الجزء المجدد من المسجد النبوي من أجمل ما بني من المساجد الحديثة في عالم الإسلام ، وتستطيع أن تقضي ما شئت من الساعات وعينك تنتقل بين تفاصيل جماله التي لا تنتهي ، العقود والأعمدة والدعامات والقبلة والمنبر والأروقة والأرضية ، وإذا وقفت خارجه وتأملت القبة الشريفة ، والمآذن البديعة ، ثم المدخل الجليل لم تتملك نفسك إلَّا بالدعاء لمن بذلوا ما يستطيعون ليصبح مسجد المصطفى آية من آيات الفن والجمال والإيمان[١] .

ويتكون المسجد عادة من عدة عناصر هي : بيت الصلاة ، والصحن ، والمحراب ، والمنبر ، والمقصورة .

---

(١) المساجد ص ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

أولاً : بيت الصلاة :

يحتوي بيت الصلاة على سقيفة تحملها صفوف من الأعمدة المتصلة ببعضها من أعلى عن طريق عقود أو أقواس ، وأحياناً تكون هذه الصفوف على جدار القبلة ، ففي هذه الحالة يطلق على الممر الواقع بين صفين من هذه الأعمدة اسم « بلاطة » أما إذا كانت الصفوف بموازاة جدار القبلة فيسمى الممر الواقع بين صفين « أسكوب » وفي وسط بيت الصلاة بناء يسمى « الدكة » محمول على أعمدة قليلة الارتفاع يصعد إليها المؤذن للأذان داخل المسجد قبل أداء الصلاة ، خاصة صلاة الجمعة ، كما هو الحال الآن في كل من المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة ، والمسجد الحرام في مكة المكرّمة .

ثانياً : الصحن :

صحن المسجد الإسلامي القديم مكشوف دائماً ، وتحيط به في الغالب من جهات ثلاث سقائف محمولة على صف أو أكثر من الأعمدة ، ويتوسط الصحن أحياناً بناء مثمن الشكل تعلوه قبة ، وكانت صحون بعض المساجد تكسى بالفسيفساء أو تفرش بالحصى .

ثالثاً : المحراب :

لم يكن المحراب معروفاً في المساجد قبل عهد الوليد بن عبد الملك ، إذ لم يكن للمسجد النبوي الشريف محراب لا في عهد رسول الله ﷺ ، ولا في عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، وأول من أحدث المحراب هو عمر بن عبد العزيز في عهد الوليد عندما كان عمر والياً على المدينة المنورة[١] ذلك أن المسجد النبوي الشريف لم يكن به محراب وإنما كان

---

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ١ ص ٣٧٠ .

يصلَّىٰ في المكـان الـذي سمي فيمـا بعـد بـالمحـراب النبـوي قـريبـاً من الروضة ، حيث يقع المحراب على يسـار المنبر ، وهـذا المحراب الـذي انشأه عمر بن عبد العزيز في المدينـة هو أول محـراب يوجـد في المسجد الإسلامي ، ثم تعددت المحاريب فيما بعد في سائر الأمصار الإسلامية . كما تعددت محـاريب المسجد النبـوي ، فنرى المحـراب الثاني المسمى بـالمحراب العثماني في حائط المسجـد القبلي ، والمحـراب الثـالث هـو المحـراب السليماني وهـو غربي المنبـر ، والمحراب الـرابع هـو محراب التهجد ، وهو خلف حجرة سيدتنـا فاطمـة ، أما المحـراب الخامس فهـو محراب فاطمة وهو يقع جنوباً من محراب التهجد .

ويقال بأن أول من أوجد المحراب المجوف هو عمر بن عبد العـزيز حينما أعاد بنـاء المسجد النبـوي ، ويقول عن ذلـك الدكتـور زكي محمد حسن : بأنه منقول عن الجزء المجوف في الكنائس القبطية وهو الهيكل ، أو عن الحنية التي ترى في صدر الكنيسة[١] .

ويبدو لي بأن القول باشتقاقه من الكنائس لا أساس له من الصحة ، ذلك أن تشابه حنيته مع حنية الكنيسـة وإن اختلفت نسبتها لا ينهض دليـلاً على هـذا الاشتقاق ، لأن وظيفتـه وهيئته تختلفـان عن وظيفة وهيئـة حنيـة الكنيسة .

يقول البعض في هذا أيضاً : والفرق جسيم على أي حال بين حنية محـراب الجامـع وحنية الكنيسـة ، فبينما الأولى تجـويف يسير في جـدار القبلة ، نجد الثانية بروزاً كاملاً بهذا الجدار خـارج نطاق الكنيسـة فيصبح هذا الجدار إنحناء كله[٢] .

---

(١) فنون الإسلام ص ٣٦ .

(٢) المساجد ص ٧٨ .

ومحاريب المساجد اتخذت في وسط حوائط المساجد لكي تكون دليلاً على جهة القبلة لمن لا يعرفها ، وتبين مقام الإمام من المأمومين ، لأن السنّة أن يقف الإمام إزاء وسط الصف ، فهي مخالفة لمذابح أهل الكتاب شكلاً ووضعاً ، كما يتبين ذلك من رؤية المحاريب في المساجد التي اتخذت لتبين مقام الإمام ، ومن رؤية المذابح في الكنائس التي اتخذت لوضع القرابين فيها . ويشير البعض إلى أن محراب الكنيسة عبارة عن فناء كبير في صدر الكنيسة يتسع على الأقل لمنضدة توضع عليها معدات الشعائر والمراسيم ، وفضاء فسيح يروح فيه القائم بهذه الأشياء ويغدو من غير عائق ، أما محراب المسجد فهو جوفة في حائط لا تتسع لغير ركوع الإمام وسجوده وجلوسه ، والاختلاف واضح بين الوظيفة التي يؤديها هذا ، والمهام التي يسعها ذلك[١] .

رابعاً : المنبر :

يقع المنبر عادة على يمين المحراب ، وهو درج يصعد عليه الإمام لإلقاء الخطبة ، ويصنع أحياناً من الخشب ، وقد يصنع من الحجر أو الرخام .

والمعروف أن المنبر هو تطور واضح من منبر مسجد رسول الله ﷺ ، حيث كان عليه الصلاة والسلام يستند إلى جذع نخلة أثناء خطبته إذا طال به الوقت ، وذات يوم رآه رجل ورد المدينة ، فقال لمن يليه من الناس : لو أعلم أن محمداً يحمدني في شيء يرفق به لصنعت له مجلساً يقوم عليه ، فإن شاء جلس ما شاء ، وإن شاء قام ، فبلغ ذلك النبي فقال : أئتوني به ،

---

(١) المسجد الجامع بالقيروان ص ٥٤ ، التربية والتعليم في الإسلام ص ٦١ .

فأتوه فأمره بذلك ، وصنع له منبراً من الخشب ذا ثلاث مراقي أو أربع[١] .

كما يورد السمهودي خبراً عن هذا الموضوع على نمط آخر إذ يقول : قال تميم الداري لرسول الله ﷺ : ألا أصنع لك منبراً تقوم عليه ؟ فإنه أهون عليك إذا قمت وإذا قعدت ، قال : وكيف المنبر ؟ قال : أنا أصنعه لك يا رسول الله ، قال : فخرج إلى الغابة فقطع منها خشبات من أثل ، فعمل له درجتين أي غير المقعد ، فتحول رسول الله ﷺ عن الخشبة التي كان يستند إليها إذا خطب[٢] .

وقد تعددت أسماء صانعي منبر رسول الله ﷺ ، لكن ما يهمنا في هذا هو أن رسول الله ﷺ قد وافق على عمل منبر له يقوم عليه إذا خطب ، أو يجلس عليه وقتما يشاء .

وقد تعددت درجات المنبر فيما بعد إذ جعلها معاوية بن أبي سفيان ست درجات . ويشير المقريزي إلى أن منبر جامع عمرو بن العاص قد أهداه ملك النوبة إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي وصر ، وبعث معه نجاراً حتى ركبه ، ولم يزل ذلك المنبر حتى زاد فيه قرة بن شريك حيث نصب غيره[٣] . وهذا لا يعني أن المنبر لم يوجد إلَّا في هذا العهد حيث أن المنبر قد وجد في عهد الرسول ﷺ « أي قبل فتح مصر بأكثر من عشرين عاماً تقريباً » .

خامساً : المئذنة :

كان الناس في بداية الأمر يجتمعون إلى الصلاة بدون أذان فهمَّ

---

(١) مرزوق/ محمد/ بين الآثار الإسلامية في العالم ص ٩ .
(٢) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ٢ ص ٣٩ .
(٣) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ١١٢ .

رسول الله ﷺ أن يتخذ بوقاً كبوق اليهود ثم كرهه ، فأمر بإتخاذ ناقوس لدعوة المسلمين للصلاة كما يفعل المسيحيون ، ولكن عبد الله بن زيد أتى إلى رسول الله فقال له : يا رسول الله ، إنه طاف بي هذه الليلة طائف ، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده فقلت له : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قال : قلت ندعو به إلى الصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قال : قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر إلى آخر الأذان ، فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال النبي : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فيؤذن بها ، فإنه أندى(*) منك صوتاً ، فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب فخرج إلى النبي ﷺ يجر رداءه وقال : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال النبي : فالحمد لله فذلك أثبت(١) .

وكانت المئذنة تقام عادة على جانب من جوانب المسجد حيث أصبحت فيما بعد من أبرز العناصر المعمارية في المساجد ، ومع هذا فالمئذنة ليست عنصراً رئيسياً في بنيان المسجد في ذلك الوقت ، فمن المساجد ما يستغني عن المئذنة ، ومنها ما له مئذنتان أو أكثر ، ودليل ذلك أنها لم تكن موجودة أيام الرسول ﷺ ولا في أيام الخلفاء الراشدين بشكلها الحالي ، وإن كان بلال بن رباح رضي الله عنه يؤذن على اسطوانة بدار عبد الله بن عمر ، يرقىٰ إليها على سبعة أقتاب .

والمئذنة وإن كانت تختلف في الشكل من بلد إلى آخر ، إلاَّ أن فكرة إنشائها إسلامية أصيلة ، وأول من أحدث المآذن في الإسلام عمر بن عبد

(*) أندى : أي أحسن وأبدع وأنفذ صوتاً .

(١) ابن سعد/ الطبقات الكبرى جـ ١ ص ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٩٥ .

العزيز عامل الوليد بن عبد الملك على المدينة ، حيث بنى للمسجد النبوي أربع مآذن في كل ركن من أركانه الأربعة . غير أن الدكتور زكي محمد حسن أشار إلى أن أول المآذن التي بنيت في الإسلام هي تلك التي أمر الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري أن يبنيها لجامع عمرو بن العاص في الفسطاط .

سادساً : المقصورة :

هي أقرب ما تكون إلى الأثاث الملحق ببناء المسجد ، لأنه لا علاقة لها بتخطيطه، ولا ينهض وجودهافي المسجد ـ وإن جاء متأخراً ـ دليلاً على أنها اقتبست من مقاصير الكنائس كما يقول البعض .

وحقيقة الأمر أنها بدعة اقتضتها الظروف لحماية الحكام من خطر التعرض للاغتيالات السياسية ، إذ أنشئت بناء على رغبة بعض الخلفاء والولاة في أن يقيموا الصلوات في مكان منفصل عن المسجد لا يرتبط بالمصلين خوفاً على حياتهم ، ذلك أن اثنين من الخلفاء الراشدين وهما عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما قد اغتيلا في المسجد . فيقال بأن أول من اتخذ المقصورة في المسجد هو معاوية بن أبي سفيان وذلك عندما تآمر ثلاثة من الخوارج وهم :

عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، البرك بن عبد الله التميمي ، عمرو بن بكر ، إذ تآمر هؤلاء لقتل كل من علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص فقتل علي ، ونجا كل من عمرو ومعاوية ، فما كان من معاوية بعد هذه الحادثة إلَّا أن أمر بإقامة المقصورة في المسجد حفاظاً على سلامته الشخصية من الاعتداء عليه مستقبلاً ، ثم أصبحت تقليداً اتبعه الحكام والخلفاء فيما بعد .

ومع هذا فإنه لا يتحتم وجودها في كل مسجد ، لأن هناك العديد من مساجد الإسلام لا توجد فيها أمثال تلك المقصورة التي تحدثنا عنها ، نظراً لأنها لا تشكل عنصراً هاماً من عناصر المسجد كالمحراب والمنبر وبيت الصلاة مثلاً ، وإنما طبقت في عدد قليل من مساجد الإسلام .

نعود مرة أخرى إلى موضوع تخطيط المسجد إذ تشير الدكتورة سعاد ماهر إلى أن تخطيط المسجد في العراق وإيران كان مربعاً ، في حين كان في مصر والشام وأفريقيا مستطيلاً . ويرجع السبب - في نظرها - إلى أن أماكن العبادة السابقة على الإسلام في بلاد ما بين النهرين كانت ذات تخطيط مربع وهي بيوت النار[*] أما في غرب العالم الإسلامي حيث كانت تسوده المسيحية فكانت كنائسهم معظمها ذات تخطيط مستطيل[1] .

والواقع أنني أستبعد ما أشارت اليه الكاتبة من أن تخطيط المسجد في العراق وإيران كان مربعاً إستناداً إلى أن بيوت النار كانت مربعة ، وكذا في كل من الشام ومصر وأفريقيا التي كانت تسودها المسيحية السابقة للإسلام بأن معظم كنائسهم ذات تخطيط مستطيل ذلك أن هذا العمل الذي يقوم به مؤسسوا تلك المساجد حينما يكون المسجد مربعاً أو مستطيلاً إنما يخضع لعدة ظروف لعل من بينها المنطقة التي يقام عليها المسجد ، أو رغبة الوالي في أن يكون هذا المسجد مربعاً أو مستطيلاً في بلد دون آخر، لأنه يبدو لي أيضاً بأنه لا فرق بين المسجد ذي التخطيط المربع أو المستطيل .

ولعل ما يفند هذا الرأي هو أن مسجد رسول الله ﷺ في المدينة كان

(*) بيوت النار : هي معابد المجوس .

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ ١ ص ١٨ .

مربعاً عند إنشائه حيث أقيم على قطعة أرض مربعة الشكل ، ثم بعد ذلك توالت عليه الزيادات حتى أصبح مستطيلاً ، ولهذا فإن ما أشارت إليه هو في نظري يفتقر الى الدقة .

ومن المعروف أن عمارة المسجد كانت الأساس في جميع المنشئات الإسلامية كالمدارس والأربطة والبيوت كلها اشتقت عناصرها تقريباً من نفس نظام المسجد الجامع الذي وضع النبي الكريم خطوطه الأساسية ، وكانت عمارة المسجد الذي بناه رسول الله في المدينة بسيطة تعبر في بساطتها عن بساطة الإسلام وتسامحه وعدله .

يقول البعض عن هذا الموضوع :

لم يكن مسجد الرسول ﷺ في المدينة المثل الذي احتذته مساجد الإسلام في العصور التالية فحسب ، بل كان تخطيطه ونظام بنائه أساساً لسائر أنواع العمائر الإسلامية المتأخرة كالمدارس والقصور ، فمن نظامه التخطيطي اشتقت هذه الأبنية نظمها التخطيطية يضاف إلى هذا أن المسجد أصبح في العصر الإسلامي أساساً للتنظيم العمراني للمدينة الإسلامية ، والمركز الديني الذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية ، والقلب النابض بالحياة ، وهو الذي يطبع المدينة الإسلامية بالطابع الإسلامي باعتباره المركز الديني والثقافي والاجتماعي للمدينة الإسلامية[1] .

ويقول آخر :

لم يتبق أثر معماري من أول مسجد جامع أقيم في الإسلام ، ولكن

---

(١) سالم/ السيد عبد العزيز/ تاريخ الدولة العربية ص ٣٤٦ .

صورة مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة ما تزال ظاهرة بارزة واضحة المعالم ، فقد كان مصدراً لاهتمام العديد من الكتّاب والمؤرخين العرب ، إذ لم يغفلوا شيئاً من تاريخه منذ انشائه حتى اليوم ، ولم يحظ أي مسجد آخر في البلاد العربية الإسلامية بمثل ما حظي به المسجد النبوي في المدينة المنورة ، من عناية هؤلاء الكتّاب والمؤرخين[1] . هذا هو التخطيط الذي سار عليه مسجد رسول الله ﷺ واحتذت حذوه بقية المساجد في الأمصار الإسلامية .

نظام بناء المسجد

لقد تعددت آراء المستشرقين واختلفت في تحديد المصدر الذي استمد منه المسجد الجامع نظامه التخطيطي ، ومن بين تلك الآراء هو الرأي الذي أبداه «كيتاني» في حوليات الإسلام ، وأيده فيه الأستاذ كريزويل ، ويذهب إلى الزعم بأن الاسلام لم يتخذ مساجد جامعة للصلاة إلَّا بعد وفاة النبي ﷺ ، وأنه لم يكن للعرب المسلمين مسجد جامع في المدينة تؤدى فيه الصلاة قبل ذلك ، وأن المسجد الذي بناه رسول الله ﷺ في المدينة المنورة لم يكن معداً ليكون مسجداً وإنما كان فناءً لبيته وبيوت أزواجه يجتمع فيه المسلمون أحياناً . ويشير الأستاذ كريز ويل إلى أن الدافع لإنشاء هذه المساجد الجامعة هو دافع سياسي ، وأن الفضل في إنشاء المساجد الجامعة إنما يعود بالدرجة الأولى إلى زياد بن أبيه الذي وسع بنيان مسجد البصرة سنة ٤٤هـ ليصرف جماهير المسلمين عن مساجد القبائل ، وليتخذ من المساجد الجامعة مراكز للإجتماعات الرسمية التي كانت تتخللها خطب سياسية ، كما يدعي أيضاً بأن أهل المدينة ظلوا بدون

---

(١) المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ص ١٦٧ .

مسجد جامع حتى سنة ٥٤هـ ، وأن النبي ﷺ لم يشيد للمسلمين مسجداً جامعاً[١] .

والواقع أن هذه المزاعم والإدعاءات لا تستند إلى أية أسانيد علمية ، وأنها لا تعدو أن تكون مجرد افتراضات واهية تناقض الحقائق التاريخية ، فلقد فرضت الصلاة على المسلمين قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ، وأن النبي ﷺ فرض عليهم أداء صلاة الجمعة في مكان جامع ، ذلك أن كثيراً من كتب السيرة والتاريخ قد أشارت الى أن مسجد الجمعة الموجود حالياً في المدينة المنورة كان أول مسجد صلى فيه النبي ﷺ الجمعة ، ولهذا سمي هذا المسجد بمسجد الجمعة عند خروجه من قباء وقد نص القرآن الكريم في آيات كثيرة على أن المسلمين كانت لهم مساجد جامعة في حياة الرسول ﷺ إذ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلاَّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾[٢] .

وقال جل ذكره : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ﴾[٤] . وقال سبحانه : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً ﴾[٥] .

---

(١) نقلاً عن : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ص ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

(٢) سورة التوبة آية ١٨ .

(٣) سورة النور/ الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) سورة التوبة آية ١٧ .

(٥) سورة الجن آية ١٨ .

هذا بالإضافة إلى الأحاديث النبوية الشريفة التي تطرقت إلى هذا الموضوع إذ يقول رسول الهدى ﷺ : « أحب البلاد إلى الله مساجدها » ويقول عليه الصلاة والسلام : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » .

أما المؤرخون فقد أشار المقريزي في خططه إلى هذا الموضوع إذ يقول :

لما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه البلدان ، كتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة ، وأن يتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة ، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك ، وكتب إلى أمراء الأجناد في الشام أن لا يتبددوا إلى القرى ، وأن ينزلوا المدائن ، وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً ، ولا تتخذ القبائل مساجد ، فكان الناس متمسكين بأمر عمر رضي الله عنه وعهده[1] .

هذا الكتاب الذي بعث به خليفة المسلمين عمر بن الخطاب إلى أمراء الأمصار يأمرهم فيه بإتخاذ مسجد للجماعة بالإضافة إلى القرآن الكريم ، والسنّة النبوية المطهرة ، هو خير دليل على بطلان ادعاءات كريزويل وغيره من اعداء الإسلام ، بل خير دليل على وجود المساجد الجامعة قبل زياد بن أبيه كما يدعي هؤلاء وأمثالهم .

ولا يشترط في المسجد مع بداية نشأته بناءً ولا هيئة معمارية معينة حيث روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « جعلت لي الأرض مسجداً

---

(١) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ١٠٧ .

وطهوراً » حتى الجدران لا ضرورة لها بالنسبة لبعض مساجد الأمصار ، حيث اتخذ المسلمون في مراحل الإسلام الأولى مساجد لهم هي عبارة عن قطع من الأرض فصلت عن غيرها من الأراضي بخندق يصونها من ولوج الناس إليها دون طهارة ، كما يمنع كذلك دخول الحيوانات إليها ، ومثال ذلك مسجد الكوفة الأول الذي أسسه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سنة ١٧هـ . حيث لم تقم لهذا المسجد في البداية أية جدران ، وإنما حفر حوله خندق ، مما يدل على بساطة الإسلام ، كما أن المسجد الحرام لم يسور إلَّا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما ضايق سكان مكة البيت الحرام في بناء دورهم ، فَسَوَّرَهُ .

ولهذا فإن الهدف من إقامة المساجد كما يقول البعض هو أن تكون مراكز إشعاع فكري وروحي وحضاري في المجتمع الإسلامي ، ولتكون أيضاً منطلق خير ودعوة للحق(١) .

ويمكن تلخيص أهداف بناء المساجد في النقاط الآتية :

١ - ترسيخ العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين .
٢ - تعميق القيم الروحية في حياة المسلمين .
٣ - تجميع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم وتطلعاتهم
٤ - بث روح التعاون والتكافل في حياة المسلمين .
٥ - تثبيت الأخلاق الكريمة في حياة المسلمين .
٦ - تسهيل أداء العبادة في المسجد على الوجه الأكمل .
٧ - تنمية الثقافة الإسلامية بين المسلمين .

---

(١) مقال : المسجد أوجد المجتمع الإسلامي الأول/ بحوث مؤتمر رسالة المسجد ص ص ٥٦ - ٥٧ .

كما أن المسجد يشكل في واقعه المؤتمر اليومي للمسلمين حيث تقام الصلاة فيه خمس مرات في اليوم والليلة ، كما أن يوم الجمعة يمثل مؤتمراً أسبوعياً ، لأن دائرة التعارف فيه أوسع وأرحب . أما المؤتمر العالمي الذي يعقد في المسجد الحرام لأداء ركن من أركان الإسلام وإقامة شعيرة من شعائر الإيمان ، والذي يعقد مرة واحدة في السنة في وقت محدد فهو الحج إلى بيت الله الحرام .

إذاً فالمسجد مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة المؤمن اليومية والاسبوعية والسنوية . فالمسلمون عندما فهموا رسالة المسجد وأدوها على الوجه الصحيح كانوا شيئاً مذكوراً في التاريخ ، وعندما جهلوا تلك الرسالة عاشوا على هامش الحياة ، وتخبطوا في دياجير الظلام والجهل[1] .

ولعل هناك من المؤرخين وعلماء الآثار من يدعي بأن المساجد قد اقتبست كثيراً من نظمها المعمارية من الكنائس المسيحية ، أو الهياكل اليهودية ، أو الأسواق والمحاكم الرومانية ، أو قاعات الاستقبال في القصور الفارسية .

وبدراسة هذا الموضوع يحسن أن أناقش ما أشار إليه هؤلاء ليتبين مدى صحة هذا الكلام من عدمه .

أولاً : هل كان البناء مقتبساً من الكنائس ؟

يفترض البعض من علماء الآثار أن نظام المسجد اشتق من نظام الكنائس السورية ، ويستند معظمهم في ذلك على الآراء التي ترجح أن

---

(١) مقال بعنوان/ المسجد أوجد المجتمع الإسلامي/ بحوث مؤتمر رسالة المسجد ص ٥٧ .

المسجد الأموي بدمشق كان في الأصل كنيسة أبقى الوليد على بناء معظم أجزائها واحتفظ بنظامها ، وعلى أن بيت الصلاة في المسجد الأموي يتألف من ثلاثة أروقة تمتد من الشرق إلى الغرب على النحو المألوف في الكنيسة .

والواقع أن الجامع الأموي لم يقم على نظام الكنائس ، لأن عناصره التخطيطية تختلف اختلافاً جوهرياً عن عناصر الكنيسة التخطيطية .

كما أنه ليس لعدد الأروقة الممتدة من الشرق إلى الغرب قاعدة ثابتة في تخطيط المساجد . وإذا افترضنا جدلاً أن المسجد الأموي بدمشق قد أقيم على نظام الكنائس ـ مع استبعادنا لتلك الفكرة جملة وتفصيلاً ـ فليس معنى هذا أن نظام الكنائس قد اتبع في جميع المساجد الأخرى ، فقد سبق إنشاء المسجد الأموي العديد من المساجد في كل من المدينة المنورة والبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى ، كما أن نظام المساجد التي أنشئت بعد المسجد الأموي لم يكن مقتبساً من المسجد الأموي نفسه ، وإنما كانت جميعها مقتبسة من نظام مسجد رسول الله ﷺ في المدينة .

ويشير البعض إلى أن هناك فرقاً واضحاً بين الكنيسة والمسجد ذلك أن الكنيسة تضرب في العلو صاعدة نحو السماء بجدرانها العالية وأبراجها ، ومواضع أجراسها ، كما أن الدعامات الخارجية لجدران الكنائس تشد أزرها في صعودها نحو السماء ، في حين أن المسجد على العكس من ذلك تماماً إذ يقوم منبسطاً على الأرض رمزاً للوقار والإخلاص والشجاعة الهادئة ، فخطة بناء المسجد ذات شخصية تدعو إلى الدهشة ، وإذا كانت درجة الأصالة في أي طراز معماري تقاس بالنسبة للأهمية التي تعطى

للمساحة التي يشغلها ، فإننا ينبغي أن نسلِّم بأننا نجد في المسجد استعمالاً إسلامياً للمساحة[1] .

كما أن الباحث نفسه قد عقد مقارنة بين الخطة الأساسية التي يقوم عليها بناء المسجد ، وبين غيره من أماكن العبادة الأخرى ، إذ يقول :

تمتاز الخطة الأساسية التي يقوم علينا بناء المسجد عن غيرها من أنماط العبادة بأصالة لا نظير لها ، فدور العبادة في الدنيا كلها منشآت ضخمة ذات جدران عالية ، وقاعات داخلية تضاء بالشموع والقناديل ، وتحيط بها أجواء من الغموض بل السحر ، توقع في النفوس أثراً عميقاً ولكنه مصنوع متكلف ، ويقوم على خدمتها وقيادة طقوس العبادة كهان ورجال دين ، لهم هيئات خاصة وملابس مصممة على نحو يراد منه أن يوقع في النفس أبلغ الأثر ، وهم يستعينون في الصلوات بالبخور والأضواء الخاصة والأناشيد والموسيقى والكلام الغريب المبهم ، وكل ما يضغط قلب المصلي ويعصره ، ويجعله خاضعاً للكهان ورجال الدين ، تستوي في ذلك كنائس المسيحية على اختلاف مذاهبها ، وبيع اليهودية ، ومعابد البوذية بشتى فروعها، ومعابد الديانات القديمة جميعاً عند المصريين والاغريق والرومان . أما مساجد الإسلام فليس فيها من ذلك شيء ، إنما هي مساحات من الأرض صغيرة أو كبيرة تنظف وتسوى وتطهر ، ويعين فيها اتجاه القبلة ، وتخصص للصلاة ، وقد تسور هذه المساحات أو لا تسور ، وقد تفرش بالحصى النظيف أو الحصر الرخيصة أو البسط الغالية ، وقد تقام فوقها مبان ضخمة ذات جدران وسقوف وقباب ومآذن ، وقد لا يقام من ذلك شيء فلا يغير ذلك من الأمر شيئاً، ويظل المسجد البسيط العادي مكاناً

---

(١) المساجد ص ص ٥٣ ـ ٥٤ .

مقدساً واضح الشخصية لا يقل في هيبته عن أضخم المساجد ، لأن المسجد ـ قبل كل شيء ـ فكرة وروح .

فأما الفكرة فهي التي وضعها الرسول ﷺ عندما بنى مسجده الأول .

وأما الروح فهي روح الإسلام . ولقد أنشأ رسول الله ﷺ مسجده في المدينة بوحي من الإسلام وحده لم ينظر قبل إنشائه إلى عمارة كنيسة أو بيعة ، وجاء مسجده ـ على بساطته المتناهية ـ وافياً تماماً بكل ما تطلبت الجماعة منه ، وهذه هي الأصالة بذاتها[1] .

كما ينفي الدكتور حسين مؤنس أيضاً ما تردد على ألسنة المستشرقين ومن إليهم من أن المسلمين لجأوا إلى اتخاذ الكنائس أو بعضها مساجد ، ويقول : إن هذا من اختلاق كتّاب العصور المتأخرة ، أو من اختلاق بعض المستشرقين من أمثال ليوني كايتاني ، وكريز ويل . وماذا كان يحوج المسلمين إلى تجشم عناء التفاوض مع المسيحيين على أخذ جزء من كنيستهم ، في حين أن انشاء المسجد على أرض عذراء أبسط وأسهل وأقل تكاليف ، زيادة على أن ذلك لا يؤلم مشاعر أحد من الناس ، غير أنه يستثني من ذلك ما فعله الأتراك العثمانيون في الآستانة ، وبعض ما فتحوه من بلاد الدولة البيزنطية ، من أنهم حينما يفتحون بلداً يحولون كنيسته إلى مسجد .

ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن رد فعل لما كان الأسبان يفعلونه بمساجد الأندلس التي وقعت في أيديهم ، وحولوها بالفعل إلى كنائس ، كان هذا معاملة بالمثل والجزاء من جنس العمل . وقد جرى عليها خلفاء

---

(١) المساجد ص ٥٥ .

العثمانيين في ظروف تاريخية معينـة ، ولكن هذا لم يكن قـاعدة إسـلامية عامة[1] .

وقـد عمد العـديد من المستشـرقين إلى القول بـأن نـظام المسجـد التخـطيطي لم يكن وحـده موروثـاً عن الكنائس ، وإنمـا ورث عنها بعض عنـاصر هـامة ، كـالمئذنـة والمنبر والمحـراب والمقصورة ، وقـد سبق أن تحدثت عن هذا الموضوع وعالجته في صفحات سابقة .

ومما يدحض ما أشار إليه البعض من أن نظام المسجد قد اشتق من نظام الكنائس في كثير من أجزائه هو ما أشارت إليه سيغريد هونكه عندمـا تحدثت عن هذا الموضوع إذ تقول :

وأروقة المسجد لا تعرف رواقاً رئيسياً ، وآخر فرعياً أو جانبياً ، كمـا هي الحال في الكنائس ، وهي لا تعرف في نفس الوقت مذبحاً ، وتنكر كل ذلك إنكارها لتقديم طبقة مباركة كهنوتية على غيرها من الناس .

فالقبلة ليست كالمذبح ، فهي لا تحمل أي معنى أو مضمون سـوى تحـديد اتجـاه المصلين ، والصلاة للجميـع على قـدم المسـاواة ، فيقف العالم بجوار السقاء ، وقائد الجيش بجوار الجندي والإمام بملابسه العادية لا يميزه شيء عن الآخرين ، يركع مع ماسـح الأحذيـة ، فالكـل سواسيـة كأسنان المشط ، وقد كان هذا الأساس الـديموقـراطي للإسـلام هو الـذي جعـل المساجـد تتسـع ، ولا تـرتفـع لتضم مـزيـداً من الأروقـة للمؤمنين المتساوين في الحقوق والواجبات .

ولعـدم اهتمام العـرب بـالشكـل الخـارجي للمسـاجـد وجهـوا كـل

---

(١) مقال بعنوان « مساجد الإسلام والمسلمين في شتى العصور »/ مجلة العربي ، عدد ١٥٦ رمضان سنة ١٣٩١هـ/ نوفمبر ١٩٧١م ص ٣٢ .

اهتمامهم لتزيينها من الداخل ، والمساجد لا تعرف رقصات المعبد ، ولا التراتيل والصور والروائح المباركة ، وهي لا تقر البهرج ، ولا الأبهة ، ولا الألوان الزاهية كوسيلة للتأثير على المؤمن . وجذبه إلى التأمل في السماوات . فبينما الكاتدرائيات القوطية تمجد كل ما هو سماوي ، وتضع كل الفنون في خدمته ، فإننا نجد الإسلام لا يهتم بتلك المظاهر ، إنها بيئة الصحراء القاحلة التي ربّت العربي على البساطة(١) .

هل كان نظام بناء المسجد مقتبساً من الهياكل اليهودية ؟

أدلى الأستاذ لامبير برأي أنكر فيه وجود صلات بين المحراب في المسجد الإسلامي وحنية الكنيسة ، وبين منبر المسجد ومنصة الكنيسة ، ولكنه ادعى تشابه المنبر في المسجد بالعرش في الهيكل اليهودي(٢) .

والواقع أن هذا الرأي لا أساس له من الصحة تعصب فيه صاحبه لدينه دون أن تتوفر له بالفعل أية أوجه للتشابه بين النظامين إذ الفرق شاسع بين المنبر في المسجد والعرش في الهيكل اليهودي .

هل كان بناء المسجد مقتبساً من قاعات الاستقبال في القصور الفارسية ؟

يعتقد كريز ويل بأن هناك نظامين للمساجد ، النظام السوري المسيحي ، والنظام العراقي المشتق من قاعات الاستقبال في القصور الفارسية ، وأن المساجد العراقية تشترك مع القصور الفارسية من حيث التخطيط المربع ، وعلى هذا الأساس افترض كريز ويل خطأً أن المسلمين

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٧٩ .

(٢) نقلاً عن المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ص ٢٨٩ .

اتخذوا من قاعات الاستقبال في القصور الفارسية بيوتاً للصلاة ، ثم بنوا مساجدهم الجامعة على نسقها[1] .

والواقع أن المساجد العراقية اتبعت في نظامها نظام مسجد رسول الله ﷺ في المدينة الذي اعترف كريز ويل نفسه بأنه لم يقتبس من نظام سابق ، وإنما تعبر عمارته عن بساطة وسذاجة ، لا تتوفران في أية أمثلة سابقة ، ولما كانت مساجد العراق تتبع نفس نظام البناء الموجود بجامع المدينة المنورة ، فالأصح أنها اشتقت نظامها منه لا من القصور الفارسية[2] .

هل كان نظام المسجد مقتبساً من نظام البازيليكا الرومانية ؟

يزعم سوفاجية أن نظام المسجد مشتق من نظام البازيليكا الرومانية[*] كما يعتقد بأن المسجد كان يتخذ مكاناً للإجتماعات الرسمية والشعبية ، وأنه كان بمثابة قاعة للحكم ، ومخزن للسلاح وبيت للمال ، فسوفاجية وفقاً لهذه النظرية يجعل وظيفة الجامع شبيهة بوظيفة قاعة الاستقبال الرومانية ، ولا يفرق بينهما إلَّا في قوله بأن قاعة الاستقبال كانت للخاصة ، بينما كان المسجد ساحة للعامة[3] .

والواقع أن سوفاجية لم يحالفه التوفيق في رأيه هذا بل فاتته الأهداف التي من أجلها أنشيء المسجد ، ولم يراع الفرق فيما أنشيء من أجله المسجد ، وما أنشئت من أجله قاعة الاستقبال الرومانية .

من كل ما سبق يتبين لنا بأن نظام الجامع التخطيطي نظام أصيل لم

---

(١) نقلاً عن نفس المصدر ص ٢٨٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨٩ .

(*) البازيليكا الرومانية : هي الموضع الذي تعقد فيه السوق والمحكمة .

(٣) المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ص ٢٨٧ .

يقتبسه المسلمون من الأبنية القديمة السابقة على الإسلام كالقصور الفارسية ، والهياكل اليهودية والكنائس المسيحية ، وقاعات الاستقبال الرومانية ، وإنما استمد أصوله من الإسلام ، وكانت عناصره تهدف إلى غرض معين ، وأنها تنسجم أيضاً مع الظروف التي أحاطت ببنائه .

فتخطيط المسجد نظام أصيل في تاريخ العمارة لم يكن معروفاً قبل الإسلام بشكله الذي تحدثنا عنه ، مهما برر أعداء الإسلام من أن نظام المسجد قد اقتبس الكثير من نظمه من نظم أماكن العبادة الأخرى ، وهم بهذا يحاولون قدر طاقتهم أن يثبتوا عجز الإسلام عن الابتكار الأصيل الذي لم يسبقوا إليه ، وإنما كان المسلمون عالة على غيرهم ممن سبقوهم ، حتى المساجد التي تعتبر أصيلة في بنائها وأهدافها حاولوا أن يجعلوا منها أبنية لا تعدو أن تكون صورة طبق الأصل لبناء وتخطيط الكنائس والهياكل والقصور السابقة على الإسلام .

الفصل الثاني

الرسالة العلمية والسياسية للمسجد النبوي

الرسالة العلمية للمسجد النبوي

المسجد هو المركز الأول للإشعاع الروحي والعلمي ، لأنه مكان العبادة والتعلم ، وموطن التذكير والتفقيه والتوجيه ، ولم تكن رسالة المسجد في الإسلام مقصورة على الناحية الدينية وحدها ، بل كانت المساجد ولا تزال مفتحة الأبواب لا يرد عنها طالب علم ، أو قاصد ثقافة ، ففي مسجد رسول الله ﷺ أقام فقراء المهاجرين ، وفيه استقبل الرسول عليه الصلاة والسلام الوفود ، ومنه انطلقت البعوث ، وارسلت الجيوش .

نعم لقد كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ وصحابته الكرام مكاناً للعبادة والاعتكاف ، ومكاناً للتعليم والتوجيه ، ومحل تشاور المسلمين وتناصحهم فيما بينهم ، ومقر القضاء ، ومركز القيادة العسكرية ، وعقد الألوية للجيوش المجاهدة في سبيل الله ، ومكاناً للضيافة ، واستقبال الوفود القادمة على رسول الله ﷺ راغبة في دخول الإسلام .

هذه هي وظيفة المسجد في كل وقت وكل زمان ، لأنه لا يجوز أن تكون المساجد للبيع والشراء ولا للعبث واللهو ، ولا للسؤال عن الضالة ، ولا للأهواء والشهوات والمنازعات والمشاحنات السياسية ، ولا للخلافات

العقدية والمذهبية ، لأن رسالة المساجد هي رسالة توحيد وهدي وحق وخير ، ورسالة وفاق ووحدة واعتصام بحبل الله . لقد كان مسجد رسول الله ﷺ في المدينة هو الجامعة الأولى التي ربَّىٰ فيها رسول الله ﷺ أصحابه على يديه خير تربية ، حتى فقهوا في دين الله تعالى ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات من النبي عليه الصلاة والسلام لم يجاوزوها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، فكان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون إلى هذه الجامعة ، فيصيبون فيها علماً وهدى وفضائل وأدباً ، ما اتسعت لذلك أوقاتهم ، وساعدت عليه ظروفهم ، وقد حرص صحابة رسول الله على حضور مسجد الرسول ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتناوب هو وجاره زيارة مسجد الرسول ، فكان إذا ذهب عمر للمسجد أخبر جاره بما جرى فيه طيلة ذلك اليوم ، وإذا ذهب جاره إلى المسجد أخبر عمر بما جرى طيلة ذلك اليوم أيضاً .

يقول البخاري في صحيحه في « باب التناوب في العلم » قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كنت أنا وجاري من الأنصار نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلت يوماً جئته بخبر ذلك اليوم ، وإذا نزل فعل مثل ذلك[1] .

وكان الهدف من ذلك بالطبع هو حضور حلقات الدروس التي كان رسول الله ﷺ يعقدها في مسجده خوفاً من عدم تمكنهما من حضور جميع الحلقات التي كانت تعقد في المسجد .

وقد كان المسجد مدرسة لصنع الرجال وتخريج الأبطال ، إذ صاغ

---

(١) صحيح البخاري جـ ١ كتاب العلم ص ٣١ .

بالقرآن من رعاة الإبل وعباد الأصنام أئمة الهدى عليهم الرضوان ، فكانوا دعاته وقضاته وحماته ، رهبان الليل ، وفرسان النهار ، ساحوا في الأرض ينشرون الإسلام والسلام ، ويبعثون الحياة في آفاق الوجود ، يمدون الإنسانية بقيم لم تألفها ، ومثل لم تعرفها « ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً » .

كما كان المسجد هو صلة الأرض بالسماء ، إذ صنع من تلك الفلول المتناحرة أمة سماوية لم يعرف لها التاريخ البشري مثيلاً لأنها صياغة المسجد على ضوء الوحي ، وهو في هذا يخرِّج كتائب المؤمنين ، وأفواج الصالحين[1] . لقد تخرج من المسجد أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وعبد الرحمن بن عوف ، والمقداد بن الأسود ، والمقداد بن عمرو ، وأبي عبيدة عامر بن الجراح ، وغيرهم كثير .

هؤلاء وأمثالهم هم الذين فتحوا الدنيا بأخلاقهم وعدلهم وتمسكهم بأهداب الدين ، قبل أن يفتحوها بسيوفهم ورماحهم ، فكانوا بحق أساتذة العالم ، وملوك الدنيا ـ إن جاز لنا هذا التعبير ـ .

كما تخرج من المسجد أيضاً العلماء الجهابذة ، والفقهاء والمحدثون من أمثال : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، ومحمد الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، والبخاري ، ومسلم ، فكان هؤلاء مصابيح الهدى ، وشموس العلم والمعرفة ، إذ غرف الناس من بحار علومهم ، واقتبسوا من كنوز أدبهم ومعارفهم وأخلاقهم .

---

(١) بحث بعنوان « رسالة المسجد ـ ماضيه ـ حاضره ـ مستقبله » . للشيخ : عبد الرؤوف حامد التكنية/ بحوث مؤتمر رسالة المسجد ص ٣٨٧ .

يقول البعض في هذا : هناك علماء تألقوا في المسجد ، فمن مسجد الرسول في المدينة تألق الإمام مالك بن أنس ، ومن جامع الفسطاط بمصر تألق محمد بن ادريس الشافعي ، وفي مسجد الكوفة وبغداد تألق أبو حنيفة النعمان ، وفي بغداد تألق شيخ السنة الإمام أحمد بن حنبل . ومن رجال الحديث : ابن راهويه والبخاري ، والترمذي ، ومسلم ، وابن ماجه ، والنسائي .

وفي اللغة والنحو : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وسيبويه ، والكسائي .

وفي الأدب : الجاحظ ، كل هؤلاء تلقوا تعليمهم في المسجد[1] فمن أين تخرّج هؤلاء ؟ وأين درسوا ؟ .

إنهم لم يتلقوا تعليمهم من جامعة مشهورة كالجامعات الموجودة في عصرنا الحاضر ، وإنما تلقوا تعليمهم من معلمهم الأول هادي البشرية « محمد بن عبد الله » الذي أرسله الله ليكون هادياً ومعلماً للإنسانية ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾[2] .

لقد كانت الجامعة التي تخرج منها هؤلاء هو « المسجد » الذي نهلوا منه علومهم . ولقد كانت التربية العملية في هذه المدرسة الأولى لها المقام الأول في العناية لأنها نتيجة العلم وثمرته ، فأصبحت إطاراً لكل فضيلة وسياجاً من كل ظلم ومنجاة من كل رذيلة ، فكانت أساليبه عليه الصلاة

---

(١) بحوث مؤتمر رسالة المسجد/ رسالة المسجد والإمام/ عبد الرحمن الحوت ص ١٤٥ .

(٢) سورة الجمعة آية ٢ .

والسلام في تربية أصحابه المثل الأعلى في تكوين الإنسانية بأسمى صفاتها ، فتخرج أصحاب رسول الله من هذا المسجد بقيادة حميدة حكيمة ، وتعاليم رشيدة ، يمضون في مسالك الأرض يقيمون الحق وينصرونه ، ويدعون إلى الله ، فقادوا العالم إلى وجهة سليمة اتجهوا به إلى شاطىء السلام ، حيث حملوا للعالم ديناً ينظم حياته ويساير فطرته ، ويسمو بإنسانيته ، وأماطوا عنه حجب الظلام ، وأزالوا عنه ركام المادة ، فاهتدت القلوب بعد الضلال ، وسكنت النفوس بعد الاضطراب ، فكان صحابة رسول الله علماء أجلاء ، وقواداً عظماء ، تسير الفتوحات شرقاً وغرباً أينما ساروا ، ضربوا للعالم - بعد رسول الله - أروع مثل في الإخلاص لدين الله ، مع شجاعة نادرة ونضج عقل لا يخافون في الحق لومة لائم ، وبهذا استطاعوا في مدة وجيزة أن يقضوا على نفوذ أعظم دولتين في ذلك الوقت وهما : دولة الفرس في الشرق حيث أطاحوا بها وَثَلُّواْ عروش أباطرتها ، ودولة الروم في الغرب ، حيث قلصوا ممتلكاتها في العديد من البلدان الواقعة تحت نفوذها .

تَمَّ كل هذا رغم ما كان لهاتين الدولتين من القوة وشدة البأس ، فقلبوا التاريخ رأساً على عقب ، وكيف لا يكون ذلك وهم قد تعلموا وتربوا على يد معلمهم ومربيهم الأول محمد بن عبد الله .

يقول البعض في هذا : لقد كان رسول الله ﷺ أبا الجيش الإسلامي ومؤسسه وقائده ومطوره ورائده وبشيره ونذيره ومنظمه ومدربه ومجهزه ومسلحه ، وباعث كيانه ، وموطد أركانه ، وراسم أهدافه ومخططها ، واسوته الحسنة وقدوته[1] ومن منارة المسجد تعلو أصوات المؤذنين وتتكرر

---

(١) خطاب/ الوسيط في رسالة المسجد العسكرية / ص ٤٣ .

كلمات التوحيـد التي توالت رسـل الله تبينها لأممهـا واضحة المعـالم نيرة السبيل ، هذه العقيدة التي تجمع الشتات ، وتلم الشعث ، وتربط الأفـراد بعضهم ببعض دون نسب ولا صلة ، فتذوب أمامها كل الفـوارق ، وتزول بها الحواجز، وفي المسجد تمثل روح المساواة ـ والديمقراطية ـ إذا جاز لنا التعبير بهذه العبارة ـ أروع تمثيل ، وأفضل مثال على ذلك هو : **الصلاة** : التي تتمثل فيها المساواة والنظام والطاعة والوحدة إذ لا فـرق فيها بين غني وفقير ، أو كبير وصغير ، أو حر وعبـد ، فيها تصف الصفـوف ، وتتلاصق الأكتاف ، وتخضع الجموع لقيادة واحدة متمثلة في إمام المسجد . كما أن الإسلام لم يفرض الجماعة في الصـلاة إلَّا ليشعر المسلم بـأنه واحـد من كل ، وعضو في جماعة يجب أن يهتم بشؤون تلك الجمـاعة ويـرعاهـا ، فالمسلم لا يطلب منه أن يعيش لنفسه متعبداً منعزلاً ، وإنما يطلب منه حتى في صلاته أن يعيش بجانب إخوانه يساعدهم ويساعدونه .

ويحسن أن أشير إلى ما قاله مؤرخ منصف حول هذا المـوضوع هـو أبعد ما يكون عن الإسلام ، ومع هذا أدلى برأيه عن الصلاة ودورها الفعال في حياة المسلم ، إذ يقول : « بدأت الصلاة المفروضة منذ ظهور الإسلام الغنية بشعائرها ، ومهما يكن من أمر فإن هذه الصلاة قد اكتسبت قوة وأهمية خاصة بين المسلمين ، ثم قامت صلاة الجماعة التي أداها المسلمون وراء إمام كان في الغالب هو محمد نفسه ، ومن يرى المسلمين وهم مجتمعون صفوفاً للصـلاة يؤدون ركعاتهـا وسجداتهـا في تناسق مـدهش ، وفي نظام ووقار ، لا يمكن أن يغفل ما كان لهذه الصلاة المنظمة من قيمة تربوية في نفوس المسلمين منذ أول الأمر ، إذ يكفي أن نتذكـر فقط أن ذلك الشعب كان أبيًّا لا يخضع لمشيئة خارجية ، أو أنه افتقر إلى الشعور التام بالطاعة ، يكفي ذلك لأن نقدر في الحال ما لهـذه الصلاة من أهميـة في إيقاظ روح

النظام والمحافظة عليه ، ولذا غدا مكان الصلاة أول ميدان حقيقي للتدريب العسكري عند المسلمين ، ثم أن انتظامهم في الصلاة شجع روح الوحدة بينهم ، وخلق بينهم شعوراً بالمساواة التي كانت أفكاراً جديدة على أهل بلاد العرب ، إذ كانت الوحدة الموجودة في ذلك الوقت هي رابطة الدم ، ولهذا فقد مهّد محمد السبيل لوحدة بلاد العرب المتنافرة والمتناحرة[1] .

وهذه شهادة من أجنبي ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

ولا غرابة في ذلك ، فالصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام ، وهي عموده ، وهي الحد الفاصل بين الإسلام والكفر ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، من تركها فقد كفر» .

وكيف لا ما دامت هي عمود الإسلام ، ولن يقوم بناء بغير عمد ، كما أن الصلاة أيضاً تعتبر هي الأساس في التربية الإسلامية والخلقية .

ولا ريب بأن تلك المهمة التي تضطلع بها الصلاة لا تنحصر في أداء تلك الحركات التي يقوم بها البعض من المصلين ، أو ما يقوله البعض من كلمات لا تتعدى الشفاه ، وإنما يجب أن يتمثل فيها ما قاله رسول الهدى ﷺ « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلَّا بعداً » أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، لأن الصلاة كما قال الله تعالى عنها : تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ، ويقول عنها رسول الله عليه الصلاة والسلام : « كم من قائم ليس له من قيامه إلَّا السهر » .

ونفس الشيء بالنسبة للحج ، إذ يقول البعض نقلاً عن المستشرقة

---

(١) هل/ ي/ الحضارة العربية ص ص ٢٣ ـ ٢٤ .

« ساريس وادي » من كتابها « العقل السليم » ، كأعظم صورة من صور الديمقراطية :

« إن المسلمين ينتقلون بكل الطرق ، بالبر والبحر والجو ، كلهم يصبون في طريق واحد ، ويجتمعون في مكان واحد ، وهم يختلفون في الأزياء ، والأجناس ، والألوان ، واللهجات ، والمكانة الاجتماعية ، والغنى والفقر ، ثم يلبسون ملابس الإحرام ، فإذا هم جميعاً سواء في كل شيء ، الملك والسوقة ، الغني الواسع الثراء ، والفقير المدقع الفقر ، ومن ينحدر من سلالة رسول الله ﷺ ، ومن أسلم منذ يوم واحد ، كلهم يقفون عبيداً خاشعين للخالق الأعلى ، والله لا ينظر إلى مظاهر الناس ، وإنما ينظر إلى قلوبهم ، يطلع على ما يكنه كل ضمير منهم ، وها هم أولاء في هذا الموقف قد تجردوا من كل مظهر يميز بين شخص وآخر ، أو يدل على مكانته المميزة في هذه المواقف ، قد تجردوا من كل ذلك ، إنها مواقف إخلاص ومساواة ، أليست هذه هي الديمقراطية الحق[١] ؟ .

أليس هذا التجرد ، وهذا الموقف جديراً بأن يكسر غرور المغرورين ، ويحط من كبرياء المتعالين ، ويجعل الناس يشعرون أن الدنيا حطام زائل ، ومظهر لا بقاء له ؟ أليس هذا أيضاً مما يرفع نفسية الضعيف الواهن ، والفقير العاني ، والعقيم الذي لا ولد له ، ومن هو محروم من أي متعة في هذه الحياة ؟ إنه بدوره يشعر أن ما يتمتع به الآخرون من الأعراض الزائلة التي لا ينبغي أن يفرح أحد بها أو يحزن على فواتها[٢] .

---

(١) دور المسجد في الإسلام ص ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢) شلبي/ عبد الجليل/ صور استشراقية ص ص ١١٥ ـ ١١٦ نقلاً عن علي مختار/ دور المسجد في الإسلام .

وعندما ارتد العرب عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ لم يتردد خليفة رسول الله « أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه » في إرسال الجيوش لقتال المرتدين .

فبهذه العقيدة الصادقة المخلصة أصبح الحفاة العراة رعاة الشاء هم قادة الفتوح الإسلامية ، وسادة الدنيا .

ومن القواعد الأساسية التي سار عليها بناء الدولة الإسلامية الكبرى أنه لا يمكن التخلي عن قطر يقوم فيه مسجد جامع .

ومن أمثلة ذلك أن إنشاء عقبة بن نافع الفهري لمسجد القيروان سنة ٥٠هـ قد أصبح لزاماً على الدولة الإسلامية المحافظة على ولاية أفريقيا مهما كلّف الدولة من الشهداء ، حتى استقرت قواعد الإسلام في تلك البلاد المتمثلة في تأسيس المسجد أقوى ركيزة للأمة الإسلامية . ثم امتد ذلك حتى شمل بلاد المغرب كلها ، ثم الأندلس فيما بعد على يد العديد من قادة الإسلام من أمثال عقبة بن نافع ، ومعاوية بن حديج السكوني وأبي المهاجر دينار ، وزهير بن قيس البلوي ، وحسان بن النعمان الغساني ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، كل هؤلاء بذلوا أنفسهم رخيصة في سبيل إعلاء كلمة الله ، ونشر العدل والمساواة بين أفراد تلك الشعوب المضطهدة من قبل الروم والقوط .

كما أن وجود المسجد الأقصى الذي يعتبر أولى القبلتين ، وأحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلَّا إليها يعتبر ملزماً للمسلمين جميعاً باستعادته من براثن اليهود . وقد بلغ من اهتمام القادة المسلمين بالمسجد ومدى أهميته في نظر المسلمين هو أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح حينما غزا بلاد النوبة سنة ٣١ هـ والتقى مع أهلها في معركة « دنقلة » وانتصر

عليهم ، كان أول عمل قام به عندما عقد معهم حلفاً هو الاعتناء بالمسجد الذي بناه لهم ، وجاء في نص عقد الحلف ما يلي :

« وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصلياً ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته » .

نعم لقد عرف ابن أبي سرح ومن معه من المسلمين أهمية ذلك المسجد والدور الذي سيقوم به ، ولهذا اشترط على أهل النوبة كنسه وإسراجه وتكرمته « أي العناية به واحترامه »[1] .

فالمسجد هو المعسكر التدريبي لغرس النظام والتنظيم في نفوس أهله حيث أن الصلوات التي تقام فيه هي درس على النظام من ناحية ضبط الوقت ، ومن ناحية التسوية والتراصّ ، كما أن فيه تمريناً على متابعة الإمام في كل حركاته وسكناته ، وتعليماً على اختيار من هو أحق بالتقدم وذلك خوفاً من أن يعطىٰ شيء إلى غير أهله[2] إذ قال عليه الصلاة والسلام : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » أو كما قال عليه الصلام والسلام .

ففي الاستعمار الحديث والمعاصر كان المنتصرون يرفعون الراية أو علم الدولة المنتصرة فوق العاصمة دليلاً على النصر والسيادة ، أما المسلمون فكانوا إذا فتحوا بلداً أنشأوا فيه مسجداً جامعاً دلالة على أن هذا البلد أصبح جزءً من الدولة الإسلامية ، وكان إنشاء المسجد إعلاناً لسيادة دين الله ولم يكن معناه قط سيادة الغالبين على المغلوبين ، وهذا هو ما فعله رسول الله ﷺ عندما وصل إلى قباء أولاً ، إذ أنشأ فيها أول مسجد أقيم في

---

(١) المساجد ص ٤٢ .

(٢) مقال بعنوان : مفهوم المسجد في الإسلام/ من بحوث مؤتمر رسالة المسجد/ علي محيي الدين القرة ص ١١٢ .

الإسلام واتبعه بمسجده في المدينة المنورة عندما قدم إليها ، إذ كان أول عمل قام به هو إنشاء المسجد .

أما في مساجد الأمصار الأخرى التي فتحها المسلمون فنجد في خطب الجمعة الأولى التي ألقيت في كل من البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها لا تجد أية إشارة إلى انتصار أو فتح أو غلبة ، وإنما تجد فيها شكراً لله سبحانه وتعالى على فتح هذا البلد أو ذاك ، وإدخاله في حوزة الإسلام[1]

ولقد كان المسجد في عصور الإسلام الزاهرة هو كل شيء في حياة المسلم إذ كان مجلساً للشورى ، ومحكمة للقضاء ، وداراً للإفتاء ، ومدرسة للعلم ، وثكنة للجيش ، منه كانت تخرج السرايا ، وتجهز الجيوش ، فتنطلق مجاهدة في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، ورفع راية الإسلام خفاقة في كل الأرجاء ، وفيه كانت تستقبل الوفود القادمة للدخول في الإسلام فتعتنقه عن قناعة واطمئنان ، وخير مثال على ذلك هو أن وفد ثقيف قدم على رسول الله ﷺ بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ، فضرب النبي ﷺ لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ، ويروا الناس إذا صلوا فيتأثروا بقراءتهم ، ويحاكوهم في صلاتهم .

كما كان يربط به الأسارى حتى يسلموا أو يفتدوا أنفسهم ، ولعل قصة « ثمامة بن أثال » خير مثال على ذلك عندما أسر وعرفه الرسول ﷺ ، فأمر الرسول بربطه بالمسجد إلى جانب سارية من سواريه ، وأمر أصحابه بالإحسان إليه ، وقد عرض عليه الرسول ﷺ الإسلام ثلاثة أيام ثم أبى ، ثم

---

(١) مؤنس/ مقال بعنوان : مساجد الإسلام والمسلمين في شتى العصور/ مجلة العربي/ عدد ١٥٦ رمضان ١٣٩١هـ (نوفمبر ١٩٧١م) ص ٣١ .

أمرهم بإطلاق سراحه ، فما كان منه إلَّا أن ذهب واغتسل ، وعاد إلى النبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه[1] .

ولا شك بأنه كان لهذا التصرف آثار بعيدة المدى في تاريخ الدعوة الإسلامية .

وهذا هو خير أسلوب في التربية الخلقية ونشر الثقافة الدينية ، وكان إلى جانب ذلك محلاً لمعرفة الحقيقة الإلّهية ، وملجأ لإنارة السبيل أمام النفس والضمير ، وهو في نفس الوقت نفسه مكاناً لتقوى الله والرجوع إليه ، وموطناً لدروس العلم وحلقات الوعظ ، فيه يجد المسلم فسحة الأمان ، ومتعة الروح ، والاطمئنان في التوكل على الله سبحانه وتعالى ، والتسليم إليه .

والمسجد في الإسلام فوق هذا كله جامعة شعبية تلقى فيها الدروس والمواعظ للرجال والنساء على السواء يأخذ كلٌّ قدر إمكانياته الذهنية ، واستعداداته الفكرية ، ولكل منهما ـ الرجل والمرأة ـ الحق في السعي إلى المسجد ، إذ يقول عليه الصلاة والسلام : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » .

وكان إذا حزب المسلمين أمر ، أو حلّت بهم كارثة هرعوا إلى المسجد جماعات وفرادى « الصلاة جامعة » ، وفي المسجد يجتمع ولي الأمر بأهل الحل والعقد من المسلمين يتشاورون فيما فيه خير الأمة ، ومصلحة الجماعة ، وكان الخصوم يحضرون في المسجد مجلس القضاء ، ثم يخرجون منه راضين مطمئنين ، لأنهم عرفوا أن الشرع الحنيف كان هو

---

(١) صحيح البخاري/ كتاب الصلاة جـ ١ ص ١١٩ ، نيل الأوطار جـ ٢ ص ١٧٢ .

الحاكم على الأمة الإسلامية ، لأن تلك التشريعات إنما هي عن الله ورسوله ، ليس إنساناً عادياً يضع النظم والقوانين من تلقاء نفسه كما تمليه عليه إرادته .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الموضوع : « وكانت مواضع الأئمة ، ومجامع الأمة ، هي المساجد ، فإن النبي ﷺ أسس مسجده المبارك على التقوى ، ففيه الصلاة والقراءة والذكر وتعليم العلم والخطب ، وفيه السياسة وعقد الألوية والرايات ، وتأمير الأمراء ، وتعريف العرفاء ، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم[1] .

أما الأستاذ علي الطنطاوي فقد أشار هو الآخر إلى دور المسجد قائلاً :

« المسجد هو المعبد في الإسلام ، وهو البرلمان ، وهو المدرسة ، وهو النادي ، وهو المحكمة ، **هو المعبد** : فيه يدع المسلمون أحقادهم ومطامعهم وشرورهم وفسادهم ، ويدخلون إليه بقلوب متفتحة للإيمان ، متطلعة إلى السماء متحلية بالخشوع ، ثم يقومون صفاً واحداً يستوي فيه الصغير والكبير ، الغني والفقير ، الأمير والحقير ، أقدامهم متراصة ، واكتافهم متزاحمة ، وجباههم جميعاً على الأرض ، يستوون في شرف العبودية ، وفي شرعة العبادة.

وهو البرلمان : ما دهى المسلمين أمر ، ولا عرض لهم عارض إلاّ نودي « الصلاة جامعة » ففيه يكون انتخاب الخليفة ، وفيه تكون البيعة ، وفيه تبحث القوانين المستمدة من الشرع ، ثم تعلن بعد ذلك على الناس .

وهو النادي : إن قدم أمير بلداً كان أول ما يدخله من البلد هو

---

(١) ابن تيمية/ مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية جـ ٣٥ ص ٣٩ .

المسجد الجامع ، ومن على منبره يعلن سياسته ، ويذيع منهاجه ، وإن كانت حرب عقدت الرايات في المسجد ، وليس في الإسلام حرب هجومية لمجرد الاستعمار والكسب ، بل فيه الحرب الدفاعية فقط ، حرب الدفاع عن العقيدة أن يمنع أحد مسيرها ، وعن أصحابها أن يحول بينهم وبين قيامهم بفرض الدعوة إليها ـ إنهم مكلفون بحمل المصباح الذي أضيء من غار حراء ، لينوروا به الدنيا ويبددوا به الظلام عن أهلها ، فإذا انبرى لهم من يحاول اطفاء المصباح ومن يريد منع نور الله أن يصل إلى عباده حاربوه حتى يفيء ويرجع ، فإن فاء ورجع إلى الحق كان واحداً منهم له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وإن أبى إلَّا عناداً فحارب فغلب على أمره لم يكرهوه على الإسلام ولم يكلفوه شططاً ، ولم يحملوه إلَّا ضريبة محدودة هي تكاليف الدفاع الذي يتولونه هم وحدهم يدفعه المغلوبون من أموالهم ، ويدفع المسلمون الغالبون ضريبة الجهاد من أرواحهم .

وهو المدرسة : ففي المسجد وضعت أسس الثقافة الإسلامية ، وفيها ارتفعت ذراها وشيدت صروحها ، وكان يدرس في المسجد كل علم ينفع الناس من علوم القرآن ، وعلوم السنّة والشريعة ، واللسان وسنن الله في الأكوان ، وكل علم تحتاج إليه الأمة الإسلامية يكون تعلمه فرض كفاية في نظر الإسلام ، حتى الكيمياء والفيزياء والرياضيات ، ونجد بعد ذلك من تبلغ به الجهالة أن يصم بالجمود ديناً يجعل تعلم الكيمياء فرضاً كفروض العبادات .

وهو المحكمة : فمن على بسط المساجد وأمام أعمدتها وأساطينها أصدرت الأحكام ، وسطرت أروع صفحات القضاء البشري ، ولطالما أقام القضاة فيها الجمَّال والحمَّال مع أمير المؤمنين أمام القضاة ، ثم حكموا

للجمال على أمير المؤمنين(*) ، وكذلك الأجير والفقير مع الأمير الكبير ، ثم حكموا له عليه لا يبالون مع الحق صغيراً ولا كبيراً[1] .

كل هذا يجري في رحاب المسجد وبين جنباته .

ويقول عنه البعض أيضاً :

« المسجد هو مركز ترابط الجماعة الإسلامية ، وهيكلها المادي الملموس ، فلا تكتمل الجماعة إلَّا بمسجد يربط بين أفرادها بعضهم ببعض ، يتلاقون فيه للصلاة وتبادل الرأي ، ويقصدونه للوقوف على أخبار جماعتهم ، ويلتفون فيه مع رؤسائهم .

فالمسجد على هذا ضرورة دينية وسياسية واجتماعية بالنسبة لكل مسلم على حدة ، وبالنسبة لجماعة المسلمين عامة[2]

ويقول آخر : « المسجد أحب البقاع إلى الله ، فهو قلعة الإيمان ، وحصن الفضيلة ، وهو المدرسة الأولى التي يتخرج منها المسلم ، هو بيت الأتقياء ، ومكان اجتماع المسلمين يومياً ، ومركز مؤتمراتهم ، ومحل تشاورهم وتناصحهم، والمنتدى الذي فيه يتعارفون ويتآلفون، وعلى الخير يتعاونون ، منه خرجت جيوشهم ففتحت مشارق الأرض ومغاربها ففيه السلوى ، وفيه يعزي المسلم أخاه المسلم إذا أصابه مصاب ، وفيه يهنيء المسلم إخوانه بأفراحهم ومناسباتهم السارة ، منه تخرّج العلماء والفقهاء ، وفيه كان الجرحى يمرَّضون ، وبسواريه كان الأسرى يربطون ، وفي رحابه كان التقاضي والقضاء ومحاسبة الخلفاء ، فهو ملتقى الأمة ، وناديها ،

(*) دعوى الجمَّال على أمير المؤمنين المنصور أمام قاضي مكة .

(١) الجامع الأموي في دمشق/ ص ص ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) المساجد ص ٣٤ .

وجامعتها ، ومكان شوراها[1] .

كما أن المسجد نبراس يضيء لطالبه طريق الإصلاح ، ويدله على معارج السؤدد وسلم المجد والفخار وهو ينبوع إصلاح به تجلو الأدران عن القلوب لترى حقائق المعلومات ، إنه دائرة أمن سلمي لا يحتاج إلى حراب وسلاح ، حافظ على الأمن بدعوة الإرشاد والنصيحة ، لأنهما أكبر رادع للنفوس الواعية عن ارتكاب الجرائم ، يطهر القلوب من دنس الحقد وغطرسة الكبرياء ، ويطرد عنها الموبقات ويجردها بالموعظة الحسنة عما تعجز القوى عن إزالته بما تستعمله من حرب وحبس ، وله فضل على الأمن لا يدانيه فضل ، وهو إلى جانب هذا يعلم المتعبد كيف يكون مطيعاً متمثلاً صابراً على أداء الواجبات والقيام بها ، كما يعوده في نفس الوقت على التواضع لبني جنسه الذين لا يمتاز عليهم إلَّا بما يقدمه من عمل صالح « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد استخدم المسجد ليكون منتدى لجماعة المسلمين به تقوي روابطهم ، وتتوثق به صلاتهم ، فيتشاورون فيما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم ، ويتباحثون فيما يعود بالخير على جماعتهم ، فكانت تقام فيه صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم ، ثم تقام فيه صلاة الجمعة مرة كل أسبوع ، ثم صلاة العيد مرتين في العام ، كل ذلك الأثر الذي تركه المسجد في نفوس المسلمين من توثيق عرى الأخوة بين جماعة المسلمين ، وإيلاف قويهم وضعيفهم . أدى إلى حادثة مسجد الضرار ، وذلك أن اثني عشر رجلاً من المنافقين بزعامة « أبي عامر الراهب » اتخذوا من مسجد الضرار حسداً وإضراراً بالمسلمين ، وتفريقاً لكلمتهم ، وذلك

---

(١) وانلي . خير الدين/ المسجد في الإسلام ص ص ٣ ـ ٤ .

باتخاذه مكاناً للطعن على رسول الله ﷺ فيه ، لتختلف الكلمة ، وينشق عصا الطاعة ، فهو أشبه بناد للتآمر والإضرار ، وقد طلبوا من رسول الله أن يفتتحه بالصلاة فيه ، فاستمهلهم حتى يعود من غزوة تبوك ثم يصلي فيه ، فأنزل الله على رسوله : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ إلى قوله : ﴿ والله عليم حكيم ﴾[1](*) . عندها دعا النبي ﷺ بعض أصحابه وقال : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ، ففعلوا وأراح الله المسلمين من مكرهم وغدرهم .

كما لم يغفل رسول الله ﷺ عن الأخطار المحدقة بالدولة الإسلامية وهي في بدايتها خاصة مع اليهود في المدينة ، ولهذا أمر رسول الله زيد بن ثابت بأن يتعلم لسان اليهود ولغتهم ، ليقرأ كتبهم إليه ويجيبهم عليها ، وهكذا فعل ، ولا شك بأن الدافع إلى هذا هو أن يأمن النبي مكر اليهود وخداعهم ، عملاً بمبدأ « من تعلم لغة قوم أمن مكرهم » .

لا يخفى اليوم على كل مسلم ما تقوم به الصهيونية على مرأى ومسمع من انتهاك لحرمات المسلمين وتهديم لمعالم الهدى ، وخير شاهد على ذلك ، هو ما قامت به إسرائيل مؤخراً من حرق للمسجد الأقصى عام ١٩٦٩م ، فأين نحن اليوم مما كان عليه أبطال بدر وأُحد وفرسان القادسية واليرموك وحطين ؟ أين نحن من أولئك القوم الذين بذلوا أنفسهم رخيصة في سبيل إعلاء كلمة الله ؟ .

بل إن أعظم بقعة يجب الدفاع عنها هي بيوت الله التي كان الهدف

---

(١) سورة التوبة الآيات من ١٠٧ ـ ١١٠ .

(*) التفاصيل عن هذا الموضوع موجودة في مسجد الضرار ص ١٨١ وما بعدها .

من إقامتها هو أن يعلو فيها ذكر الله ، ثم هي قبل كل شيء أشرف البقْاع ، وأقربها إلى نفوس المسلمين ، إذ كان المسجد شديد الاتصال بنواحي الحياة الإسلامية ، المادية منها والمعنوية ، نظراً لأن المسلمين في ذلك العهد لم يفصلوا بين أمور دينهم ودنياهم[1] .

نعم لقد كان المسجد أشرف البقاع وأحبها إلى نفوس المسلمين ، يسعون إليه يتطهرون فيه من كل دنس ، ويحطون عنهم الخطايا مصداقاً لقول رسول الهدى : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات » إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فما أحوجنا اليوم إلى روضة المسجد نتلاقى فيها ذاكرين قول رسول الله : ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلَّا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، وما أجدرنا بأن نجعل من المسجد دار عبادة ، ومعهد تعليم وتقويم ، حتى ندخل إليه طالبين زاداً للروح ، وطهارة للنفس ، ونخرج منه للحياة وفي صدورنا بصيرة ، وفي أنفسنا طهارة من كل شائبة أو حقد أو حسد .

ولا يشترط في دخول المسجد للطالب سن معينة ، بل يدخله الكبير والصغير ، مفتح الأبواب لكل طارق ، لا فرق بين جنس وجنس ، أو لون ولون ، فهذا أبو بكر القرشي ، وأبو ذر الغفاري ، وأبو موسى الأشعري ،

---

(١) فهمي / أسماء حسن : مباديء التربية الإسلامية ص ٢٦ .

وبلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، كل هؤلاء وأمثالهم يتلاقون في رحاب المسجد ينهلون من مناهله كل حسب طاقته ، ومبلغ قدرته ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

هذه هي ثمار غرس المعلم الأول « محمد بن عبد الله » وحّد الأمة بعد تفرّق ، وألّف بين قلوبهم بعد تنافر وتناحر .

ولم يقتصر دخول المساجد للرجال فقط ، بل اشتركت النساء أيضاً ، حيث سعت النساء إلى المساجد يشهدن الجمع والجماعات ، ويسمعن الخطب والدروس والعظات ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » ، بل حُقَّ للنساء أن يشاركن في المناقشة في المسجد ، وأكبر دليل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد ذات يوم تحديد المهور خشية مغالاة الناس فيها ، فقال : (لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية ، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال) فقامت امرأة من صف النساء في المسجد قائلة : « إن هذا أمر ليس لك يا عمر ، وكيف تفعل والله تعالى يقول : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾(١) » فتدبر عمر مقالة المرأة ، وعندما استبان له صوابها لم يكبر عليه التراجع عن رأيه ، فقال عبارته المشهورة التي تناقلتها الأخبار : « أخطأ عمر وأصابت امرأة » . وهكذا يتبين لنا أن للمسجد دوراً في حياة المرأة المسلمة تأخذ منه حظها من الثقافة وبمقتضى تلك الثقافة تستطيع أن تساهم في انتشار الحضارة الإسلامية المصطبغة بصبغة الإسلام .

لازم التعليم الدعوة الإسلامية منذ ظهورها وليس من شك في أن

---

(١) سورة النساء آية ٢٠ .

التعليم كان من مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الإنساني ، وهو ليس سوى تكيف الفرد مع متطلبات حياته في بيئته ، ولما كان الإسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكل مظاهره ، لذا فقد كان فهمه ودراسته أمرين لا بد منهما لأفراد الجماعة الإسلامية .

فالتعليم إذاً كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التي تهدف إلى الدعوة الإسلامية ، ولما كان النبي عليه الصلاة والسلام يستهدف من عمله هذا بناء أمة جديدة ، وإنشاء حكومة قوامها العدل والمساواة ، وتحقيق التكافل الاجتماعي ، فلا بد إذاً من وجود طبقة متعلمة مستنيرة تتحمل عبء الدعوة الإسلامية ، ولها قوة الحجة والقدرة على الإقناع ، ولما كان هذا لا يتوفر إلَّا بتوفير التعليم بين طبقات المجتمع وتسهيله على كل واحد منهم ، وقد كان على رسول الله ﷺ أن يسعى إلى نشر التعليم بين أفراد المجتمع المسلم ، لهذا فقد اتخذ النبي عليه الصلاة والسلام من مسجده في المدينة مدرسة لتعليم أصحابه ، إذ تشير بعض الكتب التاريخية إلى أنه لم يكن بين العرب قبل الإسلام عدد كبير ممن كانوا يتقنون القراءة والكتابة حيث يشير القلقشندي إلى أن عدد الكاتبين من بين العرب عند مبعث النبي ﷺ لم يزد عن بضعة عشر رجلاً[١] .

وكان هدف النبي ﷺ من نشر التعليم بين المسلمين ، هو أن يتسنى لهم تحمل أعباء الدعوة الجديدة ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وخيرشاهد على حرص النبي ﷺ على تعليم أصحابه ، أنه حينما تم فداء الأسرى في غزوة بدر اشترط على من لا يستطيع دفع الفداء ، وهو يجيد القراءة والكتابة أن يعلّم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة فداءً له . أليس هذا كافياً

---

(١) صبح الأعشى جـ ٣ ص ١٥ .

لتأكيد رغبة النبي ﷺ في تعليم أصحابه ما يفيدهم في دينهم ودنياهم ، وقد حث النبي ﷺ الناس على تلقّي العلم وتحصيله فقال : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فليس يأجركم الله حتى تعلموا » أو كما قال عليه الصلاة والسلام » .

كما أثنى رسول الله على من دخل المسجد ليعلّم أو ليتعلم ،وجعله في حكم من جاهد في سبيل الله ، كما أنكر على من يكون حظه من دخول المساجد الرؤية والمشاهدة دون الإفادة من ذلك .

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من دخل مجسدنا هذا ليتعلم خيراً أو ليعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له »[1] . وقال عليه الصلاة والسلام : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2] وقال أيضاً في فضل العلم وطلب تعلمه: « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم في غير أهله ، كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب »[3] .

وقال : « الناس رجلان عالم ومتعلم ، ولا خير فيما سواهما » « من طلب العلم تكفل الله برزقه» أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وبهذا ضرب رسول الله ﷺ لنا خير مثل في تشجيع العلم ونشر التعليم ومحاربة الجهل ، ومكافحة الأمية[4] وقد حث عليه الصلاة والسلام على طلب العلم في مناسبات متعددة إذ يقول أيضاً : من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم ، أو

---

(١) نيل الأوطار جـ ٢ ص ١٦٥ ، الفتح الرباني جـ ٢٣ ص ٢٧٠ .
(٢) صحيح البخاري جـ ١ كتاب العلم ص ٢٦ ، سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٤٣ .
(٣) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٤٨ .
(٤) الأبراشي / محمد عطية / حياة سيد المرسلين ص ص ١١٨ ـ ١١٩ .

كما قال عليه الصلاة والسلام .

ولم يقف رسول الله ﷺ عند هذا الحد بل دعا إلى الاستمرار في طلب العلم والتعلم فقال : لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل[1] .

وقد عقدت المستشرقة الألمانية سيغريد هونكة مقارنة بين نظرة محمد ﷺ إلى العلم والمعرفة ، وبين نظرة « بولس » إليها ، وما هو الفرق بين هاتين النظرتين ، يحسن أن أشير إليها ، إذ تقول في معرض حديثها عن هذا الموضوع :

« لقد أوصى محمد كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم ، وجعل من ذلك واجباً دينياً ، فهو الذي يقول للمؤمنين : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» ويرشد أتباعه دائماً إلى هذا، فيخبرهم بأن ثواب التعلم كثواب الصيام ، وأن ثواب تعليمه كثواب الصلاة ، وكان محمد يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة للتعرف على قدرة الخالق ، وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان مردداً عليهم « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، والرسول يلفت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب ، فالعالم يخدم الدين والمعرفة هي من الله وترجع إليه ، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها ، وينالوها أياً كان مصدرها .

وعلى النقيض تماماً يتساءل « بولس الرسول »!! « ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة » ؟ .

مفهومان مختلفان ، بل عالمان منفصلان تماماً ، حددا بهذا طريقين

---

(١) حياة سيد المرسلين ص ١١٨ .

متناقضين للعلم والكفر في الشرق والغرب ، وبهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة ، والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا ، حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها[1] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك أيضاً بل كان المسجد مكاناً لتعليم أحكام الله وسنّة رسوله ﷺ ، إذ كان عليه الصلاة والسلام يطبق في مسجده طريقة الصلاة تطبيقاً عملياً ، ويكفي أن نستشهد بما فعله رسول الله ﷺ مع الأعرابي الذي لم يؤد الصلاة على حقيقتها ، فما كان منه ﷺ إلَّا أن أرشد ذلك الأعرابي إلى الطريقة السليمة التي كان يجب على كل مسلم أن يسلكها أثناء تأدية الصلاة ، وما يتطلب ذلك من خشوع وطمأنينة ، فقد روي أن أعرابياً دخل المسجد وفيه رسول الله ﷺ فصلى الأعرابي ، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ ، فقال له النبي : إرجع فصل فإنك لم تصل ، فرجع فصلى كما صلى أولاً ، ثم جاء فسلّم على النبي ﷺ ، فقال له : ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ ، فعلها ثلاثاً ، ثم قال الرجل :

والذي بعثك بالحق نبياً لا أحسن غير هذا فعلمني ، فقال عليه الصلاة والسلام : إذا قمت إلى الصلاة فكبّر ، ثم اقرأ ما تيسّر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها .

هذا هو الأسلوب الأمثل ، والطريقة العملية لتعليم الناس أمور دينهم ، فالرسول عليه الصلاة والسلام لم ينهره أو يعاتبه ، بل ولم يعاقبه

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٦٩ .

عندما رأى منه ذلك ، وهو عدم إتقان الصلاة ، بل أرشده إلى الطريقة التي تتم فيها الصلاة بشكل لا يشعر معه من كان مع الرسول بأنه كان غاضباً من تصرف ذلك الأعرابي ، وهذه هي التربية العملية في الإسلام .

وفي المسجد كانت الأسئلة توجه إلى رسول الله ﷺ في أصول الإسلام وأركانه ، وهو بين أصحابه رضوان الله عليهم ، فيجيب عليها ، وهذا في حد ذاته يعتبر ضرب من ضروب التعليم والإرشاد بنية صادقة ، ورغبة في تفقيه الناس ، من ذلك ما ثبت في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

« بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم : أيكم محمد ؟ والنبي ﷺ متكيء بين ظهرانيهم ، فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكيء ، فقال له الرجل : ابن عبد المطلب ؟ فقال النبي ﷺ : قد أجبتك ، فقال الرجل : إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد علي في نفسك ، فقال الرسول : سل عن ما بدا لك . فقال : أسألك بربك ورب من قبلك ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال الرسول : اللهم نعم ، قال : انشدك بالله آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال الرسول : اللهم نعم . قال : أنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال الرسول : اللهم نعم . قال : أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ فقال الرسول : اللهم نعم ، فقال الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول مَنْ ورائي من قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر[1] .

---

(١) صحيح البخاري جـ ١ كتاب العلم ص ٢٣ .

كما ذكر البخاري في صحيحه حول هذا الموضوع إذ قال : بينما كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد والناس معه ، إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد ، فوقفا على رسول الله ، فأما الأول فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً . فلما فرغ رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه[1] .

وخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد ، فإذا هو بحلقتين : إحداهما فيها قوم يقرءون القرآن ويدعون الله ، والأخرى فيها قوم يعلمون الناس ، فقال النبي ﷺ : كل على خير ، هؤلاء يقرأون القرآن ويدعون الله ، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، أما هؤلاء فيعلمون الناس ويتعلمون ، وإنما بعثت معلماً ، ثم ذهب إليهم وجلس معهم ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام[2] .

كل هذه النصوص التي ذكرناها تشير بوضوح إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجلس في مسجده ، ويجتمع المسلمون عنده على شكل حلقة يتلقون العلم منه ، وقد كان رسول الله ﷺ يملي على صحابته ـ من كتّاب الوحي ـ ما يوحىٰ إليه من كتاب الله تعالى في المسجد ، من أمثال زيد بن ثابت وغيره .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم إذا صلّوا الغداة قعدوا حلقاً حلقاً ، يقرأون القرآن ، ويتعلمون الفرائض والسنن .

---

(١) صحيح البخاري كتاب العلم جـ ١ ص ٢٤ .

(٢) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٤٩ ، إحياء علوم الدين جـ ١ ص ١٠ .

ولم يعرف عن رسول الله ﷺ طوال مدة استقراره في المدينة أنه اتخذ داراً يعقد فيها اجتماعاته، أو ندوات مع أصحابه للتشاور والتذاكر، بل إن من المؤكد أن غالب لقاءاته مع أصحابه للتشاور في شؤون الحياة كافة ، أو للموعظة والتعليم والتوعية والتوجيه كانت في مسجده ، ولهذا فإن النبي لم يتخذ في المدينة داراً لمشورته وتصريف أعماله الاجتماعية والسياسية ، بل اتخذ من مسجده مركزاً لمشورته مع أصحابه ، ومداولتهم الفكر والرأي حول كبرى القضايا الهامة ، سواء أكان ذلك في المعارك التي كانت تقع بينه وبين المشركين ، أو كان في تدبر كيدهم وتفهم مناهجهم في الكر والفر ، أو كان في وضع الخطط للإصلاح الداخلي في شؤون الاجتماع والاقتصاد وغير ذلك[1] .

وعن أهمية العلم للإنسان قال علي رضي الله عنه للكميل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق ، وصنيع المال يزول بزواله[2] .

وقال أيضاً لكميل : يا كميل ، العلم دين يدان به يكسب الإنسان الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، يا كميل ، هلك خُزَّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة[3] .

---

(١) خالد/ حسن/ الوجهة الاجتماعية في رسالة المسجد/ بحوث مؤتمر رسالة المسجد ص ٤١٢ .

(٢) نهج البلاغة جـ ٣ ص ١٨٧ ، إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٧ ، أدب الإسلام ص ٨٠ .

(٣) نهج البلاغة جـ ٣ ص ١٨٧ .

ويقول أبو الأسود الدؤلي : ليس شيء أعزّ من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك .

ومن وصايا لقمان لابنه : يا بني ، جالس العلماء ، وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض بوابل السماء[١] .

لقد قام صحابة رسول الله ﷺ بعده بتعليم الناس وتفقيههم في الدين ، وكانوا يحضرون المساجد ، ويلتف المسلمون حولهم ، يجيبون عن الأسئلة الموجهة إليهم بما فهموه عن رسول الله . وكان من بين الذين قاموا بمهمة التعليم في المسجد من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم ، عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس بن مالك ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو هريرة ، وعبد الله بن عباس ، وأبو موسى الأشعري ، وعبادة بن الصامت ، وغيرهم كثير .

وكان عبادة بن الصامت رضي الله عنه يعلم أهل الصفة القراءة والكتابة .

ويقال بأن أبا معاوية الكندي قدم على عمر بالشام فسأله عن الناس وقال : لعل الرجل يدخل إلى المسجد كالبعير النافر ، فإن رأى مجلس قومه ، ورأى من يعرفهم جلس إليهم ، فقال له : لا ، ولكنها مجالس شتى يجلسون فيتعلمون الخير ويذكرونه ، فقال له عمر : لن تزالوا بخير ما دمتم كذلك[٢] .

---

(١) عبيد/ منصور الرفاعي/ مكانة المسجد ورسالته ص ٤٢ .
(٢) الكتاني/ التراتيب الإدارية جـ ٢ ص ٢١٩ .

وقد سار التابعون على نهج الصحابة رضوان الله عليهم ، فكانوا يجلسون في المساجد يعظون الناس ، ويعلمونهم أصول دينهم ، وكان من بين الذين قاموا بمهمة التعليم من التابعين عدد كبير نذكر منهم ، سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وسالم مولى عبد الله بن عمر ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومالك بن أنس ، وغيرهم .

وكان ممن جلس للتدريس في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة ربيعة الرأي ، وعليه أخذ كل من مالك بن أنس الذي يعتبر من أبرز رجال الفكر الإسلامي ، وأحد الأئمة الأربعة ، وكذا الحسن البصري ، وكان ربيعة الرأي من أعلام زمانه في معرفة الفقه قال فيه الإمام مالك : « ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي »[١] .

وكان سعيد بن المسيب وغيره من فقهاء المدينة يفتون ويجتهدون في هذا المسجد ، إذ كان مالك بن أنس يروي حديث رسول الله ﷺ في مسجد المدينة ، كما ألف كتابه « الموطأ » في هذا المسجد أيضاً .

ولم يقتصر التعليم في المسجد النبوي على من ذكرنا بل أن المُقَّرِيَّ قد ألقى دروساً في هذا المسجد إذ يقول : وفدت على طيبة المعظمة ميمماً مناهجها السديدة سبع مرار ، وأطفأت بالعود إليها بالأكباد والحرار ، واستضأت بتلك الأنوار ، وألفت بحضرته ﷺ بعض ما منَّ الله به علي في ذلك الجوار ، وأمليت الحديث النبوي بمرأى منه ﷺ ومسمع ، ونلت بذلك وغيره ولله المنة ما لم يكن لي فيه مطمح ولا مطمع[٢] .

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ١ ص ٦٥ .

نعم لقد كان المسجد النبوي في المدينة مركزاً من مراكز العلم ، ومنطلقاً مهماً لدراسات الفقه الإسلامي ، وأصول الدين الحنيف خصوصاً أيام محمد الباقر ، وجعفر الصادق حيث قيل بأن هذين الإمامين كانا يجلسان في المسجد النبوي لتعليم المسلمين أصول الدين والفقه الإسلامي ، فكان لتعليمهما أثر عظيم في تنسيق أصول الدين .

وكان المسجد إلى جانب ذلك يتخذ داراً للقضاء ، ومكاناً لإقامة العدل ، وموطناً لتنفيذ العقوبات ، حتى يشهدها القوي والضعيف ، والكبير والصغير ، والغني والفقير ، وفي هذا التقويم الخلقي ما فيه ، فلقد قضى رسول الله ﷺ بالرجم على رجل كان بالمسجد إذ نادى رسول الله ﷺ قائلاً له :

يا رسول الله ، إني زنيت ، فأعرض عنه الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما شهد على نفسه أربعاً ، قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : أبك جنون ؟ قال : لا ، قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم ، فقال النبي : إذهبوا به فارجموه[1] .

ويروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « بينما كان رسول الله ﷺ يخطب في المسجد يوم الجمعة إذ أتاه رجل فقال له : يا رسول الله ، أقم علي الحد » .

وكذا قصة الرجل الذي قتل صاحب الحديقة عندما تخاصم أبناء القتيل مع القاتل إلى عمر بن الخطاب في المسجد ، فلما تبين لهما صدق الرجل ووفاءه عفوا عنه .

---

(١) فتح الباري جـ ١٢ ص ص ١٢٠ - ١٢١ .

وتقول سيغريد هونكة :

وعلاوة على تلك الصلوات التي يؤديها المسلم حيث شاء ، وجب على المؤمنين أن يؤدوا صلاة جامعة يوم الجمعة من كل أسبوع في المسجد .

ولم تقتصر مهمة المسجد على تلك الصلاة مرة في الاسبوع فحسب ، بل تعدته إلى أغراض تخدم الدين والمجتمع ، كتعليم الأطفال والطلاب ، ومباشرة أمور القضاء .

فالجامع هو الذي يجمع المسلمين ، وهو ليس بالمكان الخاص الذي يرتفع ببركاته وقدسيته كالكنيسة على بقية منازل الناس ومساكنهم ، ولهذا لم يهتم المسلمون بمظهر المساجد الخارجي ، فشكله الخارجي غير معقد ، أما القبة فلا تعقيد فيها ، ولا زخرف ، وجدران المسجد لا تختلف عن جدران الحصون أو المصانع ، وهي تزخرف وتزين من الداخل فقط .

والمسجد لا يحاول التأثير على الفرد موضوعياً و حسياً ، فهو بيت الله ، والله وحده لا يحده زمان أو مكان ، لا يُرى ولا يُتصور ، ولا يشبه البشر ، واحد لا شريك له ، ولم يكن له كفواً أحد[1] .

ولم يكن المسجد وقفاً على الثقافة الدينية ، وقصراً على التعاليم الإسلامية فحسب ، بل كان ميداناً للثقافة الأدبية والمران الحربي ، فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ ، ويحضره الرسول نفسه فلا يعيب عليه ذلك .

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ص ص ٤٧٨ ـ ٤٧٩ .

ولعل إجازة النبي ﷺ لحسان هو لأن الشعر إذا كان مما يشتمل على الثناء على الله أو على رسوله ، أو على الذب عنهما ، فهذا من الأشياء المستحبة .

مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحسان بن ثابت وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه ، فقال حسان : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ، فانصرف عمر وعرف أنه يقصد النبي .

كما أن كعب بن زهير أنشد قصيدته في مسجد رسول الله بحضرة النبي وحضرة أصحابه بعد صلاة الصبح « بانت سعاد »، وكان النبي قد أهدر دمه ، فأتى إلى النبي مستجيراً وتوسل بها إليه ، حيث حقن النبي دمه بعد الإهدار ، وأجازه بمائة من الإبل ، وخلع عليه بردته . يقول ابن كثير عن هذا :

أسلم كعب وقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ ، ثم أقبل حتى أناخ راحلته بباب مسجد رسول الله ، ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ كالمائدة بين القوم متحلقون معه حلقة خلف حلقة ، يلتفت إلى هؤلاء مرة فيحدثهم ، وإلى هؤلاء مرة فيحدثهم ، قال كعب : فأنخت راحلتي بباب المسجد ، فعرفت رسول الله بالصِّفة حتى جلست إليه فأسلمت وقلت : أشهد أن لا إلّه إلّا الله ، وأنك محمد رسول الله ، الأمان يا رسول الله ، فأمنه[١] .

وبالإضافة إلى ذلك فقد استفاد المسلمون من المساجد في الناحية الاجتماعية ، إذ فيها يتلاقى الناس ، ويقيمون فيها بعض احتفالاتهم في

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٧٠٦ .

الأعياد والمواسم الدينية والاجتماعية ويعقدون فيها عقود الزواج .

ويشير الزركشي إلى استحباب عقد النكاح في المسجد لحديث روي عن النبي ﷺ أنه قال : أعلنوا النكاح في المسجد[١] .

ولكي يزداد وضوح الدور الاجتماعي للمساجد في عالم الإسلام يحسن أن نعود إلى ما قاله رحالة المسلمين من أمثال ابن جبير وابن بطوطة وغيرهم ، من أن هؤلاء الرجال عندما ينزلون بلداً لا يعرفون فيه أحداً ، أول ما يتجهون إلى المسجد ، وهناك يلقون الغرباء من أمثالهم فيسألونهم عن الأسعار وسبل المعيشة للغريب ، وفي معظم الأحيان كانوا يتعرفون هناك ببعض أهل البلد ويعرفونهم بأنفسهم ، فما يكاد هؤلاء يعرفون أنهم أمام عالم مسلم غريب حتى يفتحوا له الأبواب يستضيفه بعضهم ، أو يدلونه على رجال من أهل الخير والفضل ، فيقوم بالواجب نحوه ، وسرعان ما يقدمونه لكبير البلد ، وهنا تنحل مشكلة إقامته وطعامه ، وفي أحيان كثيرة كانوا يعرضون عليه عملاً يناسب مكانه وعلمه[٢] .

وعلى هذا فقد كانت المساجد مراكز اتصال بين أفراد الجماعة الإسلامية ، ففيها كان الغرباء من أبناء الجماعة الإسلامية يتلاقون ويتعرف بعضهم إلى بعض ، وكانوا يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة هي أمة الإسلام ، وبفضل مساجد الله لم يكن المسلم يشعر بأنه غريب في أي بلد إسلامي[٣] .

ونظراً لأهمية الدور الذي يضطلع به المسجد في بناء المجتمع

---

(١) اعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٣٦٠ .

(٢) المساجد ص ٣٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٢ .

الإسلامي أشار البعض إلى ذلك قائلاً :

« وللمسجد أثر عظيم في بناء المجتمع الإسلامي وتوجيهه إلى ما فيه خير وسعادة أفراده في أمور الدين والدنيا ، فهم حين يجتمعون في بيت من بيوت الله على طهر وصفاء ، فلا بغض ولا عداوة ولا تفاخر ، فيخلصون في مدارسة أمورهم وحل مشاكلهم ، وكلهم يشعر أنه في ضيافة الله وفي مراقبته ، وبذلك يتفاعل رواد المساجد مع مجتمعهم ، ويكون أداة فعالة في نهوضه ، والارتقاء به . ولو أن اجتماعاً عقد في بيت أحدهم ، أو ناد من أنديتهم لشعر المدعوون أو بعضهم بشيء من الغربة والحاجة إلى التحفظ ، كما قد يبدو صاحب الدعوة في صورة المزهو أو المتكلف ، وقد يؤدي ذلك إلى فشل الاجتماع ، ولكن المسلمين حين يجتمعون في بيت من بيوت الله فجميعهم فيه سواء ، فليس بينهم صاحب دعوة ولا مدعو ، فالداعي هو الله ، والمدعو عباد الله ، فيتدارسون ما يهمهم في صراحة وإخلاص ، فالمسجد مع أداء العبادة فيه يمكن أن يكون وسيلة لتنوير المسلمين إلى طرق كسب عيشهم ، والاستفادة من أوقاتهم ، وفض ما قد يكون بينهم من خصومات قبل أن تتسع[1] .

ولم يقتصر دور المسجد على هذه الأمور بل تعداها إلى أمور أخرى لعل من أهمها : هو اتخاذ جزء من المسجد مستشفى لعلاج المصابين من المسلمين في الحروب التي جرت بينهم وبين المشركين ، وخير دليل على ذلك هو أن سعد بن معاذ رضي الله عنه « سيد الأوس » عندما جرح في غزوة الخندق « الأحزاب » أمر رسول الله ﷺ بأن يوضع في خيمة في

---

(١) زبارة/ أحمد محمد/ مقال بعنوان: أهمية إحياء رسالة المسجد. بحوث مؤتمر رسالة المسجد ص ص ٣٠ ـ ٣١ .

المسجد ليعوده من قريب[1] . (الخيمة هي خيمة « رفيدة » الأنصارية رضي الله عنها التي كانت تداوي جرحى المسلمين في المسجد) .

ومن المحتمل أن تكون تلك الخيمة موجودة في المسجد قبل غزوة الأحزاب بفترة .

وبالرغم من أن المسجد مفتوح لكل طالب علم إلَّا أن الكثير من العلماء قد أوصى بعدم دخول الأطفال للمسجد ، ذلك أنهم لا يتحفظون من النجاسة ، ولأن النبي ﷺ قال : « جنّبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وقد اتخذت الدروب وأطراف الأسواق أمكنة لتعليم الأطفال ، وفي بعض الأحيان تبنى أماكن ملصقة بالمسجد تخصص لتعليم الأطفال ، وبالإضافة إلى ذلك فقد نهى رسول الله عن المبايعة أو إنشاد الضالة في المسجد إذ يقول : إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردّ الله عليك[2] .

وإلى جانب ذلك فقد كانت المساجد تستخدم أيضاً مخازن للكتب حيث تخصص فيها أماكن لتخزين الكتب خاصة الديني منها ، وأصبحت تلك الخزائن غنية بهذه الكتب .

هذه الكتب غالباً ما يهبها الناس من العلماء والمثقفين ، ويقفونها على من يحتاجون إليها ، ومن بين الذين وقفوا كتبهم لهذا الغرض

---

(١) صحيح البخاري جـ ١ ص ١١٩ ، نيل الأوطار جـ ٢ ص ١٧١ .
(٢) نيل الأوطار جـ ٢ ص ١٦٦ .

« الخطيب البغدادي » حيث يقال بأنه وقفها على المسلمين وسلمها قبل مماته لأحد أصدقائه ويدعى « أبو الفضل بن خيرون » . ومن بين من وقفوا كتبهم أيضاً على أهل العلم « عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب » .

ومن هذه المنطلقات أصبح المسجد هو المكان الطبيعي والملائم لتلقي العلوم بمختلف أنواعها وهو المعهد الأول لنشر العلم والثقافة ، وموئل التعليم في العالم الإسلامي قاطبة ، وأضحت المساجد في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين مراكز تهذيبية وتعليمية ، كان لها الأثر الكبير في نشر الوعي الديني الصحيح ، وبث روح المعرفة في نفوس المسلمين ، ولقد كان للمسجد في عهد رسول الله وصحابته الأخيار ، ومن سار على نهجهم منذ الصدر الأول مكانة رفيعة ، وأهمية بالغة في إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ، وتعميق مبادىء العقيدة الإسلامية السمحة في نفوس المسلمين ، حيث أن المسجد لا يكون إلاَّ لله سبحانه وتعالى .

ولم يزل مسجد رسول الله ﷺ حتى يومنا هذا تعقد فيه حلقات الدروس صباحاً ومساءً ، ويقوم بالتدريس أساتذة فضلاء ، نذروا أنفسهم لخدمة المسجد ، ولخدمة مجتمعهم ، يحسن أن نشير إلى ما قاله البعض حول هذا الموضوع إذ يقول : « وكانت تنتشر حلقات الدروس بعد صلاة المغرب في جميع أنحاء المسجد ، وكان العلماء والمشائخ يدرِّسون في مختلف العلوم الدينية والآلية ، ومن بين المشائخ الذين كانوا يتولون التدريس بالمسجد الشيخ عبد القادر توفيق الشلبي ، والشيخ إبراهيم بري ، والشيخ محمد الطيب الأنصاري ، والشيخ محمد علي التركي ، والشيخ محمد الخضر ، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، والشيخ أحمد بساطي ، والشيخ حمزة بسطاي ، والشريف محمد العربي ، والشيخ محمد

صقر ، والسيد أحمد الفيضي آبادي ، والشيخ عبد الباقي ، والشيخ محمود شويل ، والخال الشيخ محمد صادق ، والشيخ عبد الوهاب أبو خضر ، والشيخ ماجد بري ، والشيخ عمر بري . وكان المسجد كخلية النحل من المصلين ، ومن طلبة العلم الذين يدرسون بالمسجد النبوي[1] .

هذا هو مسجد رسول الله ﷺ في المدينة الذي قام بالدور القيادي والريادي في مجالات متعددة ، الديني منها ، والعلمي ، والسياسي ، والاجتماعي ، كما أراده له رسول الله منذ أول يوم من بنائه ، واستمر على هذا المنوال حتى يومنا هذا .

رسالة المسجد السياسية

جعل النبي ﷺ من المسجد دار ندوة يجتمع فيها بالمسلمين يشاورهم في أمور دينهم ودنياهم ، ويعرض عليهم كل ما يتصل بأمورهم من سلم أو حرب .

ولعل أبرز مثل على ذلك هو ذلك الحوار الذي جرى بين رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، في مسجده عليه الصلاة والسلام ، وذلك للتشاور حول الطريقة التي يخرج بها المسلمون لملاقاة أعدائهم من قريش ، على أثر هزيمة المشركين في معركة بدر الكبرى ، هل يخرج المسلمون خارج المدينة ؟ أم يدافعون عنها وهم في داخلها ؟ .

وبعد مداولات بين رسول الله وأصحابه ، رغب الغالبية منهم في الخروج خارج المدينة ، وبالذات إلى أُحد ، حيث نزل رسول الله ﷺ على رأي من فاتهم شرف الجهاد في بدر وغالبيتهم من الشباب ، مع أن الرسول

---

(١) حافظ/ عثمان : صور وذكريات عن المدينة المنورة ص ص ٨٧ ـ ٨٨ .

عليه الصلاة والسلام لم يكن يرغب في الخروج باديء الأمر ، وكان يوافقه في هذا الرأي زعيم المنافقين « عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول » .

ولنترك لابن هشام الحديث عن هذا الموضوع إذ يقول :

حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال : إني رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً تذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ، وكان رأي عبد الله بن أبيٍّ بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ ، يرى رأيه في ذلك ، وألا يخرج إليهم ، وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يكره الخروج ، فقال رجال من المسلمين ، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أُحد وغيره ، ممن كان فاته بدر : يا رسول الله ، أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول : يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلَّا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلَّا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا ، فلم يزل الناس برسول الله ﷺ ، الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته ، فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، فخرج عليهم وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله ﷺ ، ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم رسول الله قالوا : يا رسول الله : استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ، فخرج

رسول الله عليه الصلاة والسلام في ألف من أصحابه[1] .

فمن هذا المسجد انطلق المسلمون للجهاد في سبيل الله والذود عن حياض الإسلام ، وذلك عندما أرادت قريش الكيد للمسلمين والانتقام لما حل بهم في بدر ، فكانت معركة أُحد الشهيرة التي وقعت بين المسلمين وبين أعدائهم من مشركي قريش وأتباعهم ، وذلك في سنة ٣هـ . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان رسول الله ﷺ يستقبل في مسجده الوفود من كل مكان ، وكان الوافدون يربطون رواحلهم في فناء المسجد ، ويقابلون النبي ﷺ في سقيفة المسجد ، ولعل هذا هو الباعث الأول للرسول عليه الصلاة والسلام على الأمر ببناء المسجد في المدينة أول ما قدم إليها مهاجراً ، إذ لم يكن القصد منه أن يتخذه المسلمون معبداً تؤدى فيه شعائر العبادة فحسب ، ولكنه كان يهدف إلى معنى روحي واجتماعي وسياسي ، إذ اتخذ منه رسول الله ﷺ ساحة لتجمع الجيوش وتعيين القواد ، وتسليم الألوية ، وخير مثال على ذلك هو حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن الحبشة الذين كانوا يلعبون بالحراب في المسجد ، ورسول الله ﷺ ينظر إليهم ولم ينكر ذلك عليهم .

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت :

« جاء حبش بحرابهم يلعبون في يوم عيد في المسجد ، فدعاني رسول الله ﷺ ، فوضعت رأسي على منكب رسول الله ﷺ فجعلت أنظر إلى لعب هؤلاء الحبش حتى كنت أنا التي انصرف عن النظر إليهم » وقال رسول الله ﷺ للحبش : « دونكم يا بني أرفدة » وذلك تحريضاً لهم على

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٥٨٥ .

القوة والشدة ، لأن تحريضه هذا يحدث لهم من القوة والعزم ما ليس لديهم من قبل[1] .

ولا شك بأن لعب الحبشة بحرابهم كان للتمرين والتدريب على الحرب والتمرس على القتال ، فلو كان فعلهم هذا في المسجد مجرد لعب لنهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك .

ويفهم من هذا الحديث جواز اللعب بالسلاح ونحوه من آلات الحرب في المسجد .

ويقال أيضاً بأن النبي ﷺ أراد من عمله هذا أن يثبت لمناوئي الإسلام من اليهود وغيرهم سماحة الدين الإسلامي ، حيث قال في موضع آخر : « لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة ، وأنني بعثت بالحنيفية السمحة »[2] .

كما كان عليه الصلاة والسلام يحث أصحابه على تعلم الرمي في المسجد وغيره ليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لملاقاة عدوهم ، ولكي يتدربوا على أدوات الحرب .

ولقد كان المسجد في العصور الإسلامية الأولى أشبه بالبرلمان في عصرنا الحديث ، فهذا رسول الله ﷺ يقف خطيباً أمام المسلمين بعد أن تم له فتح مكة المكرمة إذ قام عليه الصلاة والسلام على باب الكعبة فقال :

لا إلّه إلَّا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال فهو موضوع تحت قدميَّ

---

(١) الكتّاني / التراتيب الإدارية جـ ٢ ص ١٤١ .

(٢) مجلة لواء الإسلام/ مقال بعنوان « التدريب العسكري في الإسلام » العدد ٧/ السنة الخامسة/ ربيع أول سنة ١٣٧١هـ/ ديسمبر ١٩٥١م .

هاتين ، إلَّا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

ثم قال : « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم . وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء[1] .

ولو عدنا الى الوراء قليلاً لوجدنا أن التخطيط للحروب كان ينبع من المسجد .

فهذا رسول الله ﷺ نراه قد جمع أصحابه من المهاجرين والأنصار الذين أعدهم للجهاد في سبيل الله ـ في مسجده بالمدينة ـ وقدمهم للخروج لأخذ قافلة قريش التجارية القادمة من الشام التي كان على رأسها أبو سفيان .

وحينما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش لقتال المسلمين جمع أصحابه أيضاً من المهاجرين والأنصار وقال : أشِيروا علي أيها الناس ، فكان رد المهاجرين حسناً ، فردد عليه الصلاة والسلام عبارة : أشيروا علي أيها الناس فقال سعد بن معاذ : لعلك تقصدنا يا رسول الله ، لقد آمنا بك وصدقنا وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله ـ أو لما

---

(١) ابن كثير/ السيرة النبوية جـ٣ ص ٥٧٠ .

أردت ـ فوالله لا نقول لـك كما قـالت اليهود لمـوسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول لك : إذهب أنت وربك فقـاتلا إنـا معكما مقاتلون ، فنحن معك ، فوا الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، ومـا نكره أن نلقى عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقربه عينك ، فسر بنا على بركة الله .

انتصر المسلمون في بدر ، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً من حزب الله ينتصرون على ألف من صناديد قريش وحلفائها .

لقد صدق الله وعده ، ونصر من نصروه ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ وألقى الرعب في قلوب أعدائهم فذهبوا عبرة لغيرهم كل هذا يتم التخطيط والإعـداد له من المسجـد ، ويتحقق عن طريقـه ما أراد رسول الله ﷺ لأمته من العزة والكرامة والسؤدد .

وعندما سمع أهل مكة بموت رسول الله ﷺ همَّ أكثرهم بالرجوع عن الإسلام فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم قائلاً بعد الحمد والثناء على الله ، وذكر وفاة رسول الله : « إن ذلك لم يزد الإسـلام إلَّا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه ، ثم قال : يا أهل مكة ، لا تكونوا آخر من أسلم ، وأول من ارتد ، والله ليتمَّنَّ الله تعالى هذا الأمر كما ذكر رسـول الله ﷺ ، فلقد رأيته قائماً مقامي هذا وهو يقول : قولوا معي : لا إله إلَّا الله ، تدين لكم العرب ، وتؤدي لكم العجم الجزية ، والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله ـ فمن بين مستهزىء ومصفق فكان كما رأيتم ، والله ليكـونن الباقي ، فتراجع الناس عما هموا به[1] .

---

(١) إتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ ١ ص ٥٩٤ .

وبعد رسول الله نرى الخلفاء من بعده يسلكون هذا المنهج إذ يجتمع الخليفة بالمسلمين ليعرض عليهم سياسته وطريقة حكمه وأسلوبه في معاملة الناس ، حتى البيعة كان الخليفة يتقبلها في المسجد ، كل هذا يحدث في المسجد ومن على منبره ، كالذي حدث من خليفة رسول الله « أبي بكر الصدّيق » حينما تولى أمور المسلمين ، إذ ذهب إلى المسجد لأخذ البيعة العامة من الناس ، وهو اليوم التالي للبيعة الخاصة التي تمت في سقيفة بني ساعدة ، وقد رأى أن يوضح للناس سياسته التي عول على اتباعها .

ولما بويع البيعة العامة صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلّا عمّهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[1] .

هذه الخطبة التي ألقاها أبو بكر رضي الله عنه ، بما انطوت عليه من مباديء إسلامية سامية ، وروح شريفة عالية ، لا يزال يرن صداها في أذن التاريخ ، ولا يزال الناس يتدارسونها منذ أربعة عشر قرناً ، ويعجبون بها جيلاً بعد جيل . تلك هي خطبة أبي بكر في مسجد رسول الله ، وهي على اختصارها تعتبر برنامجاً سياسياً دينياً أخلاقياً جامعاً ، فقد انطوت على العديد من المباديء والمثل العليا لعل من أهمها :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ٢١٠ .

١ ـ اعترافه رضي الله عنه بأنه من عامة أفراد الشعب ليست لـه ميزة على أحـد حيث دعا النـاس إلى بذل النصـح لـه وشـد أزره إذا عمـل مـا يـرضيهم ، وإلى انتقـاده وتقـويم اعـوجـاجـه إذا أخـطأ وحـاد عن جـادة الصواب ، ولا يوجد أية مباديء ديمقراطية حديثة قامت على مبدأ أفضل من هذا المبدأ وأسمى منه .

٢ ـ دعوة المسلمين إلى نبذ الكذب حيث وصفه بأنه خيـانة ، وإلى اتخاذ الصـدق شعاراً لهم حيث وصفه بأنه من المبادىء الأخلاقية السامية ، فأثبت رضي الله عنه أنه يُعنىٰ بالأخلاق ، ويدرك منـزلتها بين الأمم ، ومـا تمسك قوم بالصدق إلَّا فازوا .

٣ إعلان مبدأ المساواة المطلقة في حكومتـه الرشيـدة ، فقال : إن الضعيف قوي عنده حتى يأخذ له حقه ، وأن القوي ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه ، ومعنى هذا أنه لا محاباة ولا مراعاة ولا تفاضل إيماناً بمبدأ ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فالمساواة المطلقة هي ، من القواعد الجوهـرية التي جاء بها الدين الحنيف .

٤ ـ دعـوتـه المسلمين إلى مـواصلة الجهـاد في سبيـل الله ، ومعنى الجهاد الشرعي في الإسلام هو الدفاع المشـروع عن النفس والعقيدة ، لا الغزو والسلب والنهب والاستعمار ، كما هو الحال في أيامنا هذه ، فكأن أبا بكر يدعو المسلمين إلـى تعزيز الدفاع الوطني عن العقيدة الإسلامية .

٥ ـ دعوة الناس إلى طاعته ما دام مطيعاً لله ورسوله ، وإلى نبذ طاعته إذا خرج عن هذه الدائرة ، وخالف بتصرفاته ما نص عليه الدستور الإسلامي المتمثل في القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة .

وغني عن البيان أن هذه المباديء التي ضمنها أبو بكر رضي الله عنه خطبته تعد برنامجاً سياسياً من أفضل البرامج السياسيـة الحكوميـة على مر العصور .

ومرة أخرى نرى أبا بكـر يخاطب النـاس من المسجد ، عنـدما أراد إنفاذ جيش أسامـة بن زيد بعـد وفاة رسـول الله ﷺ ، إذ كانت العـرب قد ارتدت وظهر النفاق ، واشرأبت يهود والنصرانية ، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم ، فقال الناس لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه : إن هؤلاء ـ يعنـون جيش أسامـة ـ جند المسلمين والعـرب على مـا تـرى قـد انتقضت بـك ، فـلا ينبغي أن تفـرق جمـاعـة المسلمين عنك ، فقال أبـو بكر : والـذي نفسي بيده لـو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله ﷺ .

ولهذا خاطبهم في المسجد وأمرهم بالتجهز للغزو ، وأن يخرج كـل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجرف(*) فخرجوا كما أمرهم[١] .

ولا شـك بأن إنفـاذ جيش أسامـة كان ذا نفـع للمسلمين لأن العرب قالوا : لو لم يكن بالمسلمين قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، بالرغم من وفاة رسول الله ﷺ ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه[٢] .

ومرة ثالثة نرى أبا بكر رضي الله عنه يقف خطيباً في مسجد رسول الله ﷺ عندما ظهرت بوادر الردة في بعض القبائل ، بعد وفاة رسول الله ﷺ ،

(*) مـوضع على ثـلاثة أميـال من المـدينـة المنـورة نحـو الشـام/ معجم البلدان جـ٣ ص ٨٧ .

(١) الطبري/ تاريخ الرسل والملوك جـ٢ ص ٢٢٣ .

(٢) خطاب/ محمود شيت/ الوسيط في رسالة المسجد العسكرية ص ١٣٧ .

خاصة مانعي الزكاة ، في حين لم يستحسن البعض مقاتلة هؤلاء على اعتبار أنهم يشهدون أن لا إلَه إلَّا الله ، فقام خطيباً وقال عبارته المشهورة: «والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كيف تقاتل قوماً يشهدون أن لا إلَه إلَّا الله؟ وقد قال رسول الله ﷺ : من قال لا إلَه إلَّا الله فقد عصم مني دمه وماله وحسابه على الله تعالى ، فأجاب أبو بكر رضي الله عنه قائلاً : ألم يقل الرسول ﷺ ؟ إلَّا بحقها ، ألا إن الزكاة من حقها .

ولم يزل المسلمون على هذا في حوار حتى قال عمر رضي الله عنه : فما هو إلَّا أن شرح الله صدري لرأي أبي بكر رضي الله عنه . وقد علّق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على ذلك قائلاً : لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن منَّ الله علينا بأبي بكر .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما ولي الخلافة ، إذ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إني قائل كلمات فأمنوا عليهن ، فكان أول كلام قاله حين استخلف إنما مثل العرب مثل جمل أنف(**) اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقود ، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق[1] .

ويشير ابن عبد ربه إلى أن عمر عندما ولي الخلافة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا أيها الناس ، إني داع فأمنوا ، اللهم إني غليظ فليِّني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك ، وأهل الدعارة والنفاق ، من غير

(**) أنِف : أي يأنف من الضرب فهو يعطي ما عنده من السير بدون طلب.

(١) الطبري/ تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص ٤٣٣ ، الكامل في التاريخ جـ ٣ ص ٢٩ .

ظلم مني لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم إني شحيح فسخني في نوائب المعروف ، قصداً من غير سرف ولا تبذير ، ولا رياء ولا سمعة ، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقني خفض الجناح ، ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان ، فألهمني ذكرك على كل حال ، وذكر الموت في كل حين ، اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها ، والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلَّا بعونك وتوفيقك ، اللهم ثبتني باليقين ، والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني ، والمحاسبة لنفسي ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات ، اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني ، من كتابك والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شيء قدير[1] .

وخطب عمر رضي الله عنه الناس يوماً فقال :

« أيها الناس إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه » ، فوثب عمرو بن العاص فقال : « يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته ، فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه ؟» ، قال عمر: أي والذي نفس عمر بيده إذاً لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم[2] .

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ١٣٢ .
(٢) الكامل في التاريخ جـ ٣ ص ٣٠ .

وكذلك حينما عزم على توجيه الجيوش لفتح فارس ، إذ بعد أن استشار أهل الحل والعقد ، دعا المسلمين إلى « الصلاة جامعة » ثم خطب المسلمين قائلاً :

« أما بعد ، فإن الله عزّ وجل قد جمع على الإسلام أهله ، فألف بين القلوب ، وجعلهم فيه إخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد الواحد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ، ورضوا به لزم الناس ، وكانوا فيه تبعاً لهم ، ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ، ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم »[1] .

وقد استشارهم عمر فيمن يتولى قيادة الجيش المتجه لحرب الفرس ، هل يتولى هو قيادة ذلك الجيش ، ويخرج بنفسه على رأسه ؟ أم يولي أحد القادة لقيادة ذلك الجيش ؟

فأشار عليه الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم البقاء في المدينة ليكون مدداً للجيش ، وإرسال الجنود إليه تباعاً كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، فاتفق رأي الجميع بأن يتولى قيادة الجيش الزاحف على بلاد فارس « سعد بن أبي وقاص » القائد المشهور رضي الله عنه ، فوافقهم عمر رضي الله عنه على ذلك ، وقبل مشورتهم ، وولى سعداً القيادة العامة للجيش الإسلامي المتجه لحرب الفرس .

وفي المسجد أيضاً كان عبادة بن الصامت رضي الله عنه ـ وهو موفد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ٤٨١ .

إلى الشام ـ يصدع بآرائه في سياسة الدولة التي ينتهجها البعض من عمالها في بعض الأمصار ، إذ كلم الوالي في أمور انتقدها لكن الوالي لم يعره في باديء الأمر أي اهتمام ، وعندما لقي عبادة من الوالي ما يكره غضب وقال له : « لا أساكنك أرضاً » ثم عاد إلى المدينة .

فهل رضي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذا التصرف ؟ بالطبع لا ، ولكنه أراد أن يكوِّن رجالاً على غرار عبادة في علمه وصدقه وغيرته على دينه ، صادعاً بالحق من منبر المسجد في الشام حتى يقوم المسجد بدوره ، ويتم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يصبوان إليه ، فطلب الخليفة عمر من عبادة أن يعود إلى الشام ، وكتب إلى معاوية يقول له : يجب أن يستمر في انتقاداته البناءة وصدعه بالحق ، ولا خير في أرض ليس فيها مثله ، وليس لك على عبادة من سبيل .

أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنه لما آلت إليه الخلافة ، وبايعه أهل الشورى خرج حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، وخطب الناس خطبة قال فيها بعد الحمد والثناء على الله ، والصلاة والسلام على رسول الله : « إنكم في دار قلعة ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ، صبحتم أو مُسِّيتم ، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ، ومتعوا بها طويلاً ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، وللذي هو خير ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان

الله على كل شيء مقتدراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾(*)(١) .

ويستشف من هذه الخطبة بأنها لا توضح السياسة التي عول عثمان رضي الله عنه على انتهاجها في إدارة شؤون دولته ، وإنما هي عبارة عن نصائح تتعلق بالدين وتذكّر المسلمين باليوم الآخر ، لا علاقة لها بالسياسة ، وكأن عثمان رضي الله عنه لا يريد إلزام نفسه بسياسة خاصة يطمئن إليها المسلمون من رعايا الدولة الإسلامية في عهده ، وقد يعود ذلك إلى شيخوخته وزهده ، وما فطر عليه رضي الله عنه من اللِّين والتعلق بالآخرة ليس إلَّا .

وبعد وفاة عثمان رضي الله عنه اجتمع المهاجرون والأنصار في مسجد رسول الله ﷺ لينظروا فيمن يولونه أمر المسلمين ، حتى غص المسجد بأهله فاتفق الرأي على ترشيح علي بن أبي طالب رضي الله عنه لإمارة المؤمنين لشروط تتوفر فيه دون غيره ، إذ هو أول من آمن برسول الله ﷺ من الصبيان ، وهو ابن عم رسول الله ، وزوج ابنته فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد أعضاء الشورى الذين حصر عمر رضي الله عنه الخلافة في واحد منهم يختارونه فيما بينهم ، يقول البعض : فذهب إليه البعض وهو في داره واستخرجوه منها ، وسألوه بسط يده للبيعة فرفض فتداكوا عليه تداك الإبل الهيم على وردها فلما رأى منهم ذلك سألهم أن تكون بيعته في المسجد ظاهرة للناس وقال : إن كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر ، فنهض الناس معه حتى دخل

(*) سورة الكهف الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .

(١) الطبري / تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ٢٤٣ .

المسجد ، فكان من أول المبايعين له الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله[1] ، ثم بايعه بقية المسلمين بالمدينة .

وبعد أن تمت له البيعة من الناس وقف خطيباً في مسجد رسول الله ﷺ فقال بعد الحمد والثناء على الله سبحانه :

إن الله عزّ وجلّ أنزل كتاباً هادياً بَيَّن فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر ، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة ، إن الله حرم حرماً غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلَّا بالحق ، لا يحل أذى المسلم إلَّا بما يجب ، بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم ، وأن ما من خلفكم الساعة تحدوكم ، تخففواْ تلحقوا ، فإنما ينتظر الناس أخراهم ، اتقوا الله عبْاده في عباده وبلاده ، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم ، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض[2] .

من خطبة علي رضي الله عنه يتبين لنا أنها احتوت على أمور دينية فقط ، دون أن نستشف منها ما يحدد سياسته التي عول عليها ، وأراد السير على نهجها ، خلافاً لما فعل الخليفة الراشد الأول أبو بكر ، أو لما فعل الخليفة الثاني عمر ، رضي الله عن صحابة رسول الله أجمعين .

وهذا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لما قدم المدينة عام

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة جـ ٤ ص ٨ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ٤٣٦ .

الجماعة ، إذ تلقاه رجال من قريش فقالوا له : الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فلم يرد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد : فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولاية ، ولكني جالدتكم بالسيف مجالدة ، ولقد رُضْتُ لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها مثل ثنيات عثمان فأبت علي ، فسلكت بي طريقاً لي ولكم فيه منفعة ، مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإني خير لكم ولاية ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلَّا ما يستشفي به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دَبْر أذني ، وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا زاد عنَّىٰ ، وإذا أقل أغنى ، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة[١] .

وصعد منبر المسجد النبوي مرة أخرى ثم قال بعد الحمد والثناء على الله :

يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق ، يعيبون الشيء وهم فيه ، كل امريء منهم شيعة نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق ، وفي كل بلاغ ، ولا مقام على الرزية[٢] .

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ١٤٧ .
(٢) العقد الفريد جـ ٤ ص ١٤٨ .

هاتان الخطبتان توضحان الاسلوب الذي أراد معاوية رضي الله عنه أن يسلك به أهل المدينة والسياسة التي سيسير عليها تجاههم .

وهكذا فمن على منبر رسول الله ﷺ نرى بأن الخليفة يقف خطيباً أمام الناس جميعاً مبيناً السياسة التي عول على انتهاجها أثناء حكمه للمسلمين .

وعلى هذا الأساس لم يقتصر دور المسجد على الناحية الدينية فقط بل تعداها إلى نواح متعددة سياسية واجتماعية وثقافية ، وأصبح المسجد مثلاً يحتذى في سائر الأمصار الإسلامية ، حيث نجد أن الخلفاء والولاة والقادة يحددون سياساتهم التي سينتهجونها تجاه رعاياهم من على منابر المساجد ، وفيها يتلقون البيعة من الناس عندما يتولى أمور المسلمين خليفة .

كما أستخدمت المساجد ومنابرها أيضاً مجالاً لاشعال الثورة والغضب في نفوس الأهالي كما حصل بالنسبة للثوار في بعض الأقطار الإسلامية ضد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والأمثلة على هذا كثيرة .

وقد قتل من الخلفاء الراشدين في المسجد إثنان ، أحدهما : عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والآخر : علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وإن كان البعض من المؤرخين يشير إلى أن علي بن أبي طالب لم يقتل في المسجد ، وإنما قتل وهو ذاهب لأداء صلاة الصبح في المسجد ، كما نجا من الموت في المسجد كل من معاوية بن أبي سفيان في دمشق ، وعمرو بن العاص في مصر ، على أثر تآمر ثلاثة من الخوارج على قتل ثلاثة من زعماء المسلمين وهم :

علي بن أبي طالب : وقد تمكّن عبد الرحمن بن ملجم من القضاء عليه .

معاوية بن أبي سفيان : وقد فشل في قتله البرك بن عبد الله التميمي .

عمرو بن العاص: وقد فشل في القضاء عليه عمرو بن بكر .

هذا ولم تقتصر رسالة المسجد السياسية على المسجد النبوي الشريف في المدينة فحسب ، بل إن هناك العديد من المساجد في الأمصار الإسلامية كان لها دور فعال في هذا المجال ، لعل من أبرزها ، جامع البصرة والكوفة في العراق ، والفسطاط والأزهر في مصر ، والقيروان والزيتونة في تونس ، والقيروانيين في المغرب ، الأموي في دمشق ، وقد أشرت إلى نماذج مما قامت به تلك المساجد في هذا السبيل أدرجتها في مواضعها من هذا البحث أثناء الحديث عن كل مسجد من هذه المساجد على حدة ، ولا داعي للحديث عنها أو تكرارها .

الفصل الثالث

المسجد الحرام
مسجد قباء ـ مسجد الضرار

المسجد الحــرام(*)

يحتل المسجد الحرام مكانة سامية في نفوس المسلمين قاطبة ، لأنه أول بيت وضع للناس ، ولأنـه قبلة المسلمين بعـدما أُمِـر رسـول الله ﷺ بالاتجاه في الصلاة إلى الكعبة بدلاً من الاتجاه إلى بيت المقدس ، يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾(1) .

كما يمتاز هذا المسجد بوجود الكعبة المشرفة إذ يحج المسلمون إلى هـذا البيت من شتى أقطار الأرض ، منـذ أن بنى إبراهيم وابنـه اسماعيـل عليهما السلام الكعبة ، إذا يقول جل شأنه : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القـواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم ﴾(2) .

ويقول سبحانه : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للنـاس وأمناً واتخـذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾(3) .

(*) أنظر ملحق الصور من رقم ١٠ ـ ١٣ في نهاية الكتاب .

(1) سورة البقرة آية ١٤٤ .

(2) سورة البقرة آية ١٢٧ .

(3) سورة البقرة آية ١٢٥ .

ويقول جلّ من قائل : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾(١) .

ويقول العمري عن المسجد الحرام : « البيت الحرام ، أول بيت وضع للناس ، ورفع على قديم الأساس ، بني مثالاً للبيت المعمور ، ودعي إليه كل مأمور ، وأذن إبراهيم صلوات الله عليه إليه بالحج ، ودعا الناس إليه فأتوه من كل فج ، ولم تزل شعائره مكرمة ، ومشاعره محرمة ، عظيم في الجاهلية والإسلام ، وحرم من حيث بنيت الأعلام ، وهو البيت المحجوج المحجوب ، والمقصود بالزيارة قصد الوجوب ، وبه الحجر الأسود الذي هو يمين الله في أرضه ، والشاهد لمن حج وقبّله بأداء فرضه ، سماء الدعاء ، وحرم تحريم الدماء ، يأمن به الحمام ساكناً ، ومن دخله كان آمناً » .

ويقول أيضاً : « وقد كان المسجد الحرام ـ أي المحيط بالكعبة ـ فناءً لها وفضاءً للطائفين ، ولم يكن له على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر جدار يحيط به ، فضيق الناس على الكعبة ، وألصقوا دورهم بها ، وكانت الدور محدقة بالكعبة ، وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية .

فلما استخلف عمر ، وكثر الناس قال : لا بد لبيت الله من فناء ، وإنكم دخلتم عليه ، ولم يدخل عليكم ، فوسع المسجد ، واشترى تلك الدور وهدمها ، وزادها في المسجد ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة .

---

(١) سورة الحج الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

وكان عمر أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام[1](*) .

وقد زاد على ذلك الأزرقي إذ يقول : كان المسجد الحرام ليس عليه جدران محاطة ، إنما كانت الدور محدقة بـه من كل جـانب ، غير أن بين الدور أبواباً يدخل منها الناس من كل نواحيه ، فضاق على الناس ، فاشترى عمر رضي الله عنه دوراً فهدمها ، وهدم على من قرب من المسجـد وأبى بعضهم أن يـأخذ الثمن ، وتمنـع من البيع ، فـوضعت أثمانهـا في خزانـة الكعبـة ، حتى أخذوهـا بعد ، ثم أحـاط عليه جـداراً قصيراً ، وقـال لهم عمر : إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها ولم تنزل الكعبة عليكم ، ثم كثر الناس في زمن عثمان فوسع المسجـد واشترى من قـوم ، وأبى آخرون أن يبيعوا ، فهدم عليهم ، فصيحوا به فدعاهم فقال : إنما جرأكم علي حلمي عنكم ، فقد فعل بكم عمر هذا ، فلم يصح به أحد ، فاحتذيت على مثاله فصيحتم بي ، ثم أمر بهم إلى الحبس حتى كلم فيهم فتركهم .

كما زاد في المسجد عبد الله بن الزبيـر إذ اشترى دوراً وأدخلهـا في المسجد[2] .

كما عمر المسجد كل من عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وبقي المسجد الحرام على حاله إلى أن تولى أبو جعفر المنصور الخلافة فزاد فيه من الشمال إذ اشترى من الناس دورهم اللاصقة بالمسجد .

كما زاد فيه المهدي العباسي عندما حج في سنة ١٦٠ هـ إذ أمر أن يزاد

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ ١ ص ص ٩٢ ، ٩٥ .

(*) عن الزيادات التي مر بها المسجد الحرام أنظر الملحق الثالث في آخر الكتاب ص ٣٤٣ وما بعدها .

(٢) الأزرقي / أخبار مكة وما جاء فيها من الآثـار جـ ٢ ص ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ .

في أعلاه ويشتري ما كان في ذلك الموضع من الدور . ولما جح في سنة ١٦٤هـ ورأى الكعبة في شق من المسجد الحرام كره ذلك ، وأحب أن تكون متوسطة في المسجد فأحضر المهندسين واستشارهم في ذلك ، وبالرغم من حذر المهندسين من تحويل الوادي عن مساره الطبيعي إلَّا أن المهدي صمم على التوسعة ، وتمكن بالفعل من توسعة المسجد الحرام مرة أخرى ، فاشترى الدور المجاورة للمسجد وأدخلها فيه[١] .

وقد بقي المسجد الحرام على حاله منذ عهد المهدي إلى أن زاد فيه الخليفة المعتضد العباسي ، كما هدمت دار الندوة في عهده أيضاً وجعلت مسجداً مجاوراً للمسجد الحرام إلى أن أدمجت فيما بعد بالمسجد الحرام .

كما أن الخليفة العباسي المقتدر قد زاد في المسجد الحرام الزيادة التي تسمى « زيادة باب إبراهيم »[٢] وبعد زيادة المقتدر لم تحصل في المسجد الحرام أية زيادة حتى العهد السعودي اللهم إلَّا العمارة والتجديد التي تعرض لها المسجد الحرام التي قام بها خلفاء العباسيين وسلاطين المماليك والعثمانيين في فترات متعاقبة[٣] .

يعتبر المسجد الحرام من أكبر دور العلم التي يتلقى فيها العديد من الناس ـ على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ـ مختلف العلوم ، خاصة الديني منها ، ذلك أن المسجد الحرام لا يخلو من الرواد على مدار العام ، حيث

---

(١) نفس المصدر والجزء ص ص ٧٤ ، ٧٩ .
(٢) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ص ٦٠ ، ٦٣ .
(٣) عن التوسعة السعودية للمسجد الحرام انظر الملحق رقم ٣ من ص ٣٤٨ وما بعدها .

الكعبة المشرفة قبلة المسلمين ، كما يحج إلى هذا البيت في كل عام عدد كبير من الناس ليؤدوا فريضة كتبت عليهم ، وليمتثلوا قول الله تعالى لنبيه إبراهيم : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ ولهذا كان له دور قيادي بارز في نشر العلم والمعرفة نظراً لكثرة طلاب العلم الوافدين إليه من مختلف الأمصار الإسلامية أولاً ، ولرغبة العديد من العلماء في القيام بالتدريس في هذا المسجد ، ونشر علومهم فيه ثانياً ، إذ يضم هذا المسجد أجناساً مختلفة من البشر .

ولقد استمر هذا المسجد في أداء رسالته العلمية على هذا المنوال على خير وجه حتى يومنا هذا .

لم يكن للمسجد الحرام في حياة رسول الله ﷺ تلك المكانة المرموقة التي حظى فيها مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة ، ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى أن الدولة الإسلامية في نشأتها الأولى قد اتخذت من المدينة المنورة مستقراً لها ومقاماً بعد هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليها ، وذلك بعد أن أكره القرشيون على مغادرة مكة على أثر الاضطهاد الذي تعرض له عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه الذين آمنوا معه على أيدي كفار قريش وجبابرتها مما دفع برسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الهجرة إلى المدينة بعد أن أمره الله بذلك .

كما أن مكة لم يدخل أهلها في الإسلام إلاَّ في السنة الثامنة من الهجرة النبوية بعد أن فتحها النبي عليه الصلاة والسلام عنوة .

ولهذا لم يقم المسجد الحرام بدور بارز في رسالته العلمية كما قام بها المسجد النبوي في المدينة، وهذا لا يعني أن مكة لم يكن لها دور في

مجال التعليم ، إذ كانت الكعبة على مر العصور مركز إشعاع ، حتى عندما جثمت الوثنية حولها ، حيث كان الفكر يتوقد في أذهان الحنفاء الذين رفضوا الوثنية وانتبذوها ، واتجهوا بفكرهم يتأملون في ملكوت السموات والأرض ، ويذكِّرون قومهم بهذا .

كما نستبعد أن لا يفكر رسول الله ﷺ في تعليم المسلمين في البيت الحرام قبل هجرته ، ولكن موقف قريش من رسول الله معروف ومذكور ، ومع هذا فلقد مارس رسول الله تعليم المسلمين أمور دينهم في بيته في مكة ، وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم ، قبل أن يكون للمسلمين مسجد ، ذلك أن البيت الحرام قد حظر فيه الكفار على المسلمين أن يمارسوا فيه عبادتهم في الفترة التي قضاها رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم ، فلقد كان المشركون يتعرضون لرسول الله وأصحابه بالأذى حتى وهم يؤدون عباداتهم في البيت الحرام ، والشواهد على هذا في كتب السيرة والتاريخ كثيرة أكثر من أن تحصر . بل لقد كان الكفار من قريش يحولون بين رسول الله ﷺ ، وبين من لديهم الرغبة في لقاء رسول الله ، أو الاستماع إليه ، وبهذا لم يتمكن الرسول من أن يعلم المسلمين أمور دينهم في البيت الحرام .

ولكن بعد أن تمكن رسول الله ﷺ من فتح مكة خلف فيها معاذ بن جبل عندما توجه إلى حنين ، وذلك لكي يفقه أهلها ، ويعلمهم الحلال والحرام ، ويقرئهم القرآن . وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علماً وحلماً وسخاءً وأدباً ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أقرئهم للقرآن ، وممن جمع القرآن ، لا نستغرب هذا إذا كان رسول الله ﷺ يقول عنه : خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وأبيٍّ ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي

حذيفة[1] ويقول عنه أيضاً : معاذ بن جبل أعلم الناس بحرام الله وحلاله[2] .

ويروى عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدها في دين الله عمر ، وأصدقها حياءً عثمان ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرأهم أبي بن كعب ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح[3] وزاد على ذلك ، وأقضاهم علي ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

كما برع معاذ في القضاء ، ومما يدل على براعته أنه حينما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قال له : بم تقض يا معاذ إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال رسول الله : فإن لم يكن في كتاب الله ، قال : أقضي بما قضى به رسول الله ، قال رسول الله : فإن لم يكن فيما قضى به الرسول : قال : قلت : اجتهد رأيي ولا آلو ، فضرب رسول الله ﷺ على صدر معاذ وقال :

الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله[4] .

نعم لقد وفق رسول الله ﷺ في اختيار معاذ لتلك المهمة الصعبة وهي تعليم الناس في مكة وتفقيههم أمور دينهم .

ولقد روىٰ عن معاذ عدد من الصحابة رضوان الله عليهم كان من

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٣٤٥ .
(٢) نفس المصدر والجزء ص ٣٤٦ .
(٣) سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٤٤٦ .
(٤) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ، سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٤٤٨ .

بينهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ولعل أكبر حدث علمي مر به المسجد الحرام هو تلك الحلقة التي كونها عبد الله بن عباس في المسجد الحرام حيث يعود إليه الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهر علمية ، إذ كان يقوم بتفسير القرآن الكريم ، ويرشد الناس إلى مكارم الأخلاق ، ويفقههم في أمور دينهم ودنياهم .

روي عن رسول الله ﷺ فيما قاله عن ابن عباس : « هو حبر الأمة وترجمان القرآن » ، وقال عنه أيضاً : « اللهم فقّهه في الدين ، وعلّمه التأويل » ، وهكذا كان رضي الله عنه .

لقد اتسعت تلك الحلقة التي كان يعقدها في المسجد الحرام ، وأخذ الناس يتوافدون إلى هذا المسجد من داخل مكة وخارجها ، وأخذت حلقات التدريس بالإتساع خصوصاً في أيام الحج ، أو عندما يهبط مكة أحد من أصحاب رسول الله ﷺ المشهورين بعلمهم الغزير الذي أخذوه عن رسول الله ﷺ في مسجده في المدينة المنورة .

وقد انتجت مدرسة ابن عباس فيما أنتجت ، مجاهد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاووس بن كيسان ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وظلت هذه المدرسة تؤدي وظيفتها بأحسن ما تؤديه المدارس الأخرى في ذلك العهد ـ إذا جاز لنا تسميتها بهذا الاسم ـ إذ تخرج طبقة بعد أخرى ، فذاع صيتها، واشتهر أمرها ، ووفد عليها الكثير من طلّاب العلم ، وعشّاق المعرفة ، وعن تلك المدرسة أخذ الإمام الشافعي ـ صاحب المذهب المعروف ـ الذي ملأ علمه الآفاق ، وكان الشافعي واحداً من تلاميذ سفيان بن عيينة أحد علماء مدرسة مكة المشهورين .

ويقال بأن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج كان عَلماً من أعـلام مدرسة مكة ، وأنه أوّل من ألّف في الحديث الشريف ، وقد تلقّى العلم عنه جمهـور من الفقهاء ، أمثـال : الأوزاعي ، وسفيان الثـوري ، وسفيـان بن عيينة .

وقد قال الشافعي رحمه الله عن ابن عيينـة : لولا مـالك وابن عيينـة لذهب علم الحجاز ، وكان يقصد بذلك الإمام مالك بن أنس في المدينـة المنورة ، وسفيان بن عيينة في مكة المكرّمة .

وقد استمرت في المسجد الحرام حلقات العلم تعقد منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا حيث يحفل المسجـد بالعـديد من الحلقـات التي تتميز في غالبيتها في الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها العديد من الناس ، والخاصة بالفتيا ، حيث يجلس العديد من رجال العلم في المسجد للإجابة على تلك التساؤلات الخاصة بالأمور الدينية والاجتماعية .

وتزداد هذه الحلقـات كثرة في مـوسم الحج ، وفي رمضـان المبارك حيث يكثر زوار بيت الله الحرام في هذه المواسم .

ولم يقتصر دور المسجد الحرام على أداء الشعائر الدينية أو الحج أو تعليم الناس ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم ، بل نرى بأن هذا المسجد قد قام بأدوار سياسية في فترات متعاقبة يحسن أن أشير إلى البعض منها :

فعندما فتحت مكة في السنة الثامنة للهجرة النبوية على يد رسول الله ﷺ ، قام عليه الصلاة والسلام خطيباً على باب الكعبة فقال :

لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحـزاب وحده ، ألا كـل مأثـرة أو دم أو مال فهـو موضـوع تحت قـدميّ

هاتين ، إلَّا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[١] ثم قال :

يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : إذهبوا فأنتم الطلقاء[٢] .

وبعد أن تمّ فتح مكة قام رسول الله ﷺ في أهلها خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا البلد حرام حرمه الله يوم خلق السموات والأرض إلى يوم القيامة ما أحل لأحد فيه القتل غيري ، ولا يحل لأحد بعدي فيه حتى تقوم الساعة ، وما أحل لي فيه إلَّا ساعة من نهار ، لا يعضد شوكه ، ولا يختلىٰ خلاه ، ولا ينفر صيده ، ولا تلتقط لقطته ، فقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : إلَّا الإذخر يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : إلَّا الإذخر[٣] .

وليس أدل على مدى حرمة هذا المسجد ومكانته في النفوس من أن يكون أول المساجد التي لا تشد الرحال إلَّا إليها ، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٢) ابن كثير/ السيرة النبوية جـ٣ ص ٥٧٠ .
(٣) الفتح الرباني جـ٢٣ ص ٢٤٢ .

لا تشد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ـ يقصد المسجد النبوي ـ ، والمسجد الأقصى .

وقال عليه الصلاة والسلام عن مكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت »[1] .

وهذا عبد الملك بن مروان يقف خطيباً في المسجد الحرام موضحاً لأهل مكة السياسة التي سينتهجها ، ومبيناً لهم بأنه الرجل القوي إذ يقول في تلك الخطبة :

إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان بن عفان ـ ، ولا بالخليفة المداهن ـ يعني معاوية بن أبي سفيان ـ ، ولا بالخليفة المأفون ـ يعني يزيد بن معاوية ـ .

ويقول أبو إسحاق النظام متهكماً من هذا الكلام الذي قاله عبد الملك في خطبته : أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف ، وسببك من هذا المداهن ، لكنت منها أبعد من العيُّوق ، والله ما أخذتها بوراثة ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوصية[2] .

وفي عهد الدولة العباسية نرى أبا جعفر المنصور عندما قدم مكة يقف هو الآخر خطيباً في المسجد الحرام قائلاً :

« أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحني فتحني ، لإعطائكم

---

(١) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني جـ ٢٣ ص ٢٨٢ .
(٢) العقد الفريد جـ ٤ ص ١٥٤ .

وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني ، فارغبوا إلى الله ، وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به في كتابه ، إذ يقول سبحانه :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

أن يوفقني للرشاد والصواب ، وأن يلهمني الرأفة لكم ، والإحسان إليكم ، أقول قولي هذا ، واستغفر الله لي ولكم[1] .

ولما استتم الأمر لبني العباس خطب داود بن علي بمكة قائلاً بعد الحمد والثناء على الله :

والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لنبتني فيكم قصراً ، أظن عدو الله أن لن يظفر به ، إذ مد له في عنانه ، حتى عثر في فضل زمامه ، فالآن عاد الأمر في نصابه ، وطلعت الشمس من مشرقها ، والآن تولىٰ القوس باريها ، وعادت النبل إلى النزعة ، ورجع الأمر إلى مستقره ، في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة ، فاتقوا الله واسمعوا واطيعوا ، ولا تجعلوا النعم التي أنعم الله عليكم سبباً إلى أن تتيح هلكتكم، وتزيل النعم عنكم[2] .

هذه نبذة قصيرة أوردتها عن الدور الذي قام به المسجد الحرام في كل من الجانبين العلمي والسياسي وما كان لهذا المسجد المبارك من قدسية في نفوس المسلمين قاطبة في مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ١٦٢ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ١٦٣ .

مسجـــد قبـــاء(*)

في سنة ٦٢٢م هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى يثرب ، حينما اشتد إيذاء قريش لـه ، يصحبه في ذلـك أول من آمن به من الـرجال « أبـو بكر الصدّيق » عبد لله بن أبي قحافة ، حيث وصـل إلى قباء ، في الثـاني عشر من ربيع الأول ، كما يشير إلى ذلك العديد من المؤرخين ، وهنـاك أسس أول مسجد بني في الإسلام ، بل أول مسجد أسس على التقوى(*) .

وقد نزل رسول الله ﷺ أول ما نـزل على « كلثوم بن هـدم أخي بني عمرو بن عوف » ويقال : بل نزل على « سعد بن خيثمة » حيث أقام بقبـاء أربعـة أيام هي : الاثنين ، والثـلاثاء والأربعـاء والخميس ، وهنـاك اسس مسجده . يقول البعض :

عندما أسس رسول الله ﷺ مسجد قباء كان هو أول من وضع حجراً في قبلته ، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه ، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى جنب حجر أبي بكر ، ثم أخذ الناس بالبنيان(١) .

وقد اختلفت الآراء حيال المسجد الذي أسس على التقوى ، هل هو مسجد قباء ؟ أم هو مسجد رسول الله في المدينة ؟ .

يقـول ابن سعـد : إن أول مسجـد أسس على التقـوى هـو مسجـد قباء(٢) .

(*) عن هذا المسجد : انظر : ملحق الصور رقم ١٤، ١٥ في آخر الكتاب.
(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ ١ ص ١٢٧ .
(٢) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٤٤ .

ويؤيده في هذا السهيلي إذ يقول: بأن مسجد قباء هو المسجد الذي ورد ذكره في القرآن الكريم بأنه المسجد الذي أسس على التقوى ، لأنْ تأسيسه كان في أول يوم من حلول رسول الله دار معجزته ، والبلد الذي هو مهاجره[1] .

كما أن كلاً من ابن الجوزي[2] وياقوت الحموي[3] قد أكدا على أن مسجد قباء هو المسجد الذي أسس على التقوى .

ولعل الطبري في تفسيره قد أوضح هذه النقطة إذ يقول :

حدثني المثنى ، حدثنا أبو صالح ، حدثني معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم « يعني مسجد قباء » ، كما أن عروة بن الزبير قال: الذين بني فيهم المسجد الذي أسس على التقوى : بنو عمرو بن عوف[4] والمعروف أن بني عمرو بن عوف يسكون قباء في ذلك الوقت .

ولعل مما يؤيد ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ قال رسول الله ﷺ لأهل قباء : إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور فما تصنعون ؟ قالوا : إنا نغسل عنا أثر الغائط والبول .

ويضيف الطبري قائلاً : لما قدم النبي عليه الصلاة والسلام على أهل قباء قال : إن الله قد أثنى عليكم بالطهور خيراً ، يعني قوله : ﴿ فيه رجال

---

(١) الروض الأنف جـ ٤ ص ٢٥٤ .
(٢) الوفا بأحوال المصطفى ص ٢٥٤ .
(٣) معجم البلدان جـ ٨ ص ٥٠ .
(٤) تفسير الطبري جـ ١٤ ص ص ٤٧٨ ـ ٤٧٩ .

يحبون أن يتطهروا ﴾ قالوا : إنا نجده مكتوباً عندنا في التوراة ، الاستنجاء بالماء[1] .

أما من قال بأن المسجد الذي أسس على التقوى إنما هو مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام في المدينة ، فمنهم البلاذري الذي أشار إلى هذا قائلاً :

اختلف رجلان في عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد الرسول ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه ، فقال : هو مسجدي هذا[2] .

وقال الطبري : إن رجلاً من بني خدرة ورجلاً من بني عمرو بن عوف امتريا في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال الخدري : هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال العوفي : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله ﷺ وسألاه ، فقال : هو مسجدي هذا ، وفي كل خير[3] .

غير أنني أميل إلى الآراء التي قالت بأن المسجد الذي أسس على التقوى إنما هو مسجد قباء .

وقد وردت في هذا المسجد آيات قرآنية ، خاصة تلك الآيات التي فضحت المنافقين عندما اتخذوا مسجد الضرار ، وأقاموه محاولة منهم لتفريق كلمة المسلمين ، وإضراراً بهم ، ومضاهاة لمسجد قباء الذي أسس على التقوى .

يقول الله تبارك وتعالى لرسوله : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً

---

(١) نفس المصدر والجزء ص ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ .

(٢) فتوح البلدان ص ١١ .

(٣) تفسير الطبري جـ ١٤ ص ص ٤٨١ ـ ٤٨٢ .

وكفـراً وتفريقـاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حـارب الله ورسولـه من قبـل ، وليحلفن إن أردنا إلّا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيـه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المـطهرين ، أفمن أسس بنيـانه على تقـوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[١] فالمسجد الذي أسس على التقـوى هو مسجد قباء كما يقول الطبري في تفسيره[٢] وكما يقـول أيضاً ابن كثيـر في تفسيره[٣] .

أما الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدثت عن هذا الموضوع فمنها :

ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً . وكان ابن عمر يفعله .

وقال عليه الصلاة والسلام : من توضأ فأسبغ الوضوء ثم جاء مسجد قباء ، فصلى فيه ، كان له أجر عمرة[٤] . وقال أيضاً : « صلاة في مسجد قباء كعمرة »[٥] .

وكان عمر بن الخـطاب رضي الله عنه يـأتي مسجد قبـاء يوم الاثنين والخميس ، فجاء يوماً من تلك الأيام فلم يجد فيه أحداً من أهله ، فقال : والذي نفسي بيده لقد رأيت رسول الله وأبا بكر في أصحابه ينقلون حجارته على بطونهم ، يؤسسه الرسول بيده ، وجبريل عليه السلام يؤم به البيت ،

---

(١) سورة التوبة الآيات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) تفسير الطبري جـ ١٤ ص ٤٨٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٣٨٩ .

(٤) ابن سعد/ الطبقات جـ ١ ص ٢٤٤ ، مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٢٩ .

(٥) ابن كثير/ تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٣٨٩ .

وحلف عمر بالله لو كان مسجدنا هذا بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل[1] .

ويقع هذا المسجد في قرية قباء بين الحدائق والنخيل في الجهة الجنوبية للمدينة المنورة ، وقد اتصلت حالياً بالمدينة، وصار لا يفصلها عن المدينة شيء . ويشير البعض إلى أن الأشرف « قايتباي » السلطان المملوكي قد أرسل منبراً رخاماً أبيض للمسجد النبوي في سنة ٨٨٨هـ ، ومكث فيه مدة حتى أرسل السلطان العثماني « سليمان القانوني » المنبر الموجود حالياً في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة ، حيث نقل منبر قايتباي من المسجد النبوي إلى مسجد قباء ، وقد بقي فيه إلى أن جدد ووسع مسجد قباء في الآونة الأخيرة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حيث كانت مساحته السابقة لا تتجاوز «١٢٢٥ متراً مربعاً» .

أما التوسعة الحالية فتقدر بحوالي « ١٣٥٠٠ متر مربع » وتتسع لأكثر من « ١١٨٥٠ » من المصلين .

وتوجد بالمسجد أربع مآذن في الأركان الأربعة من المسجد .

أما الأبواب فهي كثيرة ، ففي الجهة الجنوبية ،«القبلة» يوجد بابان أحدهما على يمين المحراب والثاني على يساره . أما الجهة الغربية ففيها سبعة أبواب بابان منها كبيران . وهما الثاني والسابع بدء من الجنوب إلى الشمال .

وفي الشمال ثلاثة أبواب الأوسط منها هو الباب الرئيسي للمسجد مقابل المحراب .

---

(١) العباسي / عمدة الأخبار في مدينة المختار ص ١٣٤ .

أما الباب الذي يقع في الركن الشرقي فيؤدي إلى القبو كما يؤدي في نفس الوقت إلى الدور الثاني الذي خصص للنساء . كما يؤدي في الدور الأرضي إلى مصلى للنساء على يمين الداخل .

أما الباب الواقع في الركن الشمالي الغربي فهو الآخر يؤدي إلى الدور الثاني الخاص بالنساء ، كما يؤدي أيضاً إلى القبو الأسفل ، وفي نفس الوقت يؤدي إلى مكان خاص بالنساء على يسار الداخل .

ويتصل المدخلان المؤديان إلى الدور الثاني مع بعضهما البعض .

أما الشرق فيوجد فيه أيضاً سبعة أبواب اثنان منهما كبيران وهما موازيان للبابين الكبيرين الواقعين في الجهة الغربية من المسجد .

كما أن هناك العديد من دورات المياه في الجهة الشرقية من المسجد تتصل بالمسجد عن طريق درج تؤدي إليها خاصة بالنسبة للدور الثاني الخاص بالنساء . أما من خارج المسجد فالطريق إليها مفتوح .

كما توجد مساكن لكل من الإمام والمؤذن .

وقد جرت عادة القادمين إلى المدينة المنورة وهم في طريق حجهم إلى بيت الله الحرام ، أو ممن يزورون مسجد رسول الله في المدينة أن يزوروا مسجد قباء ، ويصلوا فيه اقتداءً برسول الله ﷺ ، الذي كان يزوره كل يوم سبت . إذ يقول البعض :

وزيارة مسجد قباء تثير في النفس ذكريات الهجرة النبوية المباركة ، وذكريات كفاح النبي ﷺ ، وصحابته الكرام في سبيل الله ، وذكريات جهاد الأنصار ، وصمودهم إلى جانب رسول الله ، وتضحياتهم في سبيل الله ، حتى انتصر الحق على الباطل ، والتوحيد على الشرك ، والهدي على

الضلال ، والإسلام على الكفر ، والسلام على الحرب ، حتى تغلغل دين الله في الأرض .

إذاً فانطلاقة الإسلام الأولى في المدينة إنما كانت من هذا المسجد ، وهذه القرية التي استقبل فيها رسول الهدى بالحفاوة والترحيب(١) .

أما دور هذا المسجد في مجال التعليم فقد حظي هو الآخر - مثل غيره من المساجد الإسلامية - بقسط وافر من العناية ، إذ كانت تعقد فيه حلقات الدروس .

وليس غريباً إذا عرفنا أن أول عمل قام به رسول الله ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة ، ونزل في قباء هو تأسيس المسجد بالرغم من قصر الفترة التي مكثها رسول الله ﷺ في قباء ، ومع هذا فقد أسس فيه أول مسجد بني في الإسلام . ومما يؤيد ما أشرت إليه من أن هذا المسجد قد قام بدور بارز في المجال التعليمي هو ما أشار إليه الإمام أبو حامد الغزالي إذا يقول :

« إن حلقات العلم كانت تعقد في مسجد قباء »(٢) .

مسجد الضرار

سلك رسول الله ﷺ مع المتظاهرين بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء ، يقبل منهم أعذارهم وهي مختلقة ، ويتكرم عن فضيحتهم وهم يتفلتون من قيود السمع والطاعة ، فإذا تلبس أحدهم بخيانة توجب إهدار دمه رغب رسول الله ﷺ في التجاوز عنه ، حتى لا يقال : إن محمداً يقتل أصحابه .

---

(١) حافظ/ علي : فصول من تاريخ المدينة المنورة ص ١٢٦ .
(٢) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٥٢ .

ولـو أن هؤلاء المنافقين كـانـوا على قليـل من الخيـر لَأَسَـرَهُم هـذا الحلم ، وانخلعـوا من خـداعهم ، وأقبلوا على الإسـلام ، بيـد أن هــذا الاسلوب الذي اتبعه النبي ﷺ معهم لم يزدهم على الله ورسوله إِلَّا جرأة ، فزاد افتياتهم ، وربت شرورهم ، ولم يبق بد من كشف خبثهم ، وإشعـار جمهور الأمة الإسلامية بما تنطوي عليه نفوسهم وقد نزلت الآيات العديدة منددة بما يفعله هؤلاء المنافقون لتمـزق الأستار التي يتـوارى خلفها هؤلاء المنافقون ، وكانت ألاعيبهم قبل غزوة تبوك وبعدها هي النهـاية الحـاسمة للسماحة التي تمتعوا في ظلها طويلاً ، ولم يقدروها حق قدرها[1] فأُمِر النبي ﷺ أن يعلن للنـاس ذبذبتهم ونكـوصهم وكلِّف ألا يقبـل منهم وألَّا يصلي عليهم ، بل عرف أن استغفاره لهم لن يجاب .

ولعـل من أعجب ما تفتقت عنـه حيل هؤلاء المنـافقين هو أن يبنـوا مسجداً يلتقون فيه للمكر بالإسلام تحت شعار التجمع للعبـادة ، وهم في واقع الأمر أبعد من هذا .

وقد أقام المنافقون هذا المسجد مضـاهاة لمسجـد قباء الـذي أقامـه رسول الله ﷺ عندما قدم المدينة ، إذ كانوا يجتمعـون في مسجدهم هـذا يعيبون الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويستهزئون بـه وبأصحـابه ، وكـان محل مسجدهم في دار خدام بن خالد من بني عيلان زيد بن مالك ، إذ كان هذا الرجل هو أحد مؤسسي هذا المسجد[2] .

ولا ريب فإن هؤلاء المنافقين قـد أصبحوا أشـد خطراً وضـرراً على النبي ﷺ وأصحـابه من اليهـود والكفار ، نـظراً لوجـودهم بين جمـاعـات

---

(١) الغزالي / فقه السيرة ص ٤٣٥ .

(٢) المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبوة . ص ٧٧.

المسلمين والاحتكاك بهم ، ومعرفة أسرارهم ، ذلك أن غيرهم من أعـداء الإسلام لا يمكن أن يعرف مثل ما يعرفون عن أسرار المسلمين وخفاياهم ، وقـد ذكرهم القـرآن الكريم في آيـات متعـددة ، مبينـاً حقيقتهم وطبـاعهم وخـططهم ، وأنهم قوم مـذبذبـون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، يـدبـرون المكائد ، ويحكمون الخطط ، ويروجون الأكاذيب ، وينفثون سمـوم الشر والـوقيعـة بين المسلمين ، يقـول الله تبـارك وتعـالى عنهم : ﴿ إذا جـاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾[1] ويقول جل شأنه : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلَّا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[2] ويقول عز وجل : ﴿ وأذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنـا وإذا خلوا إلى شياطينهم قـالوا إنـا معكم إنما نحن مستهـزئـون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾[3] .

ولقد وصف البعض هذا المسجد بأنه كان أول مسجد معاد للإسلام إذ يقول عنه :

ليس غريباً أن نتحدث عن أول مسجد معاد للإسلام ، إذ أن خطورة المسجد قد عرفها أعداء الإسلام أنفسهم ، فحاولوا أن يقاوموا أثر المسجد في النفوس ، لذلك لم يترك هؤلاء الأعداء الحركـة الإسلاميـة تمارس في الناس مدَّها ، بل كانوا دائماً يضعون في طريقها العقبـات والعوائق ، بمـا يتصورون أنه مثيل لأسلحتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

---

(١) سورة المنافقون/ آية ١ .

(٢) سورة البقرة الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة البقرة الآيتان ١٤ ، ١٥ .

وقد لحظ أعداء الدعوة الإسلامية ـ حين هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ـ أن أول عمل قام به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو بناء المسجد ، ولحظوا كذلك ما تركه المسجد في نفوس المسلمين من أثر فحاولوا محاربة الإسلام بمسجد مماثل يجمعون فيه الناس على الكيد للإسلام وأهله . . . .

فلقد شرع أعداء الإسلام في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، فأتوا رسول الله طالبين منه أن يصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، فوعدهم بالصلاة فيه بعد عودته من تبوك قائلاً لهم : « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل رسول الله من تبوك عائداً إلى المدينة ، ولم يبق بينه وبينها إلاَّ يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار »[1] .

ويقول آخر : بني المسجد ، وصار المنافقون يعقدون به مؤتمراتهم ، ووجدوا بين حيطانه مكاناً يسهل فيه اجتماعهم ، ولعلهم بنوه بحيث يمكنهم الاختباء في جزء منه بعيداً عن الناس ، وصاروا يعيبون على النبي ويستهزئون به ، وينتظرون أبا عامر الراهب بما وعدهم به ، ثم دفع بهم الخبث والرغبة الملحّة في ستر أمرهم ، والتمويه على المسلمين بأن يرسلوا خمسة منهم إلى رسول الله ، وهو يتجهز إلى تبوك ، راجين منه أن يصلي في مسجدهم هذا ، فوعدهم بالصلاة فيه بعد عودته من تبوك[2] .

ولعل الطبري أكثر من وضّح هذا الموضوع إذ يقول :

---

(١) المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ .
(٢) النفاق والمنافقون في عهد رسول الله . ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى نـزل بذي أوان « بينـه وبين المدينة ساعة من نهار» وكان أصحـاب مسجد الضـرار قد كـانوا أتـوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنـا قد بنينـا مسجداً لـذي العلة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال : « إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله أتينـاكم ، فصلينا لكم فيه » فلما قفل ونزل بـذي أوان نزل عليـه القرآن الكـريم في شأن مسجـد الضرار . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ والـذين اتخـذوا مسجـداً ضـراراً وكفـراً وتفـريقـاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلّا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقـوى من أول يـوم أحق أن تقـوم فيـه ، فيـه رجـال يحبـون أن يتـطهـروا والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوىٰ من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جـرف هار فـانهار بـه في نار جهنم ، والله لا يهـدي القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلّا أن تقـطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾(*)(1) .

وقد سمي هذا المسجد بمسجد الضرار ، وذلك لمحـاولة الإضـرار بالمسلمين عند بنائه وصلاة رسول الله ﷺ فيه ، وكان الـذين اتخذوه إثني عشـر رجلاً من المنـافقين ، ذلـك أن أبـا عـامـر الـراهب قـال لأنـاس من الأنصار : ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني

(*) سورة التوبة الآيات من ١٠٧ ـ ١١٠ .

(1) تفسيـر الـطبـري جـ ١٤ ص ٤٦٨ . عيـون الأثـر جـ ١ ص ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، السمهودي / وفاء الوفا جـ ٣ ص ٨١٦ .

ذاهب إلى قيصر الروم ، فآت بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه ، وهؤلاء المنافقون هم : خذام بن خالد ، وثعلبة بن حاطب ، ومعتِّب بن قشير ، وأبو حبيبة بن الأذعر ، وعياد بن حنيف ، وجابر بن عامر ، ومجمع بن جابر بن عامر ، وزيد بن جابر بن عامر ، ونبتل بن الحارث ، ومخرج ، وبجاد بن عثمان ، ووديعة بن ثابت[1] .

وكان النبي ﷺ قد وعد هؤلاء بالصلاة في هذا المسجد تلبية لطلبهم ، وذلك بعد عودته من غزوة تبوك .

نعم لقد وعدهم الرسول ﷺ بذلك ، وهو الصلاة في هذا المسجد ، لكن الوحي السماوي،كان أسبق إلى رسول الله ﷺ من هؤلاء وكيدهم . إذ حذره الله تعالى مما أضمره المنافقون من التفريق بين المؤمنين وإرادتهم الطعن على رسول الله عليه الصلاة والسلام وذلك لتختلف الكلمة وينشق عصا الجماعة ، فحينما نزلت الآيات التي فضحت المنافقين ، وبينت كيدهم ، أمر عليه الصلاة والسلام بإحراق هذا المسجد ، وأن يحول مكانه إلى كناسة تلقى فيها الجيف والأزبال ، فدعا رسول الله عليه الصلاة والسلام كلاً من مالك بن الدخشم ، ومعن بن عدي العجلاني وقال لهما : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وأحرقاه ، فانطلقا مسرعين، ونفذا أوامر رسول الله ﷺ ، إذ حرقاه بنار حتى أتت عليه كله[2] وبهذا استراح المسلمون من شر هؤلاء ومكرهم وكيدهم .

---

(١) تفسير الطبري جـ ١٤ ص ٤٦٩ ، وفاء الوفا جـ ٣ ص ٨١٦ .
(٢) التراتيب الإدارية ص ٨١ .

الباب الثالث

أبرز مساجد الأمصار الاسلامية
وأعظمها أثرا
في النواحي العلمية والسياسية

الفصل الأول : مساجد العراق والشام .

في العراق : جامع البصرة ـ جامع الكوفة ـ جامع المنصور .

في الشام : المسجد الأقصى في القدس ـ الجامع الأموي بدمشق .

الفصل الثاني : مساجد مصر .

جامع عمرو في الفسطاط ـ الجامع الطولوني في القطائع ـ الجامع الأزهر في القاهرة .

الفصل الثالث : مساجد المغرب والأندلس .

في تونس : جامع القيروان ـ جامع الزيتونة .

في المغرب الأقصى : جامع القرويين .

في الأندلس : جامع قرطبة .

الفصل الأول
مساجد العراق والشام

أولاً : في العراق
مسجـد البصــرة(*)

يعتبر مسجد البصرة أول مسجد أنشيء بعد الفتوحـات الإسلاميـة ، لأن البصرة كانت أول مدينة أحدثت في الإسلام خارج الجزيرة العربية سنة ١٤هـ[١] .

وكـان هـذا المسجـد عبـارة عن قـطعـة من الأرض اختــطت لهـذا الغرض ، ويعود إنشاء هذا المسجد إلى عتبة بن غزوان ، وذلك بعد أن نزل البصرة إذ اختط موضع المسجد الجامع وبناه بالقصب[٢] .

وكان هذا المسجد عبارة عن صحن مربع مكشـوف أحيط بسور من القصب سرعان ما أتت عليه النار ، ثم بني بعد ذلك باللبن والطين وسقف بالعشب ، حتى حصل له أول تجديد على يد زياد بن أبيه عامل معاوية بن أبي سفيـان على البصرة سنـة ٤٤هـ حيث بناه بـالآجـر والجص ، وسقفـه بخشب الساج ، واتخذ له أعمدة من حجر منحوت .

ويقال بأن زياد بن أبيه بنى لهذا الجامع مئذنـة من الحجر ، وذلـك

(*) هذا المسجد اندثر منذ مدة طويلة ولم يبق له أثر .

(١) ابن قتيبة/ المعارف ص ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

(٢) الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٣٣٩ .

عندما أعـاد بناءه على نحـو يتناسب مـع ما وصلت إليـه البصرة من اتسـاع وعمران وزيادة سكان[1] .

ولقد أصبح المسجد هو أول ما يخطر ببال المسلمين حينما يخططون مدينة أو قرية لأن تلك سنة سنها رسول الله ﷺ عندما أسس مسجده في المدينة المنورة ، ومن قبله مسجد قباء ، فسار المسلمون من بعده على هذا المنوال ، وأصبح المسجد هو الطابع المميز لهذه الحضارة يعبر عن صلتها الوثيقة برب هذا الكون ، ويؤذن بمهمتها التي عليها أن تضطلع بها في هذا العالم .

لما تمّ فتح بعض البلدان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان أول عمل يقوم به الفاتحون هو إنشاء المسجد وتخطيطه ، ولهذا كـان أول عمل قام به الولاة هو إنشاء المساجد في الأقطار التي يتمّ فتحها على أيديهم .

قام هذا المسجد بدور بارز في النهضة العلميـة والأدبية في العصـر الأمـوي ، ففيه جلس الكثيـر من الفقهاء والعلمـاء يلقـون دروسهم ، ومن أشهر من جلسوا للتدريس في مسجد البصرة الحسن البصري ، الذي تلقى علومه عل يد ربيعة الرأي في مسجد المدينة ، إذ كان يلقي دروسه في هذا المسجـد حيث كـوّن حلقـة تضم العـديـد من القـرّاء ، من بينهم تلميـذه واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلسـه على أثر خـلاف وقع بين الاثنين في مسألة عَقَدِيَّة تتعلق بأفعال العبـاد الاختياريـة هل هي من خلق الله، أو من خلق العبـد بقدرة أودعهـا الله فيه ؟ ممـا حدا بـواصل إلى اعتـزال مجلس الحسن البصري ، وتكوين حلقـة أخرى في المسجـد ، وقد عُنِي واصـل

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٤٣ .

وأتباعه عناية كبيرة بعلم الكلام وقالوا : إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر ، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين ، ومن هنا ظهرت فرقة المعتزلة .

ويقال بأن الحسن البصري كان يجلس في آخر مسجد البصرة وحوله الناس يسألونه في الفقه ، وفي حوادث الفتن التي عاصرها ، إذ كان من رءوس العلماء في الفتن . كما كان الشعراء والأدباء يتخذون من هذا المسجد مركزاً لرواية الشعر والأدب ، وعن رواية الشعر تفرعت رواية اللغة وعربيتها ، وظهرت طائفة من الباحثين اللغويين عرفت إذ ذاك بأصحاب العربية الذين كانوا الرواد الأوائل للدراسات اللغوية ، وكان هذا المسجد مقر العالم « الخليل بن أحمد الفَراهيدي » الذي يعتبر بحق أول من صنّف في اللغة ، كما أنه كان واضع علم العروض وفق المعاجم في العربية ، وقد عاش معظم حياته في البصرة متزهداً متعففاً ، كما ألف كتبه في هذا المسجد التي كان من أشهرها كتاب « العين » ويعزىٰ إلى هذا الرجل إدخال الحركات بدلاً من النقط في الكتابة العربية ، كما أضاف للشعر العربي بحوراً جديدة لم تكن معروفة للعرب من قبل ، وقد تخرّج على يديه في هذا المسجد العديد من طلاب العلم ، لعل من أبرزهم واحداً يعتبر علماً من أعلام العربية ، ذلكم هو « سيبويه أحد تلاميذ الخليل بن أحمد الذي كان إمام البصريين في النحو بلا منازع ويرویٰ أن أعرابياً دخل مسجد البصرة فانتهى إلى حلقة يتذاكر أهلها الأشعار والأخبار فجلس وهو يستطيب كلامهم ، ثم أخذوا في العروض وتباحثوا في أوزان الشعر فلما سمع المفاعل والفعول ظن أنهم يأتمرون به فخرج مسرعاً وهو ينشد :

قد كان أخذهم في الشعر يعجبني حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاماً لست أفهمه كأنه زجل الغربان والبوم

وَلَّيت منفلتاً والله يعصمني   من التقحم في تلك الجراثيم[1]

ويقول البعض : بأن الحريري ألقى في هذا المسجد العديد من المحاضرات شعراً ونثراً كانت بعيدة كل البعد عن الدين والصلاة كما يقول عمر أبو النصر[2] .

أما عن الجانب السياسي فسأكتفي بدليل واحد على دور هذا المسجد إذ نرى بأن زياد بن أبيه قد ألقى خطبته البتراء من على منبر هذا المسجد في سنة ٤٥هـ ، وسميت بالبتراء لأنه لم يبدأها بالبسملة والحمدلله خلافاً لما جرت عليه عادة خطباء البلاد في المساجد ، حيث أوضح فيها زياد بأنه سيتبع سياسة الحزم والقوة ، مما أعاد الهدوء والأمن إلى البصرة ، إذ يقول في هذه الخطبة :

أما بعد : فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والفجر الموقد لأهله النار الباقي عليهم سعيراً ، ما يأتي سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بآي الله ، ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمد الذي لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ؟ وسدت مسامعه الشهوات ؟ واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل ، ألم تكن منكم

---

(١) الأصبهاني محاضرات الأدباء جـ١ ص ٢٠ نقلاً عن د . علي عبد الحليم محمود/ المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي ص ٣٩ .

(٢) تاريخ الحضارة العربية الإسلامية قبل الإسلام وفي العهد الأموي ص ٣٤٢ .

نهاة تمنع الغـواة عن دلج الليـل وغارة النهـار ؟ قربتم القـرابة ، وبـاعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغطون على المختلس ، كل امريء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عقـاباً ، ولا يـرجو معـاداً ، ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الرِّيَبَ ، حرم علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلَّا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف ، وشدة في غيـر جبريـة وعنف ، وإني أقسم بالله لآخـذن الولي بـالولي ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر والصحيـح منكم بالسقيم ، حتى يلقي الـرجل منكم أخاه فيقول : أنج سعـد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم ، إن كـذبـة المنبـر تبقى مشهـورة ، فـإذا تعلقتم علي بكـذبــة فقـد حلت لكم معصيتي ، وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيَّ ، واعلموا أن عندي أمثالها ، من بُيِّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياي ودلج الليل فإني لا أوتىٰ بمدلج إلَّا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إلي ، وإيـاي ودعوى الجـاهلية ، فـإني لا أجد أحـداً دعا بهـا إلَّا قـطعت لسانه ، وقد أحدثتم إحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقتـه، ومن حرق على قـوم حرقنـاه ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفوا أيديكم عني وألسنتكم ، أكفف يدي وأذاي ، لا يظهر من أحد منكم خـلاف ما عليـه عامتكم إلَّا ضـربت عنقه .

وقـد كـانت بيني وبين أقــوام إحن فجعلت ذلـك دَبْــرَ أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إسـاءته إني لـو علمت أن أحدكم قـد قتله السل من بغضـي لم أكشف لـه

قناعاً ، ولم أهتك له سراً ، حتى يبدي لي صفحته ، فإذا فعله لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس . أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم ، واعلموا أني مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث ، لست محتجباً عن طالب حاجة ، ولا مجمراً لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استوجب لكم كان شراً لكم ، أسأل الله أن يعين كلاً على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله ، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امريء منكم أن يكون من صرعاي[1] .

من خلال هذه الخطبة التي ألقاها زياد بن أبيه من على منبر جامع البصرة يتبين لنا الأسلوب الذي قرر زياد بن أبيه اتباعه تجاه أهل البصرة في معاملته لهم ، مبيناً سياسته التي سيسير عليها أثناء ولايته على مدينة البصرة .

وقد اتسمت هذه الخطبة بكثير من الشدة والقسوة ، والوعد والوعيد والتي نفذها زياد بحذافيرها بعد ذلك ، إذ ضرب بيد من حديد على كل من سولت له نفسه إحداث شغب في البلاد ، وما أكثر مشاكل أهل تلك البلاد في ذلك الوقت .

---

(١) الطبري / تاريخ الرسل والملوك جـ ٥ ص ص ٢١٨ ـ ٢٢١ .

وبهـذه الخطبـة استطاع زياد أن يوطـد أكناف هـذه الولايـة للدولـة الأموية ، وأن يسير بها السيرة التي أرادها بنو أمية .

وقد وفق الأمويون في هذا كثيـراً ـ وكيف لا ومعاويـة بن أبي سفيان أدرى وأعرف بالرجال من غيره ـ عندما أسندوا أمر ولاية البصـرة ، ومن ثم الكوفة إلى رجل شديد المراس كزياد بن أبيه .

ولم يقتصر الأمر على زياد بالنسبة لموقفه الصارم من أهل البصرة ، وإنما سلك هذا الاسلوب ابنه عبيد الله بن زيـاد معهم ، إذ نراه يتجـه إلى المسجد الجامع بعدما علم بموقف أهل البصرة من الحسين بن علي وابن عمه مسلم بن عقيل ، فيصعد المنبر قائلاً .

يا أهل البصرة إن أمير المؤمنين قد ولّاني مع البصرة الكـوفة ، وأنا سائر إليهـا ، وقد خلفت عليكم أخي عثمـان بن زياد ، فـإياكم والخـلاف والإرجاف ، فوالله الذي لا إله غيره ، لئن بلغني عن رجل منكم خالف أو أرجف لأقتلنـه ووليه ، ولآخـذن الأدنى بالأقصى ، والبـريء بالسقيم حتى تستقيموا وقد اعذر من أنذر[1] .

وبهذا تمكن الأمويون من إحكام سيطرتهم على العراق بواسطة هؤلاء وأمثالهم من الولاة .

مسجـد الكوفـة(*)

تعتبر الكوفـة ثاني مـدينة أحـدثت في الإسلام بعـد البصرة إذ يعـود إنشـاؤها إلى سعـد بن أبي وقـاص رضي الله عنـه الـذي تحـول إليهـا من المدائن . ومن المعروف أن أول ما أنشيء فيها هو المسجد الجامع ، حيث

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢٣٢ .

(*) هذا المسجد هو الآخر قد اندثر منذ زمن طويل ولم يبق له أثر .

اختطه سعد بن أبي وقاص سنة ١٧هـ ، وكان عبارة عن قطعة من الأرض مربعة الشكل يحيط بها خندق عوضاً عن الجدران ، وذلك صيانة له من ولوج الناس إليه بدون طهارة ، ومنعاً لدخول الحيوانات إليه ، وكان له سقف يقوم على أعمدة من الرخام نقلت إليه من قصر فارسي قديم في إقليم الحيرة ، يقول عن هذا ابن الأثير :

وبنيت ظلة في مقدمة مسجد الكوفة على أساطين رخام من بناء الأكاسرة في الحيرة ، وجعلوا على الصحن خندقاً لئلا يقتحمه أحد ببنيان[١] .

ويقال بأن المغيرة بن شعبة وسع المسجد وبناه ، وقد أعيد بناؤه في عهد زياد بن أبيه الوالي الأموي آنذاك ، وذلك سنة ٥١هـ حث يشير البلاذري إلى أن زياداً قال : أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة مائة[٢] .

كما أن ابن جبير قد أشار إلى هذا المسجد في رحلته إذ يقول :

«وفي الجانب الأيمن من القبلة يوجد محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير ، وهو محراب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفي ذلك الموضع ضربه الشقي اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف فالناس فيه يصلون باكين داعين ، وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد إليه ، فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب[٣] .

---

(١) الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٣٦٩ .

(٢) فتوح البلدان ص ٢٧٦ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ١٨٨ ، رحلة ابن بطوطة ص ٢١٩ .

وقد أصبح هذا المسجد مركزاً كبيراً من مراكز الفقه ، ففيه ظهرت بوادر مباديء الفقه المبني على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنّة ، فقد جلس فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه يلقن الناس أصول الدين ، كما جلس فيه كل من عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن حبيب السلمي لتدريس القرآن الكريم ، كما ظهرت في هذا الجامع مدرسة للتفسير اشتهر من معلميها سعيد بن جبير ، وعلي بن حمزة الكسائي .

لقد أصبح هذا المسجد مركزاً علمياً تدرس فيه العديد من العلوم حيث كان من أقدم المعلمين فيه هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأبو الأسود الدؤلي ، حيث يقال بأن علي بن أبي طالب هو واضع علم النحو ، وأن أبا الأسود الدؤلي هو الذي أخذ ذلك عن علي في مسجد الكوفة ، وذلك نتيجة لظهور العديد ممن لا يحسنون العربية ، على أثر دخول الكثير من الأعاجم في الإسلام ، فأدى ذلك إلى ظهور الدراسات اللغوية .

كما كان هذا المسجد محلاً لإنشاد الشعر وتذاكره ونقده إذ يروىٰ بأن الكميت بن زيد وحمّاد الراوية اجتمعا في هذا المسجد فتذاكرا أشعار العرب وأيامها فخالفه حماد في شيء ونازعه ، فقال له الكميت : أتظن بأنك أعلم مني بأيام العرب وأشعارها ؟ قال : وما هو إلَّا الظن ، هذا هو والله اليقين ، ثم تناظرا وتساءلا وأرجئا إلى أجل آخر[1] .

كما كان الشاعر نصيب بن أبي رباح ينشد أشعاره في هذا المسجد ، مما يدل معه على أن المسجد لم يقتصر دوره على الناحية الدينية فقط ، بل تعدى ذلك إلى شتى أنواع المعرفة الأخرى، ويقال بأن الخليفة الأموي

---

(١) الأغاني جـ ١٦ ص ٣٢٩ .

عبد الملك بن مروان كلف الشاعر الأخطل بمدحه من على منبر هذا المسجد .

ولم يقتصر دور هذا المسجد على تلك الجوانب فقط بل تعدى ذلك إلى أن تعلن منه سياسة الدولة ممثلة بالوالي أو الأمير ، إذ يجتمع الناس في هذا المسجد ، وتذاع منه قرارات الدولة ، ويعلن منه الحاكم أو الوالي سياسته التي سينتهجها تجاه تلك الولاية ، فها هو الحجاج بن يوسف الثقفي « الوالي الأموي على العراق ثم العراق والمشرق بعد ذلك » نراه يلقي خطبته المشهورة عندما عيّن والياً على العراق من على منبر هذا المسجد متلثماً بعمامة خز حمراء ، فعندما صعد المنبر كشف عن وجهه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا	متى أضع العمامة تعرفوني
صليب العود من سلفي رياح	كنصل السيف وضاح الجبين
وماذا يبتغي الشعراء مني	وقد جاوزت سن الأربعين
أخو خمسين مجتمع أشدي	ونجَّذني مداورة الشؤون
وإني لا يعود إلي قرني	غداة العَبْءِ إلَّا في قرين

أما والله إني لأحمل الشر محمله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحىٰ ، وإني والله يا أهل العراق ما أُغمز كتغماز القين ، ولا يقعقع لي بالشنان ، ولقد فررت عن ذكاء ، وجربت إلى الغاية القصوى ، إن أمير المؤمنين نثر كنانته ، ثم عجم عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً ، فوجهني إليكم ، فإنكم طالما أوضعتم في الفتن ، وسننتم سنن الغي ، أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أعد إلَّا وفيت، ولا أخلق إلَّا فريت ، فإياي وهذه الجماعات ، وقيلاً وقالاً ، وما يقولون ، وفيم

أنتم وذاك ، والله لتستقيمن على سبل الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده ، من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت منزله ، فشمر الناس بالخروج إلى المهلب(١) .

هذه الخطبة التي ألقاها الحجاج بن يوسف من على منبر مسجد الكوفة لا تقل قوة عن خطبة زياد بن أبيه التي ألقاها قبل الحجاج بمدة في المسجد الجامع بالبصرة ، وذلك من حيث الحزم والقوة والشدة ، مما أدى بالتالي إلى إعادة الهدوء والأمن والاستقرار إلى العراق على يد الحجاج طيلة إمارته على تلك البلاد .

وخرج الحجاج من قصره في الكوفة فسمع تكبيراً في السوق فراعه ذلك وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أهل العراق ، يا أهل الشرك والنفاق ومساويء الأخلاق ، وبني اللكيعة ، وعبيد العصا ، وأولاد الإماء والنقع بالقرقر ، إني سمعت تكبيراً لا يراد به الله ، وإنما يراد به الشيطان ، وإنما مثلي ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمداني :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم ... فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم؟
متى تجمع القلب الذكي وصارماً ... وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

أما والله لا تقرع عصا بعصا إلّا جعلتها كأمس الدابر(٢) .

وها هو أيضاً عبيد الله بن زياد يقف خطيباً من على منبر مسجد الكوفة قائلاً :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك جـ ٦ ص ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ، العقد الفريد جـ ٤ ص ص ١٨٠ ـ ١٨١ .
(٢) العقد الفريد جـ ٤ ص ١٧٦ .

« يا أهل الكوفة ! إن أمير المؤمنين قد ولّاني مصركم ، وقسّم فيئكم فيكم ، وأمرني بإنصاف مظلومكم ، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، والشدة على عاصيكم ومريبكم ، وأنا مُنْتَهٍ في ذلك إلى أمره ، وأنا لمطيعكم كالوالد الشفيق ، ولمخالفكم كالسم النقيع ، فلا يبقين أحد منكم إلّا على نفسه ، ثم نزل[1] .

وهذا الخليفة العباسي الأول « أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي » يلقي خطبته من على منبر هذا المسجد عندما بويع بالخلافة ، مبيناً فيها أحقية العباسيين للخلافة ، ومكافحتهم في سبيل الوصول إليها ، وكذا عمه داود بن علي الذي أكمل تلك الخطبة عندما جلس أبو العباس السفاح على المنبر على أثر الوعكة الصحية التي ألمت به . يقول أبو العباس :

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة ، وشرفه واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه ، والقوام به ، والذابين عنه ، والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته ، إلى أن قال :

يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا[2] .

ولما جلس على المنبر من شدة التعب صعد عمه داود بن علي ، فقام

---

(١) الدينوري / الأخبار الطوال ص ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .
(٢) الطبري / تاريخ الرسل والملوك جـ ٧ ص ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ .

دونه على مراقي المنبر ثم قال : الحمد لله شكراً شكراً شكراً الذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا أيها الناس : إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقياناً ، ولا نحفر نهراً ، ولا نبني قصراً ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، إلى أن قال : يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون ، وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان ، وعزّ الإسلام . . . . ألا إنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلاَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ـ وأشار بيده إلى أبي العباس ـ فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا[1] .

هذه الخطبة التي القاها كل من أبي العباس السفّاح وداود بن علي من على منبر مسجد الكوفة توضح لنا سياسة بني العباس تجاه الرعية عندما أطاحوا بالأمويين سنة ١٣٢هـ .

نعم لقد كانت كتب الخليفة وأوامره أيضاً تقرأ على الناس في المسجد ، وكثيراً ما كان الوالي يبعث مناديه لينادي في الطرقات العامة لدعوة الناس إلى « الصلاة جامعة » يكون مقرها في المسجد ، ومعنى ذلك أن الوالي يريد أن يبلغهم أمراً ، أو يشرح لهم سياسة ، وأكبر دليل على ذلك هو أن منادي زياد بن أبيه كان ينادي في طرقات الكوفة قائلاً : « ألا

---

(١) الطبري / تاريخ الرسل والملوك جـ ٧ ص ص ٤٢٦ ـ ٤٢٨ .

برئت الذمة من رجل من الوفاء والشرط والحرس لم يحضر المسجد » .

وهكذا أصبح مسجد الكوفة مركزاً هاماً للحياة العلمية والسياسية، ولعل من الأسباب التي أدت إلى ازدهار الحياة العلمية والأدبية في العراق عموماً في العصر الأموي هو أن أهل العراق رأوا أن ينصرفوا عن السياسة حتى لا يتعرضوا لاضطهاد ولاة الأمويين ، فوجهوا اهتمامهم إلى الاشتغال بالعلوم والآداب .

كما أن الموالي - وهم المسلمون من غير العرب - وهم كثرة آنذاك في العراق رأوا أن العلم هو خير وسيلة ترفع من كرامتهم ، وتعلي من قدرهم ، فأقبلوا على تعلم اللغة العربية حتى إذا ما أجادوها تماماً بدأوا ينهلون من مناهل العلم والأدب .

وعلى الإجمال فقد كان هذا المسجد من أهم وأبرز المعاهد الثقافية في الإسلام منذ عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب عندما اتخذ من الكوفة مقراً لدولته ، بل منذ أن أنشيء في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

جامع المنصور ببغداد (*)

أسس أبو جعفر المنصور « الخليفة الثاني من خلفاء الدولة العباسية » عاصمته الجديدة « بغداد » سنة ١٤٥هـ وباشر بنفسه تخطيطها وجعلها على شكل دائرة ، مما حدا بالكثير من المؤرخين إلى تسميتها بالمدورة .

ويعود بناء الجامع بتلك المدينة إلى مؤسسها أبي جعفر حيث جعل موضع المسجد من تلك العاصمة في الوسط[1] وعهد بتخطيطه إلى الحجاج بن أرطأة .

(*) هذا المسجد أيضاً لم يبق له أثر منذ مدة طويلة .

(١) الدينوري / الأخبار الطوال ص ٣٨٣ .

وقد بديء بتشييد هذا الجامع في نفس الوقت الذي بديء فيه ببناء مدينة بغداد « العاصمة » ويشغل المسجد مربعاً طول كل ضلع من أضلاعه مائتي ذراع[1].

وقد أعاد الخليفة هارون الرشيد « حفيد المنصور » بناء هذا الجامع سنة ١٩٢ هـ ، ثم زاد فيه الخليفة المعتضد « أبو العباس أحمد » سنة ٢٨٠ هـ . وبهذا يعتبر أقدم مسجد جامع أنشيء ببغداد .

وقد تطرق الخطيب البغدادي إلى هذا المسجد في كتابه الضخم « تاريخ بغداد » بصفته الرجل الوحيد الذي كتب عن بغداد بإسهاب ، وأفرد لها سفراً منفرداً يحمل اسمها ، ويتألف من أربعة عشر مجلداً ، إذ يقول عن هذا المسجد :

« جعل أبو جعفر المسجد الجامع بالمدينة ملاصق قصره المعروف « بقصر الذهب » وهو الصحن العتيق ، فبناه باللبن والطين ، وكانت مساحته الأولى هي مائتي ذراع طولاً ، في مائتي ذراع عرضاً ، أما الثانية فكانت أربعمائة ذراع طولاً ، في أربعمائة ذراع عرضاً ، ولم يزل هذا الجامع على حاله إلى وقت هارون الرشيد الذي أمر بنقضه ، وإعادة بنائه بالآجر والجص ، وكُتِب عليه اسم الرشيد، وذِكْر أمره ببنائه ، وتسمية البنَّاء، والنجَّار ، وتاريخ ذلك ، وهو ظاهر على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان »[2] (*) .

أما الزيادات الأخرى في المسجد غير تلك التي حدثت في عهد الرشيد ، فقد ذكر الخطيب البغدادي أيضاً : بأن الدار المعروفة بالقطان قد

---

(١) فكري/ أحمد/ المدخل إلى مساجد القاهرة/ ص ٢٣٢ .

(٢) تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٠٧ ، ابن الفوطي/ الحوادث الجامعة ص ٣٠٣ .

(*) كان هذا زمن المؤلف الخطيب البغدادي .

ألحقت بالمسجد ، وكانت قديماً ديواناً للخليفة المنصور ، إذ أمر مفلح التركي(*) ببنائها على يد صاحبه القطان ، وجعلت مصلى للناس ، وذلك في عام ٢٦١هـ ، ثم زاد الخليفة المعتضد الصحن الأول ووصله بالجامع ، وفتح بين قصر المنصور والجامع العتيق في الجدار سبعة عشر طاقاً ، منها إلى الصحن ثلاثة عشر طاقاً ، وإلى الأروقة أربعة ، وحوَّل المنبر والمحراب والمقصورة إلى المسجد الجديد .

ولما أخبر الخليفة المعتضد بضيق المسجد الجامع ، وأن الناس يضطرهم الضيق إلى أن يصلوا في المواضع التي لا تجوز الصلاة في مثلها، أمر بالزيادة فيه من قصر أمير المؤمنين المنصور، إذ بني مسجد على مثال المسجد الأول في مقداره أو نحوه ، ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل به ، فاتسع به الناس ، وكان الفراغ من بنائه والصلاة فيه في سنة ٢٨٠هـ[١] .

وقد أصبح هذا المسجد من أشهر مراكز التعليم في الدولة الإسلامية في عهد الخلافة العباسية وقبلة أنظار الأساتذة والطلبة في ذلك العهد .

ومما يدل على تلك المكانة السامية التي كان يحتلها في نفوس العلماء آنذاك هو أن الخطيب البغدادي « العالم المشهور » لما حج وشرب من ماء زمزم ، سأل الله سبحانه وتعالى أن يحقق له ثلاث حاجات ، عملاً بقول رسول الهدى ﷺ « ماء زمزم لما شرب له » إذ كانت الحاجة الأولى التي تمنى تحقيقها هو أن يحدِّث بتاريخ بغداد ، أما الثانية فهي أن يملي الحديث بجامع المنصور ، أما الثالثة هي أن يدفن إذا مات عند قبر بشر

(١) تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٠٨ .

(*) مفلح التركي : هو أحد قادة الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني .

الحافي . وقد تحقق له أن يحدث بتاريخ بغداد في هذا المسجد .

كما كان الكسائي العالم النحوي المشهور يجلس في هـذا المسجد لتدريس علوم اللغة العربية ، وكان من تلاميذه ، الفراء ، والأحمر ، وابن السعدان .

كما كان أبو العتاهية هو الآخـر يملي في هذا المسجـد أشعاره على طلابه ، ويقال بأن شيخاً من أهل الكوفة دخل المسجد فإذا برجل قد تحلق عليه جماعة وهو ينشد قائلاً :

لهفـي على ورق الـشبــاب	وغصـونه الخضـر الـرطـاب
ذهب الشبــاب وبــان عني	غــيــر مــنــتــظر الإيــاب
فــلأبـكيـن على الـشبــاب	وطـيـب أيـام الـتـصــابـي
ولأبــكـيــن مــن الــبــلىٰ	ولأبـكيـن مـن الـخـضــاب

وكان هذا الرجل ينشد ودموعه تسيل على خديه ، فلما رأى الكوفي ذلـك انضم إلى الحلقة ، وكتب الأبيـات ، وسأل عن الشيـخ فإذا هـو أبو العتاهية .

ويقال بأن أبا عمرو الزاهد أملىٰ كتابه «الياقوت» في هـذا المسجد، وذلك في سنة ٣٢٦هـ[١] كما يعتبر هذا الجامع من الجوامع العظيمـة التي حفلت ببعض الحوادث التاريخية الهامة، فمن على منبر هذا المسجد دعا البساسيري « صاحب بغداد وقائد جيش الملك البويهي الرحيم » في خطبة الجمعة للخليفة الفاطمي في مصر[٢] .

---

(١) مقال بعنوان/ رسالة المسجد والإمام/ الحوت/ عبد الرحمن ـ بحوث مؤتمر رسالـة المسجد ص ١٥٠ .

(٢) ابن الجوزي/ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ حوادث ٤٥٠هـ ص ١٩٢ .

لهذا فإن هذا المسجد قد قام بدور بارز في العـديد من النـواحي ، العلمي منها والسياسي والثقافي على أكمل وجه ، إذ كان مدرسة كبيرة يؤمها العديد من طلبة العلم من مختلف أنحاء العالم .

وممـا يؤسف له أن هـذا المسجد قـد تهدم وانْمَحَتْ آثـاره منذ مـدة طويلة ، ولم يعمر كما عمر العديد من المساجد الإسلامية الجامعة التي ما زالت مـوجودة حتى يـومنا هـذا ، من أمثـال المسجـد الأمـوي بـدمشق ، والقيروان في تونس، والجامع الطولوني في مصر، وجامع عمرو بن العاص في مصر أيضاً ، والأزهر في مصر ، والقرويين في فاس بالمغرب .

كما أن البعض منها قد تحول إلى جامعات من أمثال الجامع الأزهر ، وجامع الزيتونة ، وجامع القرويين ، يقول البعض عن هذا : والذي يؤلم أن معالم هذا المسجد قد زالت من الوجود منذ سنين كثيرة ، ولم يبق أي ذكر له إلَّا في بعض المصادر الإسلامية الأولى ، وحتى تلك المصـادر لا تشير إليه إلَّا إشارة عابرة ، ويقول في موضـع آخر : مكث مسجـد المنصور في بغـداد الغربيـة مكانـاً يؤدي فيه المسلمـون الصلاة من سنـة ١٤٥هـ ـ سنة ٧٢٧هـ أي ما يقرب من ستة قرون[١] .

ثانياً : في الشام

المسجـد الأقصــى(*)

قبل البدء في الحديث عن هذا المسجد يحسن أن أورد نبذة قصيرة عن مدينة القدس التي يقع فيها المسجد الأقصى .

لقد دخلت القدس في حظيرة الإسلام صلحاً على يد الخليفة الراشد

(١) العميد/ طاهر مظفر/ بغداد . مدينة المنصور المدورة ص ٢٦٩ ، ص ٢٩٩ .

(*) عن المسجد الأقصى انظر: ملحق الصور رقم ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

الثـاني عمر بن الخـطاب رضي الله عنه سنـة ١٥هـ ، وبقيت كذلـك حتى سقوطها على يد الإفرنج خلال الحروب الصليبية في عام ٤٩٢هـ الموافق ١٠٩٩م .

وقد قامت القدس بدور هام وخطير في تاريخ العالم القديم والحديث بشكـل عام ، وفي تـاريخ الإسـلام بشكل خـاص ، واستمـرت على هـذا المنوال إلى أن سيطر عليها الصليبيون « كمـا أسلفت » لكن صلاح الـدين الأيوبي ما لبث أن استعادها من بـراثن الصليبيين في المعركـة الفاصلة في التاريخ « حطين » المشهورة سنة ٥٨٣هـ الموافق ١١٨٧م ، حيث أعاد إليها وجههـا الناصـع وصبغتها الإسـلاميـة ، كمـا أعـاد للمسلمين في القـدس مسـاجدهم ومقـدساتهم ، ورد إليهم اعتبـارهم الذي فقـدوه منذ أن غـزت النصرانية ديار الإسلام[1] ونتيجة للنزاع العائلي بين أبناء صلاح الدين فقد ضعف هؤلاء عن الاحتفاظ بتلك المقدسـات ، وانتهى الأمر أخيـراً بضياع القـدس من أيديهم مـرة أخرى ، على أيـدي الصليبيين في سنـة ١٣٢٩م واستمرت على هذا الوضع إلى أن قيض الله للإسلام من أعاد تلك المدينة وغيرها من المدن الأخرى التي سيطر عليها الصليبيون إلى حظيرة الإسلام ، حيث تمكن السلطان العثماني « سليم الأول » من إعادتهـا إلى الإسلام ، وبقيت كذلك حتى احتلها الحلفاء في سنة ١٩١٧ م في الحرب العالمية الأولى ، ووضعت تحت الانتداب البريطاني . وكان لبريطانيا دور كبير في ضياع هذه المدينة بل في ضياع فلسطين بكاملها حينما فتحت الباب على مصراعيه للتغلغل اليهودي في فلسطين على أثر وعد وزير خارجية بريطانيا « بلفور » ذلك الوعد المشؤوم الذي التزمت به الحكومـة البريـطانية في ٢

---

(١) الأعظمي / تاريخ مدينة القدس ص ٢١ .

نوفمبر سنة ١٩١٧م ، وهو الوعد الذي قطعته على نفسها بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . واستمرت على هذه مؤيدة ومناصرة لليهود حتى تأكد لها ضمان مستقبل اليهود في إنشاء وطن لهم في فلسطين ، عندها نفضت يدها من فلسطين . وسواء وضعت فلسطين تحت عصبة الأمم أو غيرها ، فإن اليهود تمكنوا ـ وبمساعدات بريطانية وغير بريطانية ـ من إقامة دولة لهم في فلسطين على حساب أهلها ، فأعلنوا دولتهم ، وارتكبوا من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان ، حتى الأماكن المقدسة لم تسلم من اعتداءاتهم .

ولعل أكبر جريمة ارتكبها اليهود في فلسطين هي جريمة حرق المسجد الأقصى في سنة ١٣٨٩هـ الموافق سنة ١٩٦٩م إذ يقول البعض عن هذا :

جريمة حرق المسجد الأقصى ، جريمة بربرية ترتكب في النصف الثاني من القرن العشرين ، تنتهك فيها حرمة الأماكن المقدسة بالحرق والتدمير . وتعيد للذاكرة فوضى الوثنية ، وهمجية البرابرة ، ارتكبت هذه الجريمة التي لا تستطيع الألفاظ أن تعبر عن بشاعتها ، ويعجز القلم أن يدون بالكلمات عمق مرارتها ، فكيف يحرق الأقصى المبارك ؟ وهو أولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين ، ومهبط إسراء وموضع معراج رسول الله ﷺ ، كيف تحرق آثار إسلامية خلدها الزمن قرابة أربعة عشر قرناً ؟ .

ففي الساعة السادسة وعشرين دقيقة من صباح يوم ٢١ / ٨ / ١٩٦٩م أشعل شاب يدعى « ميكل دنس وليم روهان » النار في المسجد الأقصى ، وظلت النار مشتعلة إلى الساعة الثانية عشرة والدقيقة العاشرة ظهراً ، ونتج عن هذا حرق وتدمير المقصورة الملكية بالمسجد ، وحرق وإتلاف معظم

خشب السقف في القسم الجنوبي الشرقي من المسجد ، وحرق منبر نور الدين الذي وضعه بالمسجد صلاح الدين الأيوبي ، كذلك حرق معظم السجاد الموجود بالجهة الجنوبية الشرقية ، ولم يطفيء الحريق سوى آلاف من مسلمي القدس من الرجال والنساء والأطفال .

وبعد أن تخبطت إسرائيل في عشوائية الاتهامات أعلنت في اليوم الثاني للحريق أنها قبضت على روهان فاعل حريق الأقصى[1] .

كما أعلنت في نفس الوقت بأن الفاعل مصاب بالجنون ، حتى تبريء ساحته وتعفيه مما بدر منه ، وفي نفس الوقت لإبعاد التهمة عمن زجه في هذا العمل الخطير ، واللاإنساني .

فالمسجد الأقصى هو أولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين ، وهو ثالث المساجد التي لا تشد الرحال إلَّا إليها ، يقول رسول الهدى ﷺ :

« لا تشد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » .

ولا غرو في ذلك فهذه المساجد الثلاثة تحتل مركزاً هاماً ومكاناً بارزاً في نفوس المسلمين ، لا يتمتع بهما أي جامع أو مسجد آخر في الإسلام ، كما أن السفر وشد الرحال إليها لأجل الحصول على رضاء الله وثوابه أمر رغّب فيه رسول الله ﷺ إليه ، ومن هنا استوجب على المسلمين حماية مقدساتهم في مشارق الأرض ومغاربها . فالمسجد الأقصى هو الذي أسرى برسول الله ﷺ ، وإليه اتجه المسلمون في صلواتهم مع رسول الله حوالي سبعة عشر شهراً قبلة للمسلمين ، إلى أن حوّلت القبلة إلى الكعبة في المسجد الحرام .

---

(١) أشهر المساجد في الإسلام جـ ١ ص ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

وأول من بنى المسجد الأقصى ـ كَما يقال ـ نبي الله سليمان بن داود عليه السلام ، وفيه نذرت أم مريم ما في بطنها أن يكون محرراً لوجه الله ، خالصاً لخدمته سبحانه وتعالى .

ويضم الحرم القدسي الشريف كلاً من مسجد الصخرة ، ومسجد عمر ، والمسجد الأقصى .

مسجد عمر :

هو مسجد بسيط يقوم عند الطرف الشرقي من الحرم ، في المكان الذي صلى فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما ذهب إلى القدس ليتسلمها من البطريرك صفرونيوس .

المسجد الأقصىٰ :

هو المسجد الرئيسي في الحرم ، وقد بني غرب مسجد عمر ، محاذياً له ، وهو يشبه في تنظيمه الداخلي الجامع الأموي في دمشق .

مسجد الصخرة :

هو بناء صغير نسبياً مثمن تعلوه قبة كبيرة ، وكانت أول المساجد التي ظهرت على العالم الإسلامي بنموذج جديد من البناء يختلف عن بساطة المساجد الأولى وزهدها .

وقد تم بناء قبة الصخرة في القدس في عهد الخليفة الأموي « عبد الملك بن مروان » إذ رأى أن ينشيء حول الصخرة المقدسة التي وقف عليها إبراهيم عليه السلام ، ووضع رسول الله عليه الصلاة والسلام قدمه الشريفة عليها في ليلة الإسراء والمعراج بناءً يتفق ومركز الصخرة الديني عند

المسلمين ، فأحيطت الصخرة ببناء مستدير ، وحوله رواق دائري ، وجعلت فوق الرواق قبة محمولة على ستة عشر قوساً ، ترتكز على أربع دعائم ، واثنتي عشرة سارية . وعلى نفس الهضبة التي بنيت عليها قبة الصخرة يقوم المسجد الأقصى[1] .

وقد نبّه البعض إلى أن المتعارف عليه عند الناس أن المسجد الأقصى هو الجامع المبني في صدر المسجد الذي به المنبر والمحراب الكبير فقط ، بينما يؤكد بأن الحقيقة هي أن الأقصى اسم لجميع المسجد مما دار عليه السور ، فالمراد بالمسجد الأقصى هو جميع ما دار عليه السور[2] .

وصف البعض المسجد الأقصى فقال :

المسجد الأقصى ، هو معهد الأنبياء ، ومتعهد الأولياء ، وثاني البيت الحرام في البناء ، وأول القبلتين حال الإبتداء ، ومن صخرته المقدسة المعراج ، حيث عرج بخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام من حضرة القدس إلى حضرة القدس ، وبسط له بساط الأنس ، ودنا من ربه مقاماً لم يبلغه الخليل ولا الكليم ، ولا وصل إليه ملك مقرب ، ولا نبي كريم ، وقد أمّ في ذلك المسجد بالنبيين ، وصعد منه إلى أعلى عليين ، وإلى صفيح تلك البقعة المحشر ، ومنها يوم القيامة المنشر ، والصخرة بها عرش الله الأدنى ، ومقام الفخار الأسنى ، وهي التي تزف إليها عروس الكعبة زفاً ، وتقسم الناس لشقاوة وزلفى[3] .

---

(١) الرفاعي / أنور : الإسلام في حضارته ونظمه ص ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

(٢) أبو اليمن القاضي مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل جـ ٢ ص ٢٤ .

(٣) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ ١ ص ١٣٣ .

ومن الغـريب أن نقرأ للبعض من المؤرخين من أن الخليفـة الأموي عبد الملك بن مروان قد بنى قبة الصخرة ليجعلها موضعاً لحـج المسلمين عوضاً عن الكعبة الي يسيطر عليها في ذلك الوقت خصمه عبد الله بن الزبير إذ يقول البعض :

« في سنة ٧٢هـ ابتنى عبد الملك بن مروان في بيت المقدس « قبة الصخرة » الفخمة ، وكان غرضه هو أن يحول إليها أفواج الحجاج عن مكة التي استقر فيها منافسه عبد الله بن الزبير[١] .

هذا الكلام الذي قال به البعض يرفضـه الواقـع والمنطق ، إذ كيف بخليفة كعبد الملك بن مروان ـ الرجل المسلم ـ يفكر في هذا الموضوع من قريب أو بعيد لأن هذا لا يدخـل في عقل إنسـان ؟ كيف يجوز أن خليفـة موضعه من الإسلام والعلم معروف يقبل بأن يفكر ـ حتى مجرد التفكير ـ في تحويل الحج إلى مسار غير مساره الشرعي ؟، ثم يحل لـلأمة الحـج إلى موضع غير بيت الله الذي بناه إبراهيم عليه السلام ، وحج إليه أشرف خلق الله محمد ﷺ ، ونص على ذلك القرآن الكريم إذ يقول تعالى :

﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كـل فج عميق ﴾(*) .

وفي رأيـي أن هذا من اختلاق أعداء الإسلام لتشويه سمعة الإسلام وجلاله ، المتمثل في شخص أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، كما أن لخصوم عبد الملك دوراً في هذا الكلام المختلق ، ولهذا فإن ما أشير إليه يفتقر ـ في نظري ـ إلى الدقة والموضوعية ، ولا أساس له من الصحة .

---

(١) تاريخ مدينة القدس ص ٩٩ .

(*) سورة الحج آية ٢٧ .

وقد نالت هذه المدينة المقدسة مكانة سامية ، ومركزاً مرموقاً في مختلف مناحي الحياة العلمية والأدبية والعمرانية ، وأنجبت فطاحل العلماء والأدباء والجغرافيين مما يدل على مدى عناية الإسلام البالغة في هذا البيت المقدّس .

ونظراً لأن هذا المسجد قد تعرض للعديد من الأحداث التاريخية التي مرت به فإنه يحسن أن نتعرف على وضعه في وقتنا الحاضر حتى تكون لدينا فكرة واضحة عنه في أيامنا تلك .

ولنترك الحديث عن هذا الموضوع لواحد من أبناء القدس عاش في هذه المدينة وترعرع فيها ، ثم ألّف كتاباً حول هذا الموضوع سماه « تاريخ الحرم القدسي » إذ تعرض الكاتب لأطوال المسجد ومحاريبه ومنبره وأبوابه ، وما حوله من المنشئات إذ يقول :

دخلت المسجد الأقصى مراراً في ريعان شبابي ، ولكني ما أمعنت النظر فيه مثل المرة الأخيرة وهي : « يوم الجمعة لأيام خلت من رمضان سنة ١٣٦٥هـ الموافق ٢٤ آب سنة ١٩٤٥م عندما دخلته باحثاً مستقصياً من أجل كتابي هذا ، وإليك وصفه كما رأيته اليوم » .

طوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ متراً ، وهو قائم على ٥٣ عموداً من الرخام ، ٤٩ سارية من الحجارة ، وهذه ضخمة ومربعة الشكل ، أما الأعمدة فمصنوعة من الرخام المختلف الألوان الواحد منها خمسة أمتار « خلا القاعدة والتاج » وقطره يقرب من المتر ، وفي الصدر قبة مصنوعة من الخشب ، وهي مستورة من الخارج بصفائح الرصاص ، ومزينة من الداخل بالفصوص الذهبية الملونة .

وفي المسجد الأقصى محراب كبير كائن إلى الشرق من المنبر ،

كانوا يسمونه فيما مضى « محراب داود » ثم صاروا يسمونه « محراب عمر » ، وهناك في صدر المسجد إلى الغرب من المنبر محراب آخر يسمونه « محراب معاوية » .

وفي داخل المسجد الأقصى وعند زاويته القبلية إلى الشرق جامع متصل به، وهو مستطيل الشكل يسمونه « جامع عمر » .

كما كان هناك جامع آخر يسمى « جامع النساء » وهو في الجانب الغربي إلى القبلة .

وهناك المنبر وهو مصنوع من الخشب المرصع بالعاج والأبنوس ، وقائم على أعمدة من المرمر .

وللمسجد الأقصى في يومنا هذا أحد عشر باباً سبعة منها إلى الشمال وهي كبيرة ، وباب واحد إلى الشرق ، وهو الذي ينتهي إلى مهد عيسى ، وبابان في الغرب أحدهما الباب الذي تدخل منه النساء إلى الجامع المسمى باسمهن ، وفي الجدار القبلي باب غير نافذ[١] .

أما مسجد الصخرة فقد أعطانا المؤلف نفسه له وصفاً[*] إذ يقول عنه :

مسجد الصخرة : يتكون هذا المسجد من الصخرة نفسها ، والقبة التي فوقها ، والرواق الذي حولها . إن هذا المسجد واقع في وسط فناء واسع مرتفع عن أرض الحرم بمقدار سبعة أذرع ، أما القبة نفسها فإنها مستديرة قطرها ٤٤ , ٢٠ متراً ، وارتفاعها مائة وخمسة أقدام ، وهي مؤلفة

---

(١) العارف/ عارف: تاريخ الحرم القدسي ص ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(*) كان هذا في سنة ١٩٤٥م.

من طبقتين خشبيتين ، طبقة فوقانية وهي مكسوة من الظاهر بصفائح الرصاص ، وأخرى تحتانية يراها الرائي وهو في داخل المسجد ، وتحت القبة تقوم الصخرة المشرفة طولها من الشمال إلى الجنوب ١٧,٧٠ متراً ، وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٣,٥٠ متراً ، وارتفاعها عن الأرض يتراوح بين المتر والمترين ، حولها درابزين من الخشب المنقوش والمدهون . وتحت الصخرة مغارة ينزل إليها من الجهة القبلية بإحدى عشرة درجة .

والبناء الذي حول الصخرة مثمن الأركان ، ومكون من تثمينتين ، تثمينة خارجية : هي التي تتكون منها جدران المسجد ، وأخرى داخلية مرفوعة على أعمدة وأساطين ، ومجموع النوافذ في جدران المسجد ست وخمسون نافذة ، منها أربعون نافذة يدخل منها النور .

ولمسجد الصخرة أربعة أبواب مزدوجة مصنوعة من الخشب ، مكسوة بصفائح من الرصاص[1] .

والمسجد الأقصى هو واحد من المساجد الإسلامية الكبرى التي كان لها الدور القيادي والريادي في جوانب متعددة : التعليمي منها والسياسي والاجتماعي ، إذ أصبح في يوم من الأيام بمثابة جامعة إسلامية ، وله رسالة علمية أداها على الوجه الأكمل ، إذ يقول عنه البعض :

« يمثل المسجد الأقصى مظهراً حضارياً وفكرياً ، كما يمثل مظهراً من مظاهر التمدن الإسلامي ، ويقوم بدوره في دراسة التراث الإسلامي والحفاظ عليه ، كما كان له أثر كبير في خدمة الثقافة الإسلامية ورعايتها .

لقد كان المسجد الأقصى بما قام فيه وفي ساحاته ، ومن حوله من

---

(١) تاريخ الحرم القدسي ص ص ٣٤ ، ٣٨ .

مؤسسات علمية ، ومدارس ومكتبات ودور قرآن ، ودور حديث وزوايا وخوانق ورباطات ، كانت عبارة عن معاهد علمية أو كليات أو جامعة تعقد فيها الحلقات العلمية ، وتدرس العلوم الشرعية ، وعلوم اللغة العربية والتاريخ ، وعلم الكلام والمنطق ، والعلوم الرياضية ، وغير ذلك من فنون العلم .

كما أنشئت العديد من المدارس بداخل المسجد الأقصى ومنها ، المدرسة النحوية ، والمدرسة النصرية ، والمدرسة الفارسية كلها بداخله . لقد تنوع التعليم بالمسجد الأقصى ، سواء بالنسبة للعلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وقراءات وتصوف وميقات ، أو علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب وعروض ، أو علم التاريخ ، أو العلوم الرياضية ، والمنطق ، وعلم الكلام ، وغير ذلك[1] .

كما رتب في المسجد الأقصى أربعة من الأئمة يمثلون المذاهب الأربعة ، إذ قام هؤلاء الأئمة بدور فعال في الحركة الفكرية ، وذلك عندما اشتغلوا بالعلم وتصدر بعضهم التدريس بالمسجد الأقصى ، وتولى البعض منهم المشيخة بالمدرسة الصلاحية ، فقاموا بتدريس الموضوعات المختلفة من قراءات وحديث وفقه ولغة ونحو وبلاغة وتصوف ، وغير ذلك من الموضوعات الأخرى[2] .

لم يقتصر دور هذا المسجد على الجانب الديني والعلمي فقط وإنما تعدى ذلك إلى جوانب اجتماعية وسياسية .

فلقد كانت تعقد في هذا المسجد الاجتماعات للنظر في أحوال المسلمين الاجتماعية والسياسية ، والعمل على حل القضايا والمشكلات

---

(١) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى ص ٩١ ، ٩٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٢ .

التي تحدث بين الحين والآخر ، يقول البعض في هذا :

كان أولوا الأمر من العلماء والقضاة والشيوخ يعقدون الاجتماعات في المسجد الأقصى للنظر في حل المشكلات السياسية والاجتماعية ، لعل من أبرزها حادثة كنيسة اليهود في سنتي ٨٧٨ ، ٨٧٩هـ عندما عقد مجلس في المسجد الأقصى ، ضم عدداً من العلماء والقضاة ، وذلك من أجل حل تلك الواقعة والمحافظة على حقوق المسلمين[١] .

كما عقدت العديد من المجالس في المسجد الأقصى من قبل العلماء والقضاة ، وذلك للوقوف في وجه الظلم الواقع على المواطنين ، ذلك أن نائب القدس « خضر بك » قد ارتكب عدة مظالم ، ونهب أموال الناس ، فوقف هؤلاء العلماء وعلى رأسهم شيخ الصلاحية آنذاك ، نجم الدين بن جماعة ، وكتبوا للسلطان بما اقترفه النائب من مظالم .

وقد انتهى الأمر بعزل النائب وضربه وسجنه[٢] .

ومن ذلك أيضاً وقوفهم في وجه أبي العويسر أمير عربان جرم وحاجبه ، حيث أراد أن يفرض مظلمة على فلاحي جبل القدس ، ويأخذ أموالهم ، فمنعه شيخ الإسلام « ابن جماعة » ثم عقد مجلساً في المسجد الأقصى مع شيخ الإسلام « كمال الدين بن أبي شريف » والقضاة والمشايخ ، وكتبوا إلى السلطان بما حدث ، وقالوا : « إن ذلك لم تجر به عادة قبل اليوم » ، ثم انتهى الأمر بمنع أبي العويسر مما أراد فعله » وبهذا حافظ العلماء على حقوق الفلاحين وأموالهم[٣] .

---

(١) الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل جـ ٢ ص ٣٥٠ .
(٢) نفس المصدر والجزء ص ص ٣٤٠ - ٣٤١ .
(٣) نفس المصدر والجزء ص ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

كما أن الأقصى هو المكان الذي تعلن منه المراسيم السلطانية والخطابات ، وكانت تقرأ فيه ثم تصبح بعد ذلك رسمية يعمل بموجبها وتكون ملزمة للجميع .

هذا بالإضافة إلى العديد من الكتب والمخطوطات التي تحويها دور الكتب الموجودة داخل المسجد الأقصى ، والتي وقفها أصحابها على المسجد الأقصى ، ولكن كثيراً من هذه الكتب قد تعرضت للنهب والسرقة ، وبيع العديد منها بأبخس الأثمان ، إذ يعلق البعض على هذا قائلاً :

« وما علموا أن بيعها هو عين الخسران » كما سطا تجار المخطوطات من الأجانب على كثير من الكتب الثمينة التي وقفها السلاطين والأمراء والأعيان ، وهربوها إلى خارج البلاد ، في غفلة من أهلها ، إذ يوجد العديد من المخطوطات في جامعة « هايدلبرج » في ألمانيا عليها ختم المسجد الأقصى ، عدا ما تسرب إلى أوروبا وأمريكا من تراثنا الثمين »[1] .

لقد كان المسجد الأقصى محط أنظار العلماء ، وقبلة الزائرين ، وملتقى العلماء من كل حدب وصوب ولعل أبرز مثل على ذلك هو وجود عدد من المدارس في المسجد الأقصى ، من أشهرها المدرسة النصرية أو كما يقول البعض عنها : المدرسة الغزالية . حيث تنسب إلى الشيخ أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي ، وتنسب أحياناً إلى الإمام أبي حامد الغزالي ، فلقد درَّس المقدسي بالمدرسة النصرية في الحرم القدسي الشريف فنسبت إليه حيث يشير البعض : إلى أن المقدسي أقام بالقدس مدة طويلة بالزاوية التي تقع على باب الرحمة المعروفة بالناصرية[2] .

---

(١) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى ص ٢٦٦ .

(٢) الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل جـ ١ ص ٢٩٨ .

كما دَرَس على هذا الشيخ العديد من طالبي العلم في بيت المقدس حيث أملى مجالس كثيرة ، وروى عنه العديد من تلامذته ، والتقى به الغزالي وأبو بكر بن العربي في دمشق .

كما درَّس في نفس المدرسة حجة الإسلام الغزالي وألّف في بيت المقدس « الرسالة القدسية في قواعد العقائد » وتقع هذه الرسالة في أربعة أركان : الركن الأول : في معرفة ذات الله تعالى ، والثاني : في صفاته ، والثالث : في أفعاله ، والرابع : في السمعيات ، ويقوم كل ركن على عشرة أصول ، وقد أشار إليها الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين[1] .

هذا إلى جانب العديد من العلماء الذين كان لهم دور بارز في التعليم بالمسجد الأقصى منذ أزمان بعيدة حتى استولى عليه اليهود في عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

ونرجو من الله عز وجل أن يأتي اليوم ، اليوم القريب الذي يتحرر فيه الأقصى من ربقة اليهود الذين دنّسوه ولم يراعوا له حرمة ، وأن يعود كما كان قلعة من قلاع الإسلام الصامدة في وجه الصليبيين وغيرهم من أعداء الإسلام .

الجامع الأموي بدمشق(*)

يعود تاريخ إنشاء هذا الجامع إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فيما بين عامي ٨٨ ، ٩٦هـ (٧٠٧ ، ٧١٤م) حيث استقدم له الصناع والعمال المهرة من شتى أنحاء الدولة الإسلامية .

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ الصفحات بتفصيل من ١٠٤ ـ ١٢٤ .

(*) أنظر ملحق الصور رقم ١٩ ، ٢٠ في آخر الكتاب .

ويقال بأن هذا المسجد يقوم في منطقة مقدسة من معبد وثني قـديم استعمل فيما بعد كنيسة ، فلمـا تولى الخليفـة الوليـد شيد المسجـد على أنقاضها ، بعد إرضاء أصحابها المسيحيين وتعويضهم عنها .

يقول عن هذا ابن عساكر : « كـان موضـع مسجد دمشق كنيسـة من كنـائس العجم ، فلما كـان فتح دمشق كـان المسلمون يصلون في نـاحيـة منها ، والنصارى في ناحية ، فلم يزالوا كذلك حتى ولي الوليد الخلافة ، عنـدهـا بعث إلى النصـارى قـائـلاً لهم : أعـطونـا نصف الكنيسـة الـذي بـأيديكم ، ونحن نبني لكم كنيسـة حيث شئتم من دمشق ، فأبـوا عليـه ، فقال : ائتونـا بالعهـد ، فأتـوه به ، فقـال : إنا أخـذنا كنيسـة تومـا عنوة ، والكنيسة الداخلية صلحاً ، فأنا أهـدم كنيسة تـوما ، وكـانت أكبر من هـذه الـداخلة ، فرضـوا بهدم تلك الكنيسـة « يعني نصف الكنيسة الـذي كـان بـأيديهم »، وأدخلهـا في المسجـد . وكـان بـابهـا قبلة المسجـد مـوضـع المحراب الذي يصلى فيه اليوم[1] .

ويقول آخر : إن هذا المسجد قد أقيم على جزء من كاتدرائية تسمى « كاتدرائية سانت يوحنا » ، فعمل الوليد على شراء النصف الثاني من تلك الكنيسة من النصارى ، فهدم البناء بأكمله ، وشيد المسجد على تلك البقعة كاملة ، حيث اعتبر هذا الجامـع في نظر المؤرخين والجغـرافيين القدامى منهم والمحدثين من أجَلِّ وأجمل المساجد الإسلامية قاطبة[2](*) .

وقـد وصف ابن جبير هـذا المسجـد عنـدمـا زاره في أواخـر القـرن

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٢) الفنون العربية الإسلامية ص ٨٣ .
(*) عن هذا الجامع انظر: ملحق الصور رقم ١٩، ٢٠ في نهاية الكتاب .

السادس الهجري إذ يقول :

هو من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين ، وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه .

وقد انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يطلب منه إشخاص إثني عشر ألفاً من الصناع من بلاده ، فشرع في بنائه وبلغت الغايات في التأنق فيه ، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بـ « الفسيفساء » وخلطت بها أنواع من الأصبغة ، وقد مثلت أشجاراً ، وفرعت أغصاناً ، وكان مبلغ النفقة فيه أحد عشر ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار .

والوليد هذا هو الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى وأدخلها فيه لأنه كان قسمين ، قسماً للمسلمين وهو الشرقي ، وقسماً للنصارى وهو الغربي ، لأن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه دخل البلد من الجهة الغربية فانتهى إلى نصف الكنيسة ، وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ، ودخل خالد بن الوليد رضي الله عنه عنوة من الجانب الشرقي ، وانتهى إلى النصف الثاني وهو الشرقي ، فاحتازه المسلمون وصيروه مسجداً ، وبقي النصف الآخر المصالح عليه كنيسة بأيدي النصارى ، إلى أن عوضهم منه الوليد فأبوا ذلك ، فانتزعه منهم قهراً فلما تولى عمر بن عبد العزيز عوّضهم منه بمال عظيم أرضاهم به فقبلوه[1] .

ويبدو لي أن الوليد لم ينتزع هذه الكنيسة قهراً كما يقول ابن جبير ،

---

(١) رحلة ابن جبير ص ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ بتصرف .

وإنما الواقع والذي اتفق عليه غالبية المؤرخين أن الوليد أرضاهم وعوضهم عنها لأن هناك أماكن في دمشق فتحت عنوة لعل من بينها كنيسة « توما » الكبيرة حيث أوضح لهم إن لم يرضوا بذلك فسوف يهدم كنيستهم تلك ، فرضوا بذلك ، وهدمت الكنيسة وألحقت بالجامع .

يتألف المسجد من صحن مستطيل طوله مائة وستون متراً ، وعرضه مائة متر ، وطول جدار القبلة في بيت الصلاة مائة وستة وثلاثون متراً ، وعرضه سبعة وثلاثون متراً[١] .

ويشير الدكتور زكي محمد حسن إلى أنه من المحتمل أن يكون تصميمه متأثراً بنظام الكنائس السورية[٢] .

والواقع أنني لا أميل إلى هذا الرأي الذي قال به الباحث لأن المساجد لم تأخذ تصاميمها من الكنائس في يوم من الأيام ، والفارق كبير جداً بين تصاميم المساجد وبين تصاميم الكنائس[*] .

ويشير البعض إلى أن هذا المسجد قد احتفظ بمعظم عناصره التخطيطية التي بني عليها في عهد الوليد بن عبد الملك بالرغم مما تعرض له من أحداث جسام في العصور التالية . وبالرغم من الحرائق التي أتلفت أجزاء كبرى منه ، ومن أعمال الإصلاح والتجديد التي تمت فيه وشوهت بعض آثاره العتيقة ، وبالرغم من أن القبة التي تتوسط بيت الصلاة فيه والتي أقيمت هي ودعاماتها في عهد السلطان ملكشاه في سنة ٤٧٥هـ ١٠٨٢م قد غيرت من مظهريه الداخلي والخارجي[٣] .

---

(١) المدخل ص ٢١٨ . (٢) فنون الإسلام ص ٤١ .
(*) عن هذا الموضوع انظر: الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب .
(٣) المدخل ص ٢١٨ .

وقد صرف الوليد عنايته إلى إقامة مسجد في دمشق يتناسب وعظمة العاصمة ، حيث دام بناؤه ما يقرب من ثمان سنوات ، أنفق فيها على المسجد خراج سبع سنين كما يقول العديد من المؤرخين .

وقيل إن من عجائب مسجد دمشق أنه لو بقي الرجل فيه مائة سنة لرأى في كل وقت أعجوبة لم يرها من قبل(١) .

وبالرغم مما في هذا الكلام من مبالغة إلَّا أنه يعطينا صورة صادقة عن دقة الصنع في هذا المسجد العظيم .

ويحتل هذا الجامع مكانة بارزة في تاريخ العمارة العربية الإسلامية ، سواء من ناحية تخطيطه أو بالنسبة لأهمية عناصره المعمارية والزخرفية .

كما يعتبر هذا المسجد آية من آيات الفن العربي الإسلامي ، حيث غلا الوليد بن عبد الملك في بنائه حتى رماه البعض بقصر النظر والتبذير ، فكان محرابه مرصعاً بالجواهر ، عليه قناديل الذهب والفضة ، ومحلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية ، فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز رأى أن المال الذي أنفق على المسجد كثير ، حيث تأثر بيت المال من جراء ذلك ، فعول على أن يتدارك الأمر فينزع الفسيفساء ، ويستعيض بالحبال عن السلاسل الذهبية التي علقت بها المصابيح ، والتي قيل بأنها بلغت ستمائة سلسلة من الذهب ، ولكن اتفق أن وصل إلى دمشق سفراء من قبل امبراطور الروم ، ورغبوا في زيارة المسجد ، فوكل بهم عمر رجلاً يعرف لغتهم ، فلما دخلوا المسجد ورأوا عظمته وبهاءه نكس رئيس الوفد رأسه واصفر لونه فسأله من معه عن أمره فقال :

---

(١) معجم البلدان جـ ٤ ص ص ٧٦ ـ ٧٧ .

« إنا معشر أهل رومية نقول إن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها » فلما وصل هذا الكلام إلى مسامع الخليفة عمر بن عبد العزيز قال : إني أرى أن مسجدكم غيظ على الكفار ، وترك ما عزم عليه[1] .

ويبدو لي أنه من غير المعقول أن يرضى خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز بإدخال الكفار إلى المسجد لمجرد الزيارة ، ولكن يحتمل أن يقتصر ذلك على الإطلاع على المسجد من الخارج لا أن يتجولوا في أرجائه من الداخل ، وهذا هو الأقرب للواقع .

ولقد أصبح الجامع الأموي مركزاً هاماً من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي إذا اشتمل على حلقات للتدريس يقوم بها العلماء والفقهاء لتدريس الطلبة مختلف العلوم ، كما يوجد فيه مساكن للطلبة الغرباء ، بالإضافة إلى زوايا عدة كانت في المسجد يتخذها الطلبة للنسخ والانفراد .

يقول ابن جبير عن هذا الجامع :

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائماً ، ومثله إثر صلاة العصر ، وفيه حلقات للتدريس للطلبة وللمدرسين فيها إجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ومرافق هذا الجامع للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة ، وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس[2] .

---

(١) العمري/ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ ١ ص ١٩١ ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير جـ ١ ص ٢١١ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، رحلة ابن بطوطة ص ص ٨٨ ـ ٨٩ .

كما أشار ابن بطوطة هو الآخر إلى حلقات التدريس في هذا المسجد إذ يقول :

ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم ، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة ، وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم ، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى وإنما يقرأون القرآن تلقيناً .

ومعلم الخط غير معلم القرآن ، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب ، وبذلك جاد خطه ، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره[1] .

ويشير ابن بطوطة إلى أن صحيح الإمام البخاري قد أملي في هذا الجامع إذ يقول :

« سمعت بجامع بني أمية عمره الله بذكره جميع صحيح البخاري على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ، ملحق الأصاغر بالأكابر « شهاب الدين أحمد بن أبي طالب » المعروف بابن الشحنة الحجازي في أربعة عشر مجلساً »[2] .

ومما يزيد في أهمية هذا المسجد هو أن كثيراً من القضايا المعضلة كانت تعقد في داخله ، مما لا يستطيع الوالي الانفراد فيها لوحده ، يقول عن هذا العمري :

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٨ .

وقد جعل في كل ركن من أركان المسجد الأربعة مشهداً اتخذ كل منها على أسماء الصحابة الأربعة ، فالشرقي بقبله مشهد على اسم أبي بكر ، وبه عدة خزائن وكتب وقف . وشاميه مشهد على اسم علي ، والغربي بقبله مشهد على اسم عمر « ويعرف الآن بمشهد عروة »(*) ، وبه شيخ حديث ، وجماعة من العلماء يستمعون الحديث بوقف مستقل ، وعدة خزائن كتب وقف ، وشاميه(**) مشهد على اسم عثمان ، وبه يصلي نائب السلطان في شباكه ، والحاكم الشافعي إلى جانبه ، وبهذا المشهد تعقد مجالس الحكام الأربعة والعلماء لفصل القضايا المعضلة التي لا ينفرد بها حاكم ، فيجتمعون بأمر نائب السلطان ، وينظرون في تلك الحكومة ، ويحكمون فيها بأجمعهم[1] .

ويضيف قائلاً : وهذا المسجد معمور بالناس كل النهار وطرفي الليل ، لأنه ممر المدارس والبيوت والأسواق ، وفيه ما ليس في غيره من كثرة الأئمة والقراء ، ومشائخ العلم والإقراء ، ووجوه أهل التصدير والإفتاء ، ووظائف الحديث ، وقراء الأسباع ، والمجاورين من ذوي الصلاح ، فلا تزال أوقاته معمورة بالخير ، آهلة بالعبادة ، قل أن يخلو طرفة عين في ليل أو في نهار من مصلٍّ ، أو جالس في ناحية منه لاعتكاف ، أو مرتّل لقرآن ، أو رافعاً عقيرته بأذان ، أو مكرراً في كتاب علم ، أو سائل عن دين ، أو باحث في معتقد ، أو مقرر لمذهب ، أو طالباً لحل مشكل ، من سائل ومسؤول ، ومفت ومستفت ، هذا إلى من يأتي هذا المسجد مستأنساً لحديث ، أو مرتقباً لقاء أخ ، أو متفرجاً في فضاء صحنه ، وحسن مرأى

(*) أي في زمان المؤلف العمري .

(**) لعله يقصد جنوبيه ، لأن شاميه كان مشهد علي .

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٢٠٢ .

القمر والنجوم ليلاً في سمائه ، هذا إلى فسحة الفضاء ، وطيب الهواء ، وبرد رواقاته أوقات الهجير وحسن مرائي ميازيبه أحيان المطر ، وفي كل ناحية من وجهها قمر[1] .

هذا ولم يقتصر التعليم في هذا المسجد على أبناء المسلمين فقط ، وإنما تعدى ذلك إلى انخراط العديد من أبناء أوروبا وغيرها إلى الدراسة في هذا المسجد على أيدي علمائه ، يقول البعض : هناك الكثيرون من علماء الدولة البيزنطية تلاميذ لشيوخ جامع دمشق الأموي ، وقد كشفت عن ذلك الدراسات الخاصة بمشكلة إنكار عبادة التصاوير ، أو ما يسمى باسم « اللاأيقونات » فقد تبين أن الذين قادوا الحركة ، وأنكروا على المسيحيين تقديس التماثيل والصور والصلاة إليها ، كانوا قد درسوا في الشام في المسجد الأموي ، واقتنعوا بأن عبادة التصاوير ـ على النحو الذي كان جارياً في الدولة البيزنطية ـ وثنية تشوب العقيدة ، وكانت الحجج التي ناقشوا بها خصومهم مأخوذة من كتب فقهاء المسلمين بلا جدال .

وكان « ليون بن قسطنطين » الذي أنشأ الدولة الأيسورية ، وهي من أقوى الدول في تاريخ الروم ، قد تعلّم قبل أن يصل إلى العرش في دمشق[2] .

ومصداقاً لما أشار إليه الكاتب فقد ذكر المسعودي عن « ليون » هذا بأنه كان فصيحاً بالعربية إلى جانب الرومية ، وكان قد ترك بلده « مرعش » وجاور في دمشق زمناً ، ودرس على الشيوخ فيها .

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٢٠٣ .
(٢) المساجد ص ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

وقد كان هناك العديد من العلماء والفقهاء ممن جلسوا للتدريس في هذا المسجد ، لعل من أبرزهم ، الخطيب البغدادي ، حيث كوّن حلقة كبيرة في المسجد كان الناس يجتمعون إليه في صبيحة كل يوم ، فيقرأ لهم دروساً في الحديث ، وكذلك الإمام الغزالي الذي أكمل كتابه « إحياء علوم الدين » في هذا المسجد .

كما لم يقتصر دور هذا المسجد على ما ذكر ، بل كان له دور بارز في حركة الجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين والمغول ، وأخيراً الاستعمار الحديث أثناء الانتداب الفرنسي على سوريا .

يقول البعض في هذا :

وكان الأموي مثابة الجهاد الوطني في عهد الانتداب ، ففيه تلقي الخطب ، وفيه تعد المظاهرات ، ومنه تسري روح النضال في الناس ، فكان للدين والدنيا ، وللعبادة والعلم ، ولكل ما فيه رضا الله ، ونفع الناس ، وهكذا يكون المسجد في الإسلام[1] .

فمن على منبر هذا المسجد تعلن القرارات ، وتذاع أوامر الدولة وسياستها الداخلية والخارجية، فهذا العز بن عبد السلام يقف خطيباً داعياً لمحاربة الصليبيين والتتار ، رغم التهديدات التي يتعرض لها .

وهذا شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الذي امتطى صهوة جواده حاملاً المصحف في يد ، والسيف في اليد الأخرى ، نراه يدفع التتار وأعوانهم بالسيف تارة ، وبالحجج والبراهين تارة أخرى .

---

(١) الجامع الأموي في دمشق ص ٢١ .

هذا هو الجامع الأموي في دمشق ، وما قام به من أدوار بـطولية في مجالات متعددة علمية ، وسياسية ، واجتماعية ، وغيرها ، لم يتوان لحظة واحـدة عن مهمته التي أوجـد من أجلهـا ، منـذ أن بنـاه الخليفـة الأمـوي « الوليد بن عبد الملك » حتى يومنا هذا .

الفصل الثاني

مساجد مصر

جامع الفسطاط ـ الجامع الطولوني ـ الجامع الأزهر

جامع عمرو بن العاص في الفسطاط(*)

عندما فتح المسلمون مصر زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد الفاتح القائد « عمرو بن العاص » رضي الله عنه ، أسس مدينة الفسطاط ، وأنشأ فيها مسجداً سنة ٢١هـ سمي باسمه ، وكان يسمى بالمسجد العتيق ، وتاج الجوامع[1] . ويعتبر رابع مسجد جامع أقيم في الإسلام بعد مساجد كل من : المدينة المنورة ، والكوفة ، والبصرة ، كما يعتبر أول مسجد أسس بمصر بعد الفتح الإسلامي .

وكان هذا المسجد غاية في البساطة ، يقول في هذا ابن دقماق : عندما عزم عمرو بن العاص على بناء المسجد وقف على إقامة قبلته ثمانون رجلاً من الصحابة منهم : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفاري ، وغيرهم .

ويضيف قائلاً : بأن القبلة كانت مشرقة جداً ، وأن قرة بن شريك لما هدم المسجد وبناه زمن الوليد بن عبد الملك تيامن بها قليلاً ، ولم يكن

(*) عن هذا الجامع انظر: ملحق الصور رقم ٢١ ص٣٥٩.

(١) الخطط المقريزية/ جـ ٣ ص ١٠٧ .

للمسجد محراب مجوف أيام عمرو ، وإنما وضع المحراب قرة بن شريك ، لأن أول من أحدث ذلك هو عمر بن عبد العزيز عندما كان عاملاً للوليد[١] .

وقد بلغت مساحة المسجد وقت إنشائه ثلاثين ذراعاً عرضاً، وخمسين ذراعاً طولاً[٢] وبنيت حوائطه باللبن ، وفرشت أرضه بالحصى ، وأعمدته من جذوع النخل ، وسقف بالجريد . وقد وصفه ابن دقماق قائلاً : هو إمام المساجد ، ومقدم المعابد ، قطب سماء الجوامع ، ومطلع الأنوار اللوامع ، عين قلادة البنيان ، وعقيلة بيوت الملك الديّان ، وموطن أولياء الله وحزبه ، ومنزل أشياع الدين وصحبه ، طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه ، وواظب على القيام بنواحيه ، وتقرّب منه إلى صدر المحراب ، وخرّ لديه راكعاً وأناب ، ومال إليه كل الميل ، وجنح إلى حضرته في جنح الليل ، وصرف همته لاجتناء ثمرة خيره ، وأدرك فضيلة جماعته التي لا تحصل أبداً في غيره[٣] .

وقد اتخذ عمرو بن العاص لهذا المسجد منبراً فلما علم الخليفة عمر بن الخطاب بذلك كتب إليه قائلاً : أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبيك فكسره عمرو[٤] .

ويقال بأن ملك النوبة « زكريا بن مرقيا » أهدى لعبد الله بن سعد بن

---

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها ص ٦٢ ، الخطط المقريزية جـ ٣ ص ١٠٩ .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ ابن تغري بردي جـ ١ ص ٦٧ ، القلقشندي/ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٣٧ .

(٣) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٥٩ .

(٤) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ١١٠ ، القلقشندي/ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٣٧ .

أبي سرح أثناء إمارته على مصر منبراً فجعله في الجامع[1] . وكان أول من زاد في المسجد المذكور هو الـوالي الأموي على مصـر « مسلمة بن مخلد الأنصاري » سنة ٥٣هـ ، وأقام فيه أربع مآذن جعل الوصول إليها من مراق خـارج الجـامـع ، إذ يقـول عن هـذا ابن دقمـاق : زاد مسلمــة بن مخلد الأنصاري في مسجد عمرو سنة ٥٣هـ من الجهة الشرقية وجعل له صوامع أربعاً في أركانه الأربعة[2] .

كما زاد فيه أيضاً عبد العزيز بن مروان سنة ٧٩هـ من الجهة الغربية .

وفي سنة ٩٢هـ أمر والي الأمـويين على مصر قـرة بن شريـك بهدم المسجد وإعادة بنائه وزيادته ، حيث أدخل فيه بعض دار عمرو بن العاص وابنه عبد الله ، كما أدخل الطريق الذي يقع بين الدارين والمسجد[3] ، كما أمر بعمل محـراب للمسجد ممـاثلاً للمحـراب الذي أحـدثه عمـر بن عبد العزيز بمسجد المدينة ، كما أحدث فيه المقصورة تقليداً لما فعله معاويـة بالمسجد في دمشق[4] كما أدخل فيـه الوالي العبـاسي صالـح بن علي دار الزبير بن العوام رضي الله عنه .

ثم توالت الزيادة فيه حتى سنة ٢١٢هـ وهي الزيادة التي أحدثها فيه عبد الله بن طاهـر الوالي العبـاسي على مصر من قِبـل الخليفة المـأمون ، حيث تضاعفت مساحة المسجد ، وتعتبر هذه الزيادة التي قام بها ابن طاهر هي أضخم التوسعات في المسجد الجامـع ، كما تعتبـر أيضاً هي خـاتمة

---

(١) صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٣٨ ، النجوم الزاهرة جـ١ ص ٦٩ .

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٦٢ ، النجوم الزاهرة جـ١ ص ٦٨ .

(٣) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٦٤ .

(٤) صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٣٨ .

التوسعات التي حدثت فيه ، حيث بقي محتفظاً بمساحته تلك حتى الآن . إذ يقول البعض : وكانت أكثر الأعمال أهمية في المسجد تلك التي أجراها فيه عبد الله بن طاهر ، وكان ذلك سنة ٢١٢هـ وقد تضاعفت بهذه الأعمال مساحة المسجد عن ذي قبل ، واحتفظ المسجد العتيق منذ ذلك التاريخ بحدوده ومساحته التي ينحصر فيها اليوم إذ لم يزد فيه أحد من بعد .

ويضيف قائلاً : ولم يبق من هذا المسجد غير عناصر تخطيطية ، وآثار متناثرة من نوافذه وزخارفه[١] . ويؤيد هذا ما أشار إليه الدكتور حسين مؤنس إذ يقول :

وفي سنة ٢١٢هـ بلغ الجامع مساحته الحالية على يد عبد الله بن طاهر والي المأمون ، وقد ثبت الجامع على تلك المساحة إلى الآن وهي ١١٢,٥ × ١٢٠ متراً ، أي ما يساوي خمسة عشر ألف متر على وجه التقريب[٢](*) .

ويقول الدكتور أحمد فكري بأن الثابت تاريخياً والمتفق عليه بين جميع علماء الآثار أن حدود المسجد الحالية هي نفس الحدود التي كانت له في سنة ٢١٢هـ بعد زيادة عبد الله بن طاهر له ، لم تزد عنها منذ ذلك التاريخ ولم تنقص ، إذ أن جدار القبلة فيه يمتد مائة وتسعة أمتار ، وجدار مؤخرته يقل عن ذلك أربعة أمتار ، وكان طول جداره الشرقي مائة وعشرين متراً ، ويقل طول جداره الغربي عن ذلك ثلاثة أمتار ، وكان جوف بيت الصلاة فيه يمتد سبعة وثلاثين متراً ، وكان طول واجهة هذا البيت المطلة

---

(١) المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ص ٧٠ .

(٢) المساجد ص ١٧٦ .

(*) تبلغ مساحة المسجد بالأطوال المذكورة ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة متر لا كما أشار إلى ذلك المؤلف/ لملاحظة ذلك .

على الصحن اثنين وخمسين متراً تقريباً، وكان عرض هذا الصحن حوالي اثنين وثلاثين متراً[1] .

أما ابن دقماق فقد قال عن هذا : كان بمسجد عمرو ثلاثمائة وثمانية وسبعون عموداً ، وثلاثة محاريب ، وثلاثة عشر باباً ، وخمس مآذن هي : غرفة ، الكبيرة ، الجديدة ، المستجدة ، السعيدة[2] . ويقع ثلاثة من هذه الأبواب بالجدار البحري ، وخمسة في الجدار الشرقي ، وأربعة في الجدار الغربي ، وواحد في الجدار القبلي .

ويشير البعض إلى أنه لم يبق من الجامع الأصلي الذي بناه عمرو غير البقعة من الأرض التي شيد عليها ، وتوجد هذه البقعة في رواق القبلة في النصف الشمالي من المسجد أي على يسار الواقف أمام المحراب الأوسط متجهاً نحو القبلة[3] .

ما أن فتح المسلمون مصر سنة ٢١هـ بقيادة عمرو بن العاص وأسسوا جامعها في الفسطاط ، حتى جعلوا منه معهداً علمياً كبيراً كانت منه نواة حركة علمية كبرى ، ليس في مصر وحدها ، بل في مدن أخرى كثيرة ، ومنذ ذلك الحين أخذ هذا الجامع يخطو خطوات واسعة في نشر مبادىء الدين الإسلامي وتعاليمه القويمة ، ولهذا فقد أصبح مركزاً علمياً هاماً لنشر الحضارة العربية الإسلامية وإشعاعها، كما كان بالإضافة إلى ذلك مركزاً للحكم في الخصومات .

ومن أشهر العلماء الذين أفادوا العالم الإسلامي بعلمهم وتأليفهم ،

---

(١) المدخل ص ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٣) مدخل إلى الآثار الإسلامية/ ص ٦٢ .

عبد الله بن عمرو بن العاص الذي يعتبر بحق أول من جلس للتدريس في هذا المسجد ، فكانت له حلقة فيه يدرس فيها ـ لعدد كبير من الطلبة ـ الحديث متناً وشرحاً ، وحلقة أخرى يدرس طلبته اللغة السريانية ، حيث قيل بأنه كان يجيدها . وقد وضع في هذا المسجد كتابه في الحديث الذي سماه « الصادقة » وألّف كتابه الآخر « أقضية الرسول » وكتابه « أشراط الساعة » .

وبهذا يعتبر عبد الله بن عمرو أول فقيه ومعلم بمصر .

وممن اشتهرواْ في التدريس في هذا المسجد الإمام الشافعي رحمه الله ، الذي قدم إلى مصر سنة ١٩٩ أو سنة ٢٠١هـ حيث كون حلقة في المسجد ، كانت هي أول مدرسة لتدريس الفقه ، وذلك بعد أن عرض مذهبه على الناس .

وقد ذاعت شهرة الشافعي فكان كتابه « الأم » في الفقه ، والسنن في الحديث، من أهم مؤلفاته التي اشتهر بها ، وقد ألّف كتابه « الأم » في هذا المسجد ، وكان الشافعي رحمه الله يبدأ بالتدريس عقب صلاة الصبح ، فيجلس إليه طلبة الحديث ثم الفقه ثم اللغة .

وقد حدد ابن بطوطة موضع الزاوية التي كان الإمام الشافعي رحمه الله يدرّس فيها ، إذ يقول : وبشرق المسجد تقع الزاوية حيث كان يدرّس الإمام أبو عبد الله الشافعي[1] .

ولقد بقي الشافعي في هذا المسجد يفيض على الناس من علمه حتى مرض مرضه الأخير الذي مات فيه .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٣٧ .

وممن جلسوا للتدريس في هذا المسجد أيضاً « محمد بن جرير الطبري » المفسّر والمحدّث والفقيه والمؤرخ ، إذ قدم إلى مصر ، وبطلب من أبي الحسن بن سراج أملى دروساً في التفسير والفقه والحديث واللغة والشعر ، ولعل أشهرها إملاؤه شعر الطرماح في هذا المسجد ، يقول ياقوت في معجمه عن ذلك :

ثم صار الطبري إلى الفسطاط في سنة ٢٥٣هـ ، وكان بها بقية من الشيوخ وأهل العلم ، فأكثر عنهم الكتابة ، من علوم مالك والشافعي وابن وهب وغيرهم ، ثم عاد إلى الشام ، ثم رجع إلى مصر ، وكان بمصر وقت دخوله إليها « أبو الحسن علي بن سراج المصري . وكان متأدباً فاضلاً في معناه، وكان من دخل الفسطاط من أهل العلم إذا ورد لقيه، وتعرض له، فوافى أبو جعفر إلى مصر ، وبان فضله عند وروده إليها في القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، فلقيه أبو الحسن بن سراج فوجده فاضلاً في كل ما يذاكره به من العلم ، ويجيب في كل ما يسأله عنه ، حتى سأله عن الشعر ، فرآه فاضلاً بارعاً فيه ، فسأله عن شعر الطرماح ، وكان من يقوم به مفقوداً في البلد ، فإذا هو يحفظه ، فسئل أن يمليه حفظاً بغريبه ، فكان يملي هذا الشعر عند بيت المال في الجامع[1] .

كما جلس للتدريس في هذا المسجد أيضاً « عبد الله بن وهب » المصري المشهور ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة المصري ، وابن عبد الحكم المؤرخ المصري المشهور أيضاً ، كل هؤلاء جلسوا في هذا المسجد وأملوا دروسهم فيه .

كما كان هناك القاضي « إسماعيل بن اليسع » الكوفي الذي رحل من

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٨ ص ص ٥٠ ـ ٥١ .

العراق إلى مصر واتخذ من هذا المسجد مدرسة لتدريس الفقه الحنفي ، وهو أول من أدخل المذهب الحنفي إلى هناك .

وإلى جانب حلقات الدروس كانت هناك أيضاً حلقات للوعظ والإرشاد ، فممن اشتهر في هذا الجانب من الوعظ في هذا المسجد « الليث بن سعد » .

وقد اتخذ العديد من العلماء لهم زوايا في هذا الجامع ، حيث أشار كل من المقريزي ، وابن دقماق إلى عدد من تلك الزوايا ، لعل من أشهرها :

١ ـ **زاوية الإمام الشافعي** : حيث يقال بأنه درّس بها ، ونسبت إليه ، وكان أعيان الفقهاء يتولون التدريس فيها ، وكانت تسمى حالياً الزاوية الخشابية .

٢ ـ **الزاوية المجدية** : وتنسب إلى مرتبها « مجد الدين » وزير الملك الأشرف موسى بن العادل ، وتقع بصدر الجامع فيما بين محراب الجمعة ، والمحراب الوسطاني داخل المقصورة الوسطى ، وقد قام بالتدريس فيها القاضي « وجيه الدين عبد الوهاب البهنسي » .

٣ ـ **الزاوية الصاحبية التاجية** : رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين بن محمد بن بهاء الدين بن حنا ، وعيّن لها مدرسين أحدهما شافعي ، والآخر مالكي ، وذلك لتدريس الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس ، وجعل عليها وقفاً بظاهر القاهرة .

٤ ـ **الزاوية المالكية** : وتقع بالمقصورة بالزاوية المجاورة لباب الجامع ، وقد رتبها القاضي كمال الدين السمنودي ، ودرس بها الفقيه

الإمام علم الدين عبد الله السمنودي ، ابن عم القاضي ، ثم ابنه شرف الدين ، ثم درس بها أيضاً نجم الدين القمولي .

٥ ـ **الزاوية التاجية** : هذه الزاوية تقع أمام محراب الخشب ، رتبها تاج الدين بن السطحي ، وكان يقوم بالتدريس فيها الفقيه زين الدين بن القابلة .

٦ ـ **الزاوية المعينية** : تقع في الجانب الشرقي من الجامع فيما بين بابيه المقابل أحدهما دار عمرو الصغرى ، والثاني مقابل زقاق حمام شمولي ، وقد رتبها الشيخ معين الدين الدهروطي ، وقام بالتدريس بها الفقيه « كمال الدين عبد الرحيم بن الأثير » ثم الفقيه تاج الدين بن عبد الكافي .

٧ ـ **الزاوية العلائية** : تقع في جانب صحن الجامع الغربي مما يلي القبلي ، وقد رتبها الأمير الحاج علاء الدين الضرير ، وكان شيخها الفقيه « علم الدين العراقي » ثم الفقيه « شمس الدين الجزري » ثم تاج الدين بن عبد الكافي[١] .

كما وصف الرحالة ناصر خسرو هذا الجامع عندما زاره في سنة ٤٣٩هـ إذ يقول عنه :

وفي المسجد حلقات درس دائمة ، وقراء كثيرون ، وذلك المسجد من معالم مصر البارزة ، ولا يوجد أقل من خمسة آلاف شخص في المسجد في أي وقت من أوقات الليل والنهار ، فساحات المسجد لا تخلو من طلاب العلم والغرباء ، والكتبة الذين يكتبون للناس الصكوك والقبالات[٢] .

---

(١) الخطط المقريزية جـ٣ ص ١٢٥ ، كتاب الانتصار/ ابن دقماق ص ١٠٠ .
(٢) رحلة ناصر خسرو « سفرنامة » ص ١٠٦ .

ومع ما في هـذا الكلام من مبـالغة بعض الشيء بـالنسبة لمـرتادي المسجد ليلاً ونهاراً إلَّا أنه في واقع الأمر يوضح لنـا العديـد من الناس في ذلك الوقت ممن يرتادونه في الليل أو في النهار ، إما لأداء العبادات ، وإما لطلب العلم .

هذا ولم تقتصر الزوايا وحلقات التدريس في هذا الجامع على الرجال فقط ، بـل كانت هنـاك أيضاً بعض الـزوايا للسيـدات ، لعل من أشهـرها الزاوية التي اتخذتها السيـدة نفيسة بنت الحسن ، حيث اتخـذت من هذه الزاوية مكاناً للعبادة ، وتعليم النساء ووعظهن، وكذلـك السيدة فـاطمة بن عفان بن عثمان البغـدادي ، حيث جعلت من زاويتها ربـاطاً لإيـواء النساء وتعليمهن . وفي العهد الفاطمي كان القاضي يجلس بزيادة جامع عمرو أيام السبت والثلاثاء على طراحة ومسند حريـر ، وذلك للفصـل بين الناس في الخصومات ، وكان الشهود يجلسون حواليه يمنة ويسرة ، وبين يديه خمسة من الحجاب . وقد سار نظام التعليم في هـذا المسجد منـذ عهوده الأولى مسيرة أكبر الجامعات في وقتنا الحاضر ، حيث يعتبر أول جامعة إسلامية ـ إذا جاز لنا تسميته بهذا الاسم ـ إذ كان هذا الجامع خيـر ينبوع انتهـل منه الـطلاب والعلماء ، حيث كـانت تدرس فيـه سـائـر العلوم من طب وفلك ورياضة وهندسة جنباً إلى جنب مع التفسير والحديث والفقه والنحو ، وقد أدى هذا المسجد رسالته خير أداء ، واعتنى به الخلفاء عنايـة فائقـة ، ولم يفقد هذا المسجد منزلته العلمية إلَّا بعد أن استولى العثمانيون على مصـر حيث هجره رواده ، واقتصر الأمر فيه على إقامة الشعائر الدينية فقط .

يقول البعض عن هذا : لقد ظل جامع عمرو بن العاص جـامعاً لـه مكانة خاصة في النفوس ، كما أنه شاهد مصر في مراحل حياتها التاريخية

المختلفة ، شاهدها وهي في قمة مجدها الحضاري ، وشاهدها وهي تنحدر نحو السفح ، شاهدها في انتصاراتها ، وشاهدها في هزائمها ، وسيظل دوماً وإلى الأبد المسجد الذي له مكانة في النفوس ، لأنه أول مسجد أقيم على أرض مصر يصعد من فوقه هذا النداء « الله أكبر »[1] .

وتقول عن هذا سعاد ماهر : كان جامع عمرو جامعة تعقد فيه حلقات الدرس على كبار العلماء والفقهاء ، فهو بذلك يكون قد سبق الجامع الأزهر في وظيفة التدريس بأربعة قرون ، إلَّا أن هناك فرقاً بينهما ، فبينما كانت دروس جامع عمرو تعطى تطوعاً وتبرعاً حسبة لوجه الله تعالى ، كانت الدروس بالجامع الأزهر بتكليف من الدولة ، والفرق الثاني بين جامع عمرو والأزهر يتمثل كذلك في مكان الدرس فإنه يطلق على أماكن الدرس في جامع عمرو اسم زاوية ، بينما تعرف في الجامع الأزهر باسم حلقة[2] .

ولم يقتصر دور هذا المسجد على الناحية العلمية والثقافية فقط بل تعداه إلى الناحية السياسية حيث اعتبر دار ندوة سياسية ، فمن على منبره وقف مؤسسه عمرو بن العاص خطيباً ، حيث خطب خطبة أبان فيها الطريق الأقوم الواجب اتخاذه في سلوك هذا السبيل ، من استعمال الحنكة والتريث في الأمور ، ومسايرة الحوادث ، فأنار للساسة طريق الأخذ بالصالح العام ، وما يعود على المجتمع بالنفع ، بل إن عمرو بن العاص هو الذي وجّه الناس إلى اتخاذ الحيطة في الأمور الصحية والاجتماعية ، وقاية للأنفس والأرواح من تفشي الأمراض المتعددة والمعدية بوجه عام ، إذ يقول في خطبته بعد الحمد والثناء على الله :

يا معشر الناس إياكم وخلالاً أربعة ، فإنها تدعو إلى النصب بعد

---

(١) بيوت الله ص ٩٤ . (٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ص ٧١ .

الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى المذلة بعد العزة ، إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، في غير درك ولا نوال ، ثم إنه لا بد من فراغ يئول إليه المرء في توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيحور من الخير عاطلاً ، وعن حلال الله وحرامه غافلاً .

يا معشر الناس : إنه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرىٰ ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر ، فحي لكم على بركة الله إلى ريفكم ، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، ثم أربعوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها ، فإنها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً ، فإن لهم فيكم ذمة وصهراً ، فكفوا أيديكم ، وعفواْ فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، ولا أعلمن ما أوتي رجل قد أسمن جسمه ، وأهزل فرسه ، واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة ، حططت من فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوق قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية ، فاحمدوا الله أيها الناس على ما أولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس العود ، وسخن الماء وانقطع الورد من الشجر ، فحي على فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال إلى عياله إلاَّ ومعه لعياله ما أطاق من سعته أو عسره[1] .

---

(١) بيوت الله ص ٨٢ نقلاً عن المقريزي .

والواضح من هذه الخطبة أنها تبين مدى حرص عمرو على أن يحتاط المسلمون من أعدائهم بأن يحافظوا على وسائل الحرب « الخيل والسلاح » وأن يوسعوا على أولادهم .

كما لم يقتصر دور هذا المسجد أيضاً على ما ذكرنا ، بل إن هناك من يشير إلى أن المسجد قد اتخذ بداخله بيت مال للمسلمين ، إذ قيل بأن بيت المال في الجامع بناه أسامة بن زيد التنوخي سنة ٩٩هـ ، وهو متولي الخراج بمصر من قبل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ، وكان مال المسلمين فيه ، وقد طرق المسجد ذات ليلة في سنة ١٤٦هـ إذ طرقه فوج كان قد بايع لعلي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عندما قدم إلى مصر ، إذ كان أول علوي يصل إليها ، فنهبوا بيت المال(١) .

الجامع الطولوني(*)

لما ضاقت العسكر بساكنيها أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع سنة ٢٥٦هـ ، وأقام في وسطها مسجده الجامع ، في موضع يعرف بجبل يشكر في القطائع بين مصر وقبة الهواء ، فيما بين عامي ٢٦٣هـ، ٢٦٥هـ الموافق ٨٧٦م ، ٨٧٩م .

ويبدو أن ضيق العسكر بساكينها لم يكن السبب الرئيسي في تركها وإنشاء مدينة جديدة تخلفها ، وإنما أراد ابن طولون أن ينشيء مدينة يخلد

---

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٦٥ .
(*) عن هذا الجامع انظر ملحق الصور رقم ٢٢ ، ٢٣ في آخر الكتاب.

فيها ذكره وتنسب إليه على غرار ما يفعل العديد من الأمراء والولاة والخلفاء ، ولهذا أسس مدينة القطائع إذ يقول البعض : وقد نزل ابن طولون عند قومه دار الإمارة في العسكر ، ولكنه لم يقم بها طويلاً ، إذ أراد أن ينشىء عاصمة جديدة له يزداد اطمئنانه إلى الإقامة فيها ، ويحقق بها أبهة الحكم الذي كان يطمح في الوصول إليه ، ويجعل منها نظيراً أو منافساً لبغداد عاصمة الخلافة العباسية في العراق ، فاختار لذلك مكاناً فسيحاً في سفح جبل يشكر إلى الشمال الشرقي من الفسطاط والعسكر .

وكان أحمد بن طولون قد استخلف على ولاية مصر سنة ٢٥٤هـ ثم تحول من العسكر بعد سنتين وأنشأ مدينة القطائع[١] .

وقد نسي الباحث أن عاصمة الخلافة العباسية آنذاك أثناء ولاية أحمد بن طولون على مصر هي سامراء ، وليست بغداد كما يشير إلى ذلك . عندما قال : بأن ابن طولون أراد أن يجعل من عاصمته الجديدة منافساً لبغداد عاصمة الخلافة العباسية ، لأن ولاية ابن طولون على مصر والواقعة فيما بين سنتي ٢٥٤هـ ، ٢٧٢هـ وهي السنة التي توفي فيها ، في تلك الفترة كانت عاصمة الخلافة العباسية سامراء ، وليست بغداد .

كما أن ابن طولون قد قُلِّد تلك الولاية وهو في عاصمة الخلافة سامراء .

وقد شرع في بنائه سنة ٢٦٣هـ وانتهى العمل منه سنة ٢٦٥هـ[٢] .

وقد دوّن تاريخ الانتهاء منه على لوح تذكاري رخامي مثبت على أحد

---

(١) المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ص ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٢) الخطط المقريزية جـ٣ ص ١٤٤ .

أكتاف رواق القبلة ، يحتوي على عدد من الآيات القرآنية وفي آخرها كتب النص التالي :

« أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين أدام الله لـه العزة والكـرامة في الآخـرة والأولى ، بناء هـذا المسجـد الميمـون من خالص ما أفاء الله عليه إبتغاء رضوان الله والـدار الآخرة ، وإيثـاراً لما فيـه إقامة الدين وألفة المؤمنين ، ورغبة في عمارة بيت الله ، وأداء فروضه وتلاوة كتابه ، ومداومة ذكره ، إذ يقول الله تقدّس وتعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ الآيات : . . . . في شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ مايو ٨٧٩م سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كأفضل ما صليت وترحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

وكان هذا التذكار هو أول تذكار من نوعه عرفته المساجد الإسلاميـة كما يقول مأمون غريب[1] .

وأول الجـوامـع التي أسست بمصـر هـو جـامـع عمـرو بن العـاص بالفسطاط سنة ٥٢١هـ ثم جامع العسكر سنة ١٦٩هـ ثم جامع ابن طولون سنة ٢٦٣هـ . وجامع ابن طولون وإن كان ثالث الجوامع التي انشئت بمصر

---

(١) بيوت الله ص ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

فإنه يعتبر أقدم جامع احتفظ بتخطيطه وكثير من تفاصيله المعمارية الأصلية ، يقول البعض في هذا :

« إذا كان لم يتخلف من أول مسجد أقيم بمصر غير عناصر تخطيطية ، وآثار متناثرة من نوافذه وزخارفه ، فإن المسجد الجامع الطولوني قد قاوم عاديات الزمان ، وصمدت عمارته وزخارفه أحد عشر قرناً ، واحتفظ بمعظم عناصره ، وبقي خالداً في حالة يمكن معها الاستدلال على نظامه وهيئته الكاملة التي كان يبدو عليها يوم الانتهاء من بنائه فهو لهذا أقدم المساجد القائمة بمصر ، وأعظمها قدراً وقيمة أثرية ، وهو كذلك أكثرها فسحة واتساعاً[1] ويقول آخر : ولا يزال جامع ابن طولون قائماً بين القاهرة والفسطاط في حي السيدة زينب الآن ، ولسنا نجهل أن المباني قد امتدت منذ قرون طويلة بين الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة حتى اتصلت عواصم مصر كلها واصبحت بلداً واحداً هو العاصمة الحالية[2] .

نعم لقد خلد هذا الجامع اسم بانيه إذ يقول عنه ستانلي لينبول :

على أن الأثر الذي خلد اسم ابن طولون حقاً هو جامعه الذي بقي وحده من مدينة القطائع العظيمة ، بعد أن خربتها الحرب الأهلية ، وفعل فيها الإهمال فعله ، والواقع أن هذا المسجد أبدع ما في مصر الإسلامية من آثار ، كما أنه كان نقطة تحول في تاريخ العمارة في مصر[3] .

ويشتهر الجامع الطولوني بمئذنته الفريدة في نوعها ، والتي لا يوجد لها مثيل في مآذن القاهرة . ومن المحتمل أنها اقتبست سلمها الخارجي من

---

(١) المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ص ١٠٣ .

(٢) الفن الإسلامي في مصر/ حسن: زكي محمد جـ ٢ ص ٣٨.

(٣) سيرة القاهرة ص ٨١ .

منارة جامع سامراء ، وهي تبتديء مربعة من الأسفل ، وتنتهي مثمنة تعلوها قبة ، ويبلغ ارتفاعها أربعون متراً .

وقد تحدّث الدكتور أحمد فكري عن هذه المئذنة إذ يقول :

تقع المئذنة في الزيادة الشمالية، وتلتصق بجدارها في موضع يقابل ما بين البابين الثالث والرابع من الشرق في جدار مؤخر المسجد، وقاعدة هذه المذئنة مربعة تقريباً مقاساتها ١٢,٧٥ متراً من الجانبين الشمالي والجنوبي ، ١٣,٦٥ متراً من الجانبين الآخرين ويقول بأنها كانت غريبة المظهر والبنيان ، فغرابة مظهرها لأن مدرج سلمها يلتف حولها من الخارج ، وغرابة بنيانها لأن معظمها بني من الحجارة ، بينما بني المسجد كله من الآجر ، وينفي أن تتشابه تلك المئذنة مع مئذنة جامع سامراء المسماة بالملوية ، إذ تختلفان عن بعضهما تماماً مظهراً وبنياناً ولا تتفقان في غير موضع السلم المدرج الخارجي في كل منهما[1] .

أما الدكتور حسن الباشا فقد اختلف رأيه في هذا عن رأي الدكتور أحمد فكري في ذلك إذ يقول : لقد تأثر مسجد ابن طولون كثيراً بالمسجد الجامع في سامراء، سواء من حيث التصميم، أو المئذنة ، أو الزخارف[٤] .

ويبدو لي أنه مهما كان الاختلاف واضحاً بين المئذنتين فإن تصميم مئذنة جامع إبن طولون قد اقتبس من مئذنة جامع سامراء لأن ابن طولون على الأقل قد عاش فترة من حياته هناك في سامراء وشاهد المسجد الجامع ومئذنته الملوية .

---

(١) المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ص ص ١١١ ، ١٨ .
(٢) المدخل إلى الآثار الإسلامية ص ١٤٣ .

ويعد جامع ابن طولون من أكبر مساجد العالم الإسلامي إذ تبلغ مساحته مع الزيادة ستة أفدنة ونصف الفدان أي ما يعادل ٢٦٢٤٤ متراً مربعاً بدون الزيادات كما يقول الباشا وسعاد ماهر[١] .

وقد عمد ابن طولون إلى أن يجعل من هذا المسجد جامعة علمية تضارع جامعة الفسطاط ، حيث نقل إليه القراء والفقهاء والطلبة ، وعين له القاضي بكار بن قتيبة إماماً وخطيباً ومدرساً للفقه ، وكذلك الربيع بن سليمان مدرساً للحديث ، حيث اتخذ الربيع بن سليمان من هذا المسجد مجلساً يجتمع إليه الطلبة فيه ، ومع كل واحد منهم ورّاق وكتبة يكتبون ما يلقي من الدروس .

وقد تحدث الرحالة ابن جبير عن هذا المسجد أثناء رحلته إذ يقول :

وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير ، المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون ، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة ، الواسعة البنيان ، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة ، يسكنونه ويحلقون فيه (أي يعقدون فيه حلقات الدرس) وأجرىٰ عليهم الأرزاق في كل شهر[٢] .

وقد رتب « لاجين » المسمى بالملك المنصور في هذا الجامع دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة التي عمل أهل مصر عليها الآن ، ودروساً لتفسير القرآن الكريم ، وأخرى لحديث رسول الله ﷺ ، ودروساً للطب ، وقرر للخطيب معلوماً وجعل له إماماً ومؤذنين وفراشين وقومة ، وعمل بجواره مكتباً لا قراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل ، وغير ذلك من انواع القربات ووجوه البر[٣] .

---

(١) المدخل إلى الآثار الإسلامية ص ١٤٢ ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ص ١٠٦ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٦ .

(٣) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ١٤٨ .

ويروي السيوطي : أن دروساً مختلفة رتبت في الجامع الطولوني ، إذ شملت التفسير والحديث والفقه على المـذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات . وقد جعل ابن طولون في مؤخرة المسجـد دار شفاء ألحق بهـا صيدلية أعد فيها من الأدوية وأنواع الشراب ما يلزم لإسعاف من يحدث له حادث من المصلين خصوصاً يوم الجمعة ، ورتب لهذه الصيدلية خدمها ، وعين لها طبيباً ، وألزمه بالتواجد يوم الجمعة استعداداً للطواريء[1] . وقد أصبحت هذه الدار فيما بعد مثابة لمئات الطلبة الذين يتلقون بها دروساً في الطب والعلاج ، ويتردد عليها الأطبـاء ، حيث ألقت مباحثهم الـطبية على أطباء الغرب ضوءً كبيراً .

ولم يقتصر دور هذا المسجد على ما ذكرنا ، بل إن هناك من يشيـر إلى أن أحمد بن طولون قد عني بأن يكون بنـاء مسجده قـوياً ليتخـذه إلى جانب الصلاة معقلاً له إذا تهدده خطر خارجي أو داخلي ، وليكون مدرسة دينية ، وداراً للحكومة ، إذ كانت تصدر منه أوامر الدولة ، كما كانت تعقد فيه المحاكم ، كما وضع ابن طولون في هذا الجامع خزانة ملآى بـالأدوية والأشربة التي يحتاج إليها المرضى ، وعين له طبيبـاً يقوم بـالإشراف على الحالة الصحية ، ويداوي ما قد يطرأ على المصلين يوم الجمعة .

وهكذا نرى بأن مسجد ابن طولون قد بني ليكون جـامعاً للصـلاة ، وقلعة محصنة ، ومحكمة ، ومستشفى ، فلا عجب أن بذل ابن طولون كثيراً من العناية به[2] .

والواقع أنني اختلف مع الكاتب في أن من أسباب إقامة هذا الجامع

---

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٨ .

(٢) الرفاعي أنور/ الإسلام في حضارته ونظمه ص ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

هو أن يكون معقلاً لابن طولون إذا تهدده خطر من الداخل أو الخارج فهو قد بني للوظيفة التي أوجد من أجلها ، مثله في ذلك مثل سائر المساجد الجامعة في البلدان الإسلامية ثم أنني لم أعثر على كتاب أشار بهذا من قريب أو بعيد .

ولم يقتصر دور هذا المسجد أيضاً على الجوانب العلمية والصحية والثقافية والاجتماعية بل تعدى ذلك إلى جوانب سياسية ، لعل من أبرزها ، هو أن مؤسسة أحمد بن طولون قد أعلن من على منبره لعن ولي عهد الخلافة العباسية أبو أحمد « طلحة الموفق » ذلك أن الموفق قد أمر بلعن أحمد بن طولون من على منابر المساجد في العراق وغيرها ، على أثر الخلاف الذي احتدم بين الاثنين عندما شعر الموفق بأن ابن طولون يحاول اجتذاب الخليفة المعتمد إلى صفه ، ودعوته للإقامة في مصر ، وكذلك عندما رفض ابن طولون أن يمد الموفق بمزيد من الأموال عندما طلبها الأخير أثناء حربه مع صاحب الزنج .

الجامع الأزهر(*)

إذا كان جامع عمرو بن العاص أول جامع أسس بالفسطاط ، فإن الجامع الأزهر هو أول جامع أسس في القاهرة ، ولكل من الإثنين زعامته ورسالته العلمية[1] .

ففي سنة ٣٥٩هـ تم على يد جوهر الصقلي قائد جيش المعزّ لدين الله الفاطمي فتح مصر ، بعد الإطاحة بإمارة الأخشيديين ، حيث اختط مدينة القاهرة المعزية ، وأسس بها أول جامع لهم هو الجامع الأزهر .

(*) عن هذا الجامع انظر: ملحق الصور رقم ٢٤، ٢٥ في آخر الكتاب .

(١) سعاد ماهر/ مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ص ١٩٤ .

شرع جوهر الصقلي ببناء الجامع حيث بدأ بذلك يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ الموافق أبريل سنة ٩٧٠م ، وانتهى العمل منه في رمضان سنة ٣٦١هـ[١] الموافق ٢٢ يونية سنة ٩٧٢م وأقيمت به أول صلاة للجمعة في اليوم السابع من ذلك الشهر الموافق ٢٢ يونية . وكان في المسجد نقش بالخط الكوفي بدائرة القبة التي في الرواق الأول ، وهي على يمنة المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة .

« مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي وذلك في سنة ٣٦٠هـ »[٢] .

وقد اختلف المؤرخون في أصل تسميته ، إلَّا أن البعض يشير إلى أن أصل التسمية إنما يعود إلى أن الفاطميين قد سموه بهذا الاسم تيمناً بفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ إشادة بذكرها ، حيث يدين هؤلاء بالمذهب الإسماعيلي على أرجح الروايات ، وقد رغب الفاطميون منذ تأسيسه بأن يجعلوا منه أداة لنشر المذهب الإسماعيلي الذي كانوا ينتمون إليه .

ويقال بأنهم أرادوا أن يجعلوا منه معهداً علمياً تدرس فيه شتى العلوم والمعارف حيث أنشأوا به أقساماً للدراسة ، ومساكن للطلبة ، وخصصوا له من بيت المال مبلغاً للصرف عليه لدوام استمرار التعليم فيه .

غير أن البعض ينفي أن يكون الجامع الأزهر قد انشيء ليكون جامعة أو معهداً للدرس ، فليس ثمة في ظروف إنشائه ما يدل على أنه أنشيء لمثل

---

(١) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ١٥٧ .
(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ١٥٧ .

هذه الغاية ، وإنما أنشيء الجامع ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية في حاضرتها الجديدة ، ومنبراً لنشر دعوتها ، ورمزاً لسيادتها الروحية .

أما فكرة الدراسة بالأزهر فقد كانت حدثاً عارضاً ترتب على فكرة الدعوة المذهبية الجديدة[1] .

ففي سنة ٣٦٥هـ وفي أواخر عهد المعز لدين الله بالذات جلس كبير القضاة « علي بن النعمان » القيرواني بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه في فقه الشيعة في جمع حافل من العلماء أثبت فيه أسماء الحاضرين ، ويعرف هذا المختصر بـ « الاقتصار » فكانت هذه هي أول حلقة للتدريس تعقد في الأزهر[2] .

وكانت الحلقات التي تبعتها هي في الواقع حلقات دعائية روحية سياسية هدفها نشر المذهب الإسماعيلي ليس إلَّا . وكانت هذه الحلقات تعقد في الغالب للأكابر والخاصة ولم تكن لها في البداية صفة الدرس العام .

ومن المعتقد أن وزير المعز ـ ومن بعده العزيز بن المعز ـ أبو الفرج يعقوب بن كلس[*] كان أول من فكر في جعل الجامع الأزهر معهداً للدراسة

---

(١) عنان/ محمد عبدالله/ الرسالة عدد ١٣٦ ذو القعدة سنة ١٣٥٤هـ فبراير ١٩٣٦م تاريخ الجامع الأزهر ص ٤١ .

(٢) نفس المصدر والمجلة والعدد والسنة ص ٦٦ .

(*) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس واسمه يدل على أصله الذمي ، كان يهودياً نشأ ببغداد وغادرها في شبابه إلى الشام ثم إلى مصر فالمغرب حيث اتصل بالخليفة المعز لدين الله هناك ، ولبث في خدمة المعز حتى تم فتح مصر على يد جوهر الصقلي فأسند إليه الخليفة المعز الكثير من شؤون الدولة ، وبعد وفاة المعز عينه العزيز وزيراً (تاريخ الجامع الأزهر/ عنان/ محمد عبد الله ص ص ٤٤ ـ ٤٥ .

المنظمة المستقرة ، ففي رمضان سنة ٣٦٩هـ جلس يعقوب الوزير بالجامع الأزهر ، وقرأ كتاباً ألفه في الفقه الشيعي على مذهب الإسماعيلية ، متضمناً في ذلك ما سمعه من المعز لدين الله وولده العزيز ، وهو المعروف « بالرسالة الوزيرية » نسبة إلى مؤلفها الوزير ، فكان هذا الوزير شخصية ممتازة تجمع بين السياسة والعلم ، وكان نصيراً كبيراً للعلماء والأدباء ، وكان يعقد مجالسه الفقهية والأدبية تارة بالجامع الأزهر ، وتارة بداره الخاصة ، فيهرع إليها العلماء والطلاب من كل صوب ، وكان الفرق بين مجالسه ومجالس بني النعمان هو تحرر مجالسه من القيود الرسمية ، واتجاهها نحو الغايات العلمية ، قبل اتجاهها نحو المثل المذهبية[1] .

وكانت تلك الحلقات هي أولى المجالس الجامعية التي عقدت في الأزهر .

وقد استأذن ابن كلس الخليفة العزيز سنة ٣٧٨هـ سنة ٩٨٨م في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجالسه ، وكان عددهم سبعة وثلاثون ، وقد رتب لهم العزيز أرزاقاً وجرايات شهرية ، وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر ، وبهذا يعتبر هؤلاء الفقهاء أول هيئة رسمية عينت للتدريس في هذا الجامع .

ويرجع الفضل في تتويج الأزهر بهذه الصفة الجامعة إلى الوزير ابن كلّس الذي أسبغ عليه لأول مرة صفة المعاهد الدراسية ، ورتب له أول فريق من الأساتذة الرسميين[2] وبهذا فقد استطاع ابن كلس أن يؤسس هذا المعهد العلمي تأسيساً بقي ذكره على مرّ الأيام والسنين تتعاقبه الأجيال جيلاً بعد جيل .

---

(١) تاريخ الجامع الأزهر ص ص ٤٢ ـ ٤٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٤ .

ففي عهده بدأ الأزهر يظهر كجامعة علمية عندما أمره العزيز أن يختار عشرة من علماء مصر للحضور للأزهر لتنظيم دراسته ، ولوضع برامج التدريس فيه بطريقة أمثل مما كانت عليه في عهد المعزّ ، وترأس يعقوب هؤلاء الجماعة ، وعهد إلى كل منهم باختصاص خاص ، فكان له في كل اسبوع حصة يدرّس فيها الطلبة العلوم الشرعية ، وحصة أخرى يدرّس فيها العلوم الكونية ، وهو أول من أدخل في الأزهر مادة الاقتصاد ، حيث تحتفظ المكتبة الإسلامية ليعقوب هذا بخطب مجموعة في مؤلف خاص ، وذلك مما كان يلقيه على الطلبة في هذا الفن . واستمر في تدريس الطلبة حتى جعل منهم علماء تولوا التدريس في الأزهر للطلبة الوافدين على هذه الجامعة من مختلف الأقطار الإسلامية[1] .

وقد تمكن الأزهر في خلال تلك الفترة وما بعدها أن يؤدي رسالته على الوجه الأكمل للعالم الإسلامي في الشرق والغرب ، بل بعث الأزهر بصوته عالياً حتى جاب أرجاء الغرب ينادي بمباديء الإسلام ، وأن الدين الإسلامي هو خاتم الأديان ، إذ التجأت الكنائس البروتستانتية إلى إصلاح عقائدها التي شابها الكثير من التبديل والتحريف والتي استمدتها من تعاليم الإسلام والتي وصلت إليها عن طريق الأزهر ، بل وصل التأثير إلى أوروبا وخصوصاً قلب روما معقل النصرانية ذاتها ، حتى أنه وجد أثناء الحرب العالمية العديد من الكتب الإسلامية في مكتبات روما ، ومن ذلك قول أحد دهاقنة روما وقد شعر بما شعر به أسلافه عن عظمة الدين الإسلامي حيث قال : «إن في مباديء الإسلام وتعاليمه ما يبتغيه العالم من إصلاح في دينه ودنياه» .

---

(١) مجلة الرسالة عدد ١٣٦ القعدة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م/ مقال/ بعنوان : الوزير ابن كلس واضع الحجر الأول في صرح الجامعة الأزهرية .

ولا غرابة في ذلك ، فقد صار الأزهر في ذلك الوقت موئل علماء الدين في كل البقاع الإسلامية منذ غارات الصليبيين على الشام ومصر ، واكتساح التتار من بعدهم للعديد من البلدان الإسلامية خاصة بعد سقوط بغداد على أيديهم ، بزعامة هولاكو حفيد « جنكيزخان » سنة ٦٥٦هـ .

ومنذ ذلك الوقت نرى أن علماء المسلمين ممن ابتلوا بهؤلاء يفرون إلى مصر ليجدوا في الأزهر ملجأً لهم ، وكذلك عندما سقطت الأندلس في يد الفرنجة كان الأزهر أيضاً مستقر علمائهم ، وبذلك صار الأزهر مجتمع علماء الإسلام ، تشرئب إليه أعناقهم حتى بعد أن استقرت الأوضاع في بلاد المشرق ، فالأزهر ما زال مطمح الأنظار ، وملتقى العلوم الإسلامية ، ومحط آمال المسلمين ، وفي هذا يقول الأبراشي :

الأزهر هو الجامعة الإسلامية الكبرى ، به زال الجهل في عصور انتشرت فيها الجهالة ، وصارت حياة العلم خالدة ، فكثيراً ما بزغت فيه شموس وأقمار ، وغردت فيه بلابل المتعلمين والمعلمين في العشي والإبكار[1] .

وقد كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة أعمدة معينة لا يجلس للتدريس بجانبها غيرهم ، وكان الطالب حراً في اختيار أستاذه ، واختيار الحلقة التي يريدها إلى جانب اعتماده على نفسه في إعداد دروسه .

وقد درّس في هذا الجامع فطاحل وعمالقة العلماء في كل علم وفن ، وكان من أشهر هؤلاء : ابن خلدون الذي ألّف كتابه المشهور « العبر » ومقدمته التي نالت شهرة في الآفاق في رحاب هذا المسجد ، كما عمل

---

(١) التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٨١ .

قاضياً بعد رحيله من المغرب واستقراره في مصر ، وأسهم بقسط وافر في حلقات الدرس التي تعقد في الجامع الأزهر ، إذ يقول عن نفسه في الكتاب المسمى « التعريف بابن خلدون » :

« وانثال علي طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعوني عذراً فجلست للتدريس بالجامع الأزهر »[1] .

كما جلس للتدريس في هذا الجامع كل من السيوطي والمقريزي والقلقشندي .

كما تولى المقري التدريس بهذا الجامع ، وألقى فيه معظم دروسه في الحديث ، وكان من آثار إقامته بمصر أن ألّف كتابيه الشهيرين : الأول : نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، والثاني : أزهار الرياض .

ولعل من أشهر العلماء الذين قاموا بمهمة التعلّم والتعليم في الجامع الأزهر ما ذكره البعض إذ يقول : « ولقد حفلت مصر في القرن التاسع الهجري وما بعده بجمهرة من أعظم العلماء والكتاب ، بلغ الأزهر فيها عصر الذروة من أمثال : الحافظ بن حجر العسقلاني ، وأبي العباس القلقشندي صاحب موسوعة صبح الأعشى ، والمقريزي صاحب الخطط ، وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة ، والسخاوي صاحب الضوء اللامع ، وجلال الدين السيوطي صاحب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، كما كان من أشهر من وفدوا على مصر واشتركوا في حلقات الأزهر العلامة الفيلسوف والمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ، إذ كان جلوسه في الأزهر حدثاً علمياً ذا شأن ، إذ درس عليه جماعة من أكابر العلماء من

---

(١) التعريف بابن خلدون/ ابن خلدون ص ٢٦٦ .

أمثال ابن حجر ، والقلقشندي ، والمقريزي .

هذا فيما يتعلق بالعلماء الأوائل ، سواء من تلقوا علومهم في هذا الجامع أو كونوا حلقات للدرس واستفاد منهم الكثير من طالبي العلم .

أما ما يتعلق بمن تخرج من هذا الجامع من المحدثين فقد كان عدد ممن قاموا بالنهضة الفكرية في مصر والعالم العربي من طلاب الأزهر ، وهم كثيرون جداً أكتفي بالإشارة إلى نفر منهم مثل : عبد الرحمن الجبرتي ، ورفاعة الطهطاوي ، وعلي مبارك ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، ورشيد رضا ، وعبد الله النديم ، وطه حسين ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، وأحمد حسن الزيات ، وعلي عبد الرازق ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد مصطفى المراغي[1] .

وقد كانت معظم العلوم تدرس في هذا الجامع ، إذا يقول المقريزي عن هذا الموضوع :

فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، والاشتغال بأنواع العلوم كالفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره .

كما أن أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، وتحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لا سيما في المواسم[2] .

---

(١) المساجد ص ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
(٢) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ١٦٣ .

لم يكن الأزهر جامعة وطنية بالمعنى المفهوم اليوم ، بل كان جامعة العالم الإسلامي بأسره يؤمه الطلاب من جميع أنحاء العالم .

وقد ظل الجامع الأزهر ملاذاً لعلوم الدين ، ومعقلاً للغة العربية حينما استولى العثمانيون على البلاد العربية ، ومن بينها مصر ، حيث استكنت هذه اللغة بعض الشيء داخل الأزهر طيلة الحكم العثماني ، ثم بدأت في الظهور بمجرد انتهاء ذلك الحكم ، وكانت مهمة الأزهر تلك تتمثل في الاحتفاظ باللغة العربية ، وهذه من الصعوبة بمكان حتى أن البعض من المؤرخين يعتبرها من أعظم ما وفق الأزهر لاسدائه لعلوم الدين واللغة العربية من خدمات جليلة ، بل لعلها من أعظم ما قام به الأزهر منذ إنشائه حتى الآن .

وقد أضيف إلى الجامع الأزهر بعض المدارس التي أقيمت بين جنباته كان من أشهرها :

١ ـ المدرسة الطيبرسية : تقع على يمين الداخل إلى الجامع الأزهر ، وقد أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش في دولة الناصر محمد بن قلاوون المملوكي ، وقرر بها دروساً للفقهاء الشافعية وألحق بها ميضأة .

٢ ـ المدرسة الاقبغاوية : تقع على يسار الداخل إلى الجامع ، وقد أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد، وعندما أصدر الخديوي عباس حلمي الثاني أمره بإنشاء مكتبة للأزهر سنة ١٣١٤هـ اتخذت هذه المدرسة مقراً للمكتبة حيث أصلحت وجمعت الكتب من بعض أروقة الجامع الأزهر وغيرها وأودعت بها[1] .

---

(١) تاريخ المساجد الأثرية جـ ١ ص ٥٦ ، ٦١ .

وقد ظل الأزهر ينشر أضواء العلم أكثر من ألف عام حتى أصبح أقدم وأحدث جامعة عرفتها مصر ، كما كان قلعة ضد الظلم والإرهاب ، إذ تخرج منه أعلام في علوم الدين والدنيا ، ومنه خرجت المظاهرات تتحدى الذين يريدون بمصر السوء ، ووقف موقفاً رائعاً ضد المستعمرين الذين توالوا على أرض مصر ، فكان بذلك مناراً للعلم وحصناً للدفاع عن كرامة مصر[1] .

وعلى الإجمال فإن الأزهر قد قام بدور قيادي لا في تاريخ مصر فحسب بل في تاريخ الأمة العربية والإسلامية على مر العصور ، حيث قام بأدوار علمية ثقافية خالدة ، بعث فيها أشعة العلم والمعرفة في أقطار العالم الإسلامي ، وحفظ اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في عصور التدهور والانحطاط وسيادة الاستعمار الغربي على العديد من أقطار العالم الإسلامي ، كما قام بدور روحي خالد قاوم فيه شتى التيارات الإلحادية والانحراف والمذاهب الهدامة والحملات التبشيرية ، ودعاة الفوضى والانحلال .

أما الدور الذي قام به الأزهر من الناحية السياسية ومقاومة الاستعمار بكل أشكاله ومظاهره فإنه لا يقل أهمية عما قام به من النواحي الروحية والعلمية والثقافية والاجتماعية إن لم يزد عليها .

ولعل أبرز ما قام به الأزهر من دور سياسي ضد المستعمرين هو مناوأته للاحتلال الفرنسي حينما قام الفرنسيون بحملة على مصر في سنة ١٧٩٨م الموافق ١٧ محرم سنة ١٢١٣هـ وأرسى في مياه الاسكندرية بقيادة نابليون بونابرت ، في أول يوم من أيام يوليو من نفس السنة ، وعلى أثر

---

(١) بيوت الله ص ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

ذلك اندلعت ثورة عارمة في القاهرة يوم الأحد للحادي والعشرين من اكتوبر سنة ١٧٩٨م ضد الحكم الفرنسي ، على أثر الاجتماع الذي عقده أعضاء مجلس الثورة في الجامع الأزهر ، والمكون من ثلاثين عضواً ، وذلك مساء يوم السبت ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨م ، بالإضافة إلى عدد من رؤساء المماليك ، ولم يكن اجتماعهم ليثير شكوك الفرنسيين ، لأن الاجتماع يتم في المسجد ، كما أن الفترة التي اجتمعوا فيها وقعت بين موعد صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وهي لا تزيد في مجموعها عن ساعة ونصف الساعة تقريباً ، ولا غرابة في ذلك أي في البقاء في المسجد بين العشاءين ، فاستقر رأي الجميع على إشعال الثورة في صباح يوم الأحد ٢١ أكتوبر ، وأن يكون أول مظهر لها هو إغلاق الحوانيت ، ودعوة التجار والصناع والحرفيين إلى التوجه في هذا الوقت المحدد إلى الجامع الأزهر ، حيث تبدأ المسيرة الشعبية إلى القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية ، بحجة التظلم من فرض النظام الضريبي الجديد الذي صدرت به التشريعات المالية في اليوم السابق ، وقد وضع أعضاء مجلس الثورة في حسابهم أن يكون اجتماع هذه الحشود ومسيرتها في شوارع القاهرة مقدمة لإحداث الشغب ، والإخلال بالأمن ، مما يتيح الجو المناسب لإشعال الثورة ، وعلى هذا اتخذ دعاة الثورة من التشريعات المالية شرارة أوقدوا بها ثورة عارمة ، كانت بواعثها الدينية قد اختمرت في نفوس سكان القاهرة ، وحولتها إلى عداء ديني متأجج ضد الحكم الفرنسي .

اندلعت الثورة في القاهرة صباح يوم الحادي والعشرين من اكتوبر ضد الحكم الفرنسي ، وتسمى هذه الثورة « بثورة القاهرة الأولى » تمييزاً لها عن ثورة القاهرة الثانية التي قامت ضد خليفة نابليون الجنرال « كليبر » وقد دعا إلى هذه الثورة الأزهريون ، وعلى رأسهم الشيخ محمد السادات ،

حيث جعل الثوار من الأزهر مركزاً لقيادة الثورة ، وانطلق المؤذنون من مآذن المساجد في القاهرة يدعون المسلمين إلى الحفاظ على دينهم بالقيام على الفرنسيين ، وكانت استجابة المسلمين من سكان القاهرة والقرى المحيطة بها لهذا النداء الديني الثوري استجابة فورية ، فنفروا خفافاً وثقالاً يجاهدون الفرنسيين ، وأخذت شوارع القاهرة تموج بالثوار وهم يهتفون « نصر الله دين الإسلام »[1] .

وقد كان الجامع الأزهر ملتقى للمعارضين للحكم الفرنسي ، والساخطين عليه ، حيث ذكر نابليون بونابرت في مذكراته في أكثر من مرة إلى أن الناقمين على الحكم الفرنسي كانوا يجتمعون في رحاب الأزهر ، كلما صدر عن السلطات الفرنسية تصرف يسيء إليهم ، فقد ذكر نابليون أنه لما اصدرت الأوامر بهدم المقابر ، تقاطرت وفود سكان القاهرة إلى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية ، وكان يتزعم هذه الوفود الشعبية أئمة المساجد ومؤذنوها .

ويصفهم بونابرت بأنهم مسرفون في تعصبهم ، وأنه تكلموا أمامه بانفعال شديد ، وصبوا جام غضبهم على المهندسين الفرنسيين .

وعلى الرغم من أنه أصدر الأوامر بإيقاف عمليات هدم المقابر فوراً ، فإن المتظاهرين خرجوا من عنده ، وذهبوا إلى الجامع الأزهر ليتدارسوا الموقف .

ويعزو الدكتور الشناوي سبب الثورة بالدرجة الرئيسية : إلى استحالة إيجاد جو من التعايش بين الحكم الفرنسي لمصر الإسلامية ، وبين الشعب

---

(١) صور من دور الأزهر ص ٥٤ .

المصري بسبب اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين ، إذ كان الشعب المصري في القرن الثامن عشر يشكل مجتمعاً دينياً إسلامياً متزمتاً ينظر إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى .

وقد اعترف بونابرت في مذكراته بأن اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين هو العقبة الرئيسية التي تحول دون توطيد دعائم الحكم الفرنسي في مصر .

ويبدو أن التشريعات المالية التي فرضتها السلطات الفرنسية كانت واحدة من الأسباب التي دعت إلى القيام بالثورة ، حيث اتخذ الثوار من هذه التشريعات الجائرة شرارة ، أوقدوا بها ثورة عارمة ، مع أن الثورة كانت في لحمتها وسداها ثورة دينية ضد الاحتلال .

ففي صباح الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨م انطلق رجال الأزهر شيوخه وطلابه في شوارع القاهرة يتنادون إلى الثورة ، ويلهبون مشاعر الأهلين بدعوتهم إلى الجهاد المقدس ، ويطلبون منهم التجمع في الجامع الأزهر ، وقد تقاطرت تلك الوفود إلى الجامع الذي قيل بأن عددهم قد بلغ خمسة عشر ألفاً ، فاض بهم الحماس فأقسموا الأيمان على إحراز النصر أو الاستشهاد في سبيل الله ، ولما علم الحاكم العسكري لمنطقة القاهرة الجنرال « ديبوي » بأنباء الحشود في منطقة الأزهر قرر الانتقال إلى المنطقة ، فتحرك على رأس كتيبة ، إلَّا أن ضيق الشوارع مكّن الثوار من الإحاطة بالجنرال « ديبوي » وأمطروه وابلاً من الحجارة ومما زاد النار اشتعالاً هو أن « برتلمي اليوناني » فرط الرمان كما يسميه العامة أطلق عياراً نارياً قتل به أحد الثوار ، فازداد هياجهم ، واسترخصوا الموت في سبيل النيل من الفرنسيين ، وأصابوا الجنرال ديبوي بطعنة رمح في ثديه الأيسر

قطعت شريانه ، ففاضت روحه بعد دقائق ، بعدها انطلق الثوار يهـاجمون دوريـات الجنود من كـل مكان ، وتـركت جثث الفرنسيين في الشـوارع ، عندها استدعي بونابرت الذي كان خارج المدينـة آنذاك ، فـوجد أن لهيب الثورة قد عمّ أنحاء القاهرة ، وعلم في نفس الوقت أن الجامع الأزهـر هو مركز الثورة ، وأن الثوار قد أقاموا المتاريس والحواجز في الطرقات المؤدية إلى الجامع الأزهر ، وأنه قد غدا من المتعذر أن يقتحمه الجنود سواء كانوا مشاة أو فرساناً .

أصدر نابليون أوامره إلى الحاكم العسكري الجديد « بـون » خليفة ديبـوي وإلى الجنرال « دومارتا » قائد سلاح المدفعية ، بنصب المدافع على جبل المقطم ، وتعزيز مدفعية القلعة ، والتحرك إلى أماكن عدة من القاهرة .

وفي اليوم الثاني من قيام الثورة أصدر بونابرت أوامره إلى بعض قواته لمنع دخول أحد إلى القاهرة ، ونجحوا في صد حشود كثيرة ممن كانوا في طريقهم إلى القاهرة ، ولم يدخلهـا إلَّا من تمكن من دخولهـا في الليل أو أوائل الصباح الباكر ، وبهذا استطاع بونابرت حصر الثورة في القاهرة فقط ، وعزلها عن بقية المدن الأخرى ، كما تمكن الثـوار من قتل يـاور بونـابرت « سلكووسكي » .

وقد أصدر بونابرت أوامره إلى الجنرال « برتيـه» رئيس أركان حـرب الجيش بقصف الجامع الأزهر بالمدفعية ، وقتل الثوار ، وإحراق المنازل ، واحتلال الجامع بالجنود ، وتم ذلك بالفعل . كما احتلت كتائب من الجنود الدروب والطرق المؤدية إلى الجامع ، وبذلك تحصر القوات الفرنسية الثوار في الأزهر بين نارين ، قذائف المدفعية د وطلقات البنادق .

ويقول الجبرتي عن هذا القصف :

إن الفرنسيين ضربوا بالمدافع والبنبات ، على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر ، وجرروا عليه المدافع والقنبر ، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين ، كسوق الغورية والفحامين ، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام ، من هذه الآلام ، يا خفي الألطاف ، نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا في الشقوق ، وتتابع الرمي من القلعة والكيمان ، حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكايل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل[1] .

وقد استمر القصف إلى أن مضى من الليل ثلاث ساعات .

ويشير الجبرتي إلى أن نفاذ الذخيرة من الثوار كان سبباً في زعزعتهم وأن لا أمل لهم بالمواصلة إذ يقول : « وأما أهل الحسينية ، والعطوف البرانية ، فإنهم لم يزالوا مستمرين ، وعلى الرمي والقتال ملازمين ، ولكن خانهم المقصود ، وفرغ منهم البارود ، والافرنج اثخنوهم بالرمي المتتابع ، بالقنابر والمدافع ، إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات ، وفرغت من عندهم الأدوات ، فعجزوا عن ذلك وانصرفوا ، وكف عنهم القوم وانحرفوا[2] . وقد تمكن الجنود من اقتحام المسجد الجامع اقتحام الضواري ، وأعملوا القتل في بقايا الثوار الذين كانوا معتصمين داخله ، وقد اتسمت أعمال الجنود بطابعين :

١ ـ الانتقام ، ٢ ـ السلب والنهب .

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، جـ٢ ص ٢٢٠ ، المختار من تاريخ الجبرتي ص ٢٧٤ .

(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ ٢ ص ٢٢٠ ، المختار من تاريخ الجبرتي ص ٢٧٤ ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس جـ ١ ص ٩٧ .

فأما الانتقام : ففضلاً عن المذبحة التي ارتكبوها داخل الأزهر ، نراهم يربطون خيولهم في قبلته ويبولون ، ويقضون حاجتهم في شتى أرجائه ، ويلقون بالمصاحف على الأرض ويدوسون عليها بأحذيتهم .

أما أعمال السلب والنهب : فقد كسروا خزائن الطلبة ، ونهبوا ما وجدوه فيها من الأموال والودائع ذات القيمة المادية الكبيرة ، وقد وصف الجبرتي ذلك المشهد إذ يقول :

وبعد هجعة من الليل ، دخل الإفرنج المدينة كالسيل ، ومروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جند إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخل طائفة من باب البرقية ، ومشوا إلى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجعوا ، وعلموا باليقين ، أن لا دافع لهم ولا كمين ، وتراسلوا إرسالاً ، ركباناً ورجالاً ، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا في صحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأواني والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشنوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عرَّوه ، ومن ثيابه أخرجوه[1] .

وبعد أن تمكن الفرنسيون من السيطرة على الموقف في الجامع

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ ٢ ص ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، المختار من تاريخ الجبرتي ص ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس جـ ١ ص ٩٧ .

الأزهر ، سعى كبار علماء الأزهر أعضاء الديوان لمقابلة نابليون بونابرت ، حيث تمت المقابلة التي اتسمت بطابع جمع بين التقريع واللوم ، وبين إعلان الصفح عن سكان القاهرة ، بعدها ذهب العلماء إلى الجامع الأزهر ، وعملوا على تنظيفه ، وانتشال الجثث من داخله .

لقد نفذت تلك الأوامر الحربية تنفيذاً صارماً ، وارتكبت الكثير من الجرائم ، وانتهكت حرمات الجامع الأزهر بصفته موئل الثورة ، وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل نرى بأنه قد ألقي القبض على عدد من علماء الأزهر وأزهقت أرواحهم .

ولنترك للجبرتي الحديث عن المصير المشؤوم الذي لقيه هؤلاء العلماء على يد الفرنسيين ، إذ يقول : فلما وصلوا بهم إلى هناك إلى دار الجنرال « بون حاكم القاهرة العسكري » عروهم من ثيابهم ، وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح ، فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق ، وألقوهم من السور خلف القلعة ، وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياماً[1] . وكان عدد هؤلاء العلماء الذين نفذ فيهم الفرنسيون الاعدام خمسة ، إلَّا أن الشيخ الشرقاوي أكد بأن الفرنسيين قد قتلوا من علماء الأزهر نحو ثلاثة عشر عالماً .

ويبدو أن هذا الرقم لا يبعد عن الحقيقة ذلك أن الشيخ الشرقاوي « شيخ الجامع الأزهر » هو أدرى من غيره بالعلماء وأسمائهم ، ولا بد من أنه وقف على عدد وأسماء العلماء الذين لقوا حتفهم في هذه الثورة .

فبالإضافة إلى من أعدمهم الفرنسيون رمياً بالرصاص ، هناك أناس

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ ٢ ص ٢٢٥ ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس جـ ١ ص ١٠٣ .

قضوا نحبهم برصاص الفرنسيين ، أو بقذائف مدفعيتهم[1] .

وهؤلاء العلماء الذين أعدمهم الفرنسيون علانية ورموا بهم من خلف سور القلعة هم :

١ ـ الشيخ أحمد الشرقاوي
٢ ـ الشيخ عبد الله الشبراوي
٣ ـ الشيخ يوسف المصيلحي
٤ ـ الشيخ سليمان الجوسقي
٥ ـ الشيخ إسماعيل البراوي .

وبالرغم من أن البعض يعطي لهذه الثورة طابع القومية ، أو طابع الوطنية ، إلَّا أنها في واقعها ثورة دينية ، وها هو الجبرتي أحد شهود العيان في تلك الأحداث يوضح لنا شيئاً من ذلك إذ يقول :

وأصبحوا يوم الأحد متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح ، وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية ، وزعر الحارات البرانية ، ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم ، ويقولون بصياح في الكلام : « نصر الله دين الإسلام »[2] .

وقد اضطر نابليون لمغادرة مصر لأسباب سياسية لا داعي للحديث عنها ، فخلفه بعد رحيله من مصر الجنرال « كليبر » ، الذي لم يكن عهده هو الآخر بأفضل من سابقه ، إذ نكل بالعديد من العلماء والأعيان ، وعدد كبير من السكان ، وساد القاهرة جو خانق زاد من حدة الجفاء بين المواطنين والمحتلين .

---

(١) صور من دور الأزهر ص ١٣٦ .
(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ ٢ ص ٢١٨ ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ـ جـ ١ ص ٩٤ ، المختار من تاريخ الجبرتي ص ٢٧٣ .

في هذا الجو القاتم حدث ما لم يكن بالحسبان ، إذ اهتزت لهـذا الحادث أركان الاحتلال الفرنسي ، كما اهتزت لـه جميع أرجاء البلاد ، ذلك هو مصرع الجنرال « كليبر » .

أمـا قصـة مصـرع الجنـرال كليبـر فسأوردهـا كمـا تنـاقلتهـا الكتب التاريخية .

« بعد عودة الجنرال كليبر من دار الجنرال « داماس بعـد أن تناول طعام الغداء في منزل الأخير ، سار مخترقاً الحديقة الفاصلة بين بيته وبيت داماس ، ففوجيء بفتى نحيل الجسم متوسطه ، تقدم إليه ملوحاً بيده كأنما يسأله صدقة ، أو يلتمس أمـراً ، فأشـار إليه كليبـر بالإنصـراف قـائـلاً : « مافيش » ولكن الفتى وثب نحوه ، وقبض بيسراه على يده بشـدة ، وجرّد بيده اليمنى خنجراً كان يخفيه تحت ثيابه ، وطعن به الجنرال عدة طعنات سريعة أصابته في صدره وبطنـه وذراعه ، فسقط إلى الأرض صـريعاً وهـو يصيح مستغيثاً ، وبادر المهندس « بروتان » الذي كان يرافق الجنرال كليبر إلى نجدته ، ولكن الفتى انقض عليه كذلك وطعنه بخنجره عدة طعنات ، سقط على إثرها مغشياً عليه هو الآخر ، ثم وثب الفتى مهرولاً إلى مماشي الحديقة فغاب عن الأنظار .

وقد اعتقد الرؤساء بأن تلك الجريمة ما هي إلاَّ نتيجة لمؤامرة كبيـرة دبرها أهل القاهرة ، فأصدرت الأوامر إلى القلاع والحصون بالتأهب وأخذ الحيطة ، وما هي ـ إلاَّ ساعة حتى ظفـر الجند بـذلك الشـاب الذي كـان مختفياً في البستان المجاور لمنزل القائد العام ، ووراء جدار متهدم فقبضوا عليه وقدموه للاستجواب أمام مجلس عسكري تولى رئاسته الجنرال « مينو » خليفـة كليبـر ، وقـد تبين لهم بعـد التحقيق أن قـاتـل كليبـر هـو سليمـان

الحلبي ، المولود في مدينة حلب بالشام ، وعمره أربعة وعشرون عاماً ، إذ كان من طلاب الأزهر القدامى ، الذي قضى في رحابه ثلاثة أعوام ، ثم غادر مصر الى الشام ، ثم عاد اليها بعد مدة في الرابع والعشرين من مايو سنة ١٨٠٠ م ويعتقد بأنه جاء مغازياً في سبيل الله ، ونزل في الأزهر للمرة الثانية ، وأقام به شهراً يدرس خطوات وتحركات كليبر ، وقد تعرف خلال إقامته في الأزهر على أربعة من طلابه ، أفضىٰ إليهم بعزمه على اغتيال كليبر .

وقد نص حكم المحكمة العسكرية على وسائل تنفيذ أحكام الاعدام ، من الخازوق(*) ، إلى قطع الرؤوس ، إلى إحراق بعض الجثث ، وترك البعض الآخر تفترسها الجوارح[١] .

وقد انتهى الأمر بصدور حكم المحكمة العسكرية المكونة من تسعة أعضاء ، بخوزقة سليمان الحلبي بعد حرق يده اليمنى وهو حي ، وترك جثته تفترسها الجوارح ، وكذلك بالنسبة لزميله عبد القادر الغزي ، أما الثلاثة الباقون فقد قطعت رءوسهم ، ووضعت فوق نبابيت واحرقوا بقية أجزاء جثثهم[٢] .

كل هذا والأزهر صامد لم يستكن ولم يستسلم للأعداء ، رغم ما

(*) الخازوق: عبارة عن قضيب يوضع على النار حتى يحمر لونه من شدة الحرارة ثم يُقْعد عليه المتهم من فتحة الشرج فيدخل القضيب إلى أمعائه فيمزقها وهذا هو ما يعرف بالموت البطيء. وقد استخدم الرومان الخازوق، ثم استخدمه العثمانيون عندما تصدر أحكام الإعدام بحق المجرمين ، وذلك قبل استخدام الفرنسيين له .

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ ٢ ص ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ، صور من دور الأزهر ص ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٢) صور من دور الأزهر ص ٢١٨ .

تعرض له علماؤه وطلابه من قتل وتعذيب ، وفرض غرامات مالية باهظة .

وقد علّق البعض على إعدام الطلاب بقوله : وهكذا فجع الأزهر مرة أخرى في ظل الاحتلال الفرنسي في عدد من طلابه ، بعد أن فجع في ثورة القاهرة الأولى في عدد من علمائه ، بيد أن الفجيعة كانت في كل مرة عنوان زعامته الروحية والوطنية ، وكان مصرع كليبر بيد سليمان الحلبي ـ أحد أبناء الأزهر القدماء ـ يمثل من الناحية الأخرى انتقام الأزهر لما أصابه من اعتداء المحتلين بانتهاك حرمته وتدنيس قدسيته، ولم تكن مغازاة سليمان في سبيل الله بعيدة عن هذا المعنى[1] .

وفي رحاب الأزهر خطط علماؤه لثورة القاهرة الأولى ، وتنادوا إليها ، واسهموا فيها ، وتحمّلوا ويلاتها ، وفجع الأزهر بثلاثة عشر عالماً من علمائه .

وفي أعقاب ثورة القاهرة الثانية ، تعرّض كبار العلماء لأقسى أنواع العذاب ، وفرضت عليهم الغرامات الفادحة ، وبيعت متلكاتهم ، والحلي الذهبية لزوجاتهم بأبخس الأثمان ، استيفاءً للغرامات التي فرضت عليهم ، كما فجع الأزهر ببعض طلبته على أثر مقتل كليبر .

وقد ازدادت شكوك الفرنسيين حيال علماء الأزهر ومواقفهم منهم بعد مقتل الجنرال كليبر ، وكان في تقديرهم للموقف أن إقامة القاتل ثلاثين يوماً في الأزهر ينسج خيوط المؤامرة ، هو دليل واضح على أن الأزهر هو المكان الصحي الذي تدبر فيه المؤامرات الكبرى لاغتيال كبار القادة ، والإطاحة بالحكم الفرنسي .

---

(١) تاريخ الجامع الأزهر ص ١٨١ .

وقد ذهب الجنرال مينو « خليفة كليبر » في ٢١ يونيو سنة ١٨٠٠م إلى الجامع الأزهر وبرفقته الجنرال « بليار » الحاكم العسكري لمدينة القاهرة ومحافظها ، وطافوا به تفتيشاً عن السلاح ، وكتبوا أسماء المجاورين للمسجد في قوائم ، وأمروا بعدم المبيت فيه ، وأن لا يأوي إليه أفّاق .

وقد رأى شيخ الجامع الأزهر « عبد الله الشرقاوي » هو وزملاؤه استحالة استمرار الدراسة في الجامع في مثل هذا الجو الخانق ، وأن فتحه في مثل تلك الظروف العصيبة التي تجتازها البلاد لا يخلو من أخطار ، لذا قرر العلماء بأنه من الأفضل إغلاق الجامع كلية ، مع ما يترتب على هذا الإغلاق من إيقاف الدراسة في الأزهر ، وتعطيل شعائر العبادة ، إذ ذهب هذا الوفد المكوّن من الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر ، والمهدي ، والصاوي إلى الجنرال « مينو » واستأذنوه في إغلاق الجامع وتسميره[١] .

ويحسن أن نترك للجبرتي الحديث عن هذا الموضوع إذ يقول موضحاً وجهة نظر العلماء :

« وقصد المشائخ من ذلك منع الريبة بالكلية ، فإن للأزهر سعة لا يمكن الإحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من يبيت فيه ، واحتج بذلك على إنجاز غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك ، فأذن كبير الفرنسيس بذلك ، لما فيه من موافقة غرضه باطناً ، فلما أصبحوا قفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات[٢] وفي صباح اليوم التالي أخرج سائر المجاورين وأغلقت أبواب الجامع الشهير وسرت في

---

(١) تاريخ الجامع الأزهر ص ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ، صور من دور الأزهر ص ٢١٦ .

(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ ٢ ص ٣٩١ ، المختار من تاريخ الجبرتي ص ٣٩٠ ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ص ١٠٣ .

سائر الجهات ، وكانت هذه هي أول مرة في تاريخ هذا المسجد يتم فيها إغلاقه ، بعد أن لبث منذ إنشائه نحو ثمانية قرون ونصف ، مفتوح الأبواب لكل طالب وقاصد(١) .

وقد ظل الأزهر مغلقاً زهاء عام كامل ، حتى تمّ فتحه بعد شروع الفرنسيين في الجلاء من مصر في ١٩ صفر سنة ١٢١٦هـ الموافق ٢ يوليو سنة ١٨٠١م(٢) .

هذه في الواقع بعض صور من مقاومة الأزهر للاحتلال الفرنسي كلها حافلة بأروع مظاهر النضال والكفاح ضد أول موجة من موجات الزحف الأوروبي الاستعماري نحو المشرق الإسلامي في التاريخ الحديث .

أوردت هذا كله عن الجامع الأزهر لأنه في نظري هو الثكنة العسكرية التي وقفت في وجه الاحتلال حفاظاً على مقدسات المسلمين ، كما تحمّل في سبيل ذلك الكثير من التضحيات حتى تم له ما أراد ، وهو انتصاره على الكفر والطغيان ، وعاد كما كان أولاً مركزاً للصدارة في جميع المجالات العلمي منها والفكري والسياسي .

وقد خطا الأزهر في طريق الإصلاح خطوات واسعة ، فأنشئت المعاهد الدينية ، وهي فروع للأزهر في المدن الكبرى بمصر ، وأهمها : الاسكندرية وطنطا ، والزقازيق والمنصورة ، ودمياط والمنيا وأسيوط ، وهي معاهد ابتدائية وثانوية .

وفي النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي إزداد عدد هذه

---

(١) تاريخ الجامع الأزهر ص ١٨٣ .

(٢) صور من دور الأزهر ص ٢١٧ .

المعاهد حتى أصبح في كل مركز معهد ديني ، أي أصبحت المعاهد أكثر من مائتي معهد في انحاء مصر .

وفي سنة ١٩٦١م دخل الأزهر في طور جديد من تاريخه عندما صدر القانون رقم (١٠٣) الذي حوله إلى جامعة حديثة ، تحتفظ في نفس الوقت بالدراسات النظرية للأزهر وهي دراسات الإسلام واللغة العربية ، وأنشئت له الكليات الحديثة ، وتضاعف عدد طلابه حتى أصبح مؤسسة دينية علمية فريدة في بابها من كل وجه ، ولا يضارع الأزهر أي معهد آخر في الدنيا في الخدمات العلمية التي قام بها منذ إنشائه إلى اليوم ، فقد كان وفود الطلبة تقبل عليه من أركان الدنيا فيجاورون في الأزهر ثم يعودون إلى بلدانهم شيوخاً يقومون بدورهم في إنشاء المعاهد الدينية الإسلامية في بلادهم[١] .

وبعد أن كان التعليم العالي مقصوراً على ثلاث كليات هي : الشريعة ، وأصول الدين ، واللغة العربية ، دخل التطوير الجديد في الأزهر فأصبح جامعة كبرى تضم إلى جوار هذه الكليات النظرية كليات أخرى علمية مثل الهندسة والطب والتجارة والزراعة والعلوم ، كما تدرس في هذه الكليات إلى جانب مناهجها العلمية الخاصة دراسات رئيسية كافية لتبصير الطلاب في أمور دينهم وأحكامه وآدابه بطريقة واضحة شاملة .

وفي ختام حديثي عن هذا المعقل الإسلامي العريق يحسن أن أشير إلى ما قاله البعض عن هذا الجامع العتيد إذ يقول :

الأزهر بيت العلم العتيق ، ومثابة الثقافة الإسلامية ، حمل لواء

---

(١) المساجد ص ٢٠٧ .

المعرفة في مصر والشرق الاسلامي قروناً متصلة ، وحفظ التراث الاسلامي ، ديناً ولغة من عاديات الزمن ونشره على الآفاق ، ولم يبخل به على أي طالب علم قصده من مشارق الأرض ومغاربها . وقد ظل الأزهر طوال ألف سنة ، وما يزال حتى اليوم كعبة العلم والدين ، ومعقل آمال المسلمين ، تخرج فيه أفواج وأفواج من جلة العلماء انتشروا في بقاع الأرض ، وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التي تزودوا بها في الأزهر فأضاءوا جنبات الأرض علماً ونوراً وتقى[1] .

---

(١) خفاجي / محمد المنعم / الأزهر في ألف عام جـ ١ ص ١٥ .

الفصل الثالث

مساجد المغرب والأندلس

في تونس : جامع القيروان ـ جامع الزيتونة .

في المغرب الأقصى : جامع القرويين .

في الأندلس : جامع قرطبة .

جامع القيروان(*) بتونس :

تعتبر القيروان رابع مدينة أحدثت في الإسلام بعد البصرة والكوفة والفسطاط ، عندما أسسها القائد الأموي عقبة بن نافع الفهري ، أبرز قادة فتح بلاد المغرب ، وذلك عندما عيّنه الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان والياً على افريقيا سنة ٥٠هـ ، نتيجة لخبرته الطويلة بتلك البلاد ، إذ كان واحداً من القادة المجاهدين الذين شاركوا في الفتوح الإسلامية في أفريقيا بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

وقد سار عقبة على رأس جيش قوامه عشرة آلاف جندي ، حيث تمكن في فترة وجيزة من فتح إفريقية « تونس » ، ثم نظر في أحوال تلك البلاد نظر الحاذق البصير ، فرأى أنه لن يستقيم لها أمر إلّا بإستقرار المسلمين فيها بصفة نهائية ، لا كما كان يفعل من سبقه من القادة . يقول عقبة في هذا :

(*) عن هذا الجامع أنظر ملحق الصور رقم ٢٦ ، ٢٧ في آخر الكتاب.

إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً ، وتكون عز الإسلام إلى آخر الدهر ، فبنى لهم مدينة القيروان[1] .

وقد رأى عقبة أن من أسباب تراجع العرب المسلمين عن إفريقية هو طول خط مواصلاتهم بينها وبين أقرب مرتكز لهم وهو « الفسطاط » ، فاستقر رأيه على أن خير وسيلة للإستقرار بالمغرب إنما تكمن في الاحتفاظ بجيش دائم ، وأن ذلك يستدعي إنشاء مدينة جديدة تكون مقر عسكر المسلمين وموطن أهلهم ، فاختار لذلك موقعاً له ميزات عديدة من حيث الحرب والاقتصاد والمواصلات فأنشأ القيروان في رقعة تكفي لتموين الحامية ومن معها ، بعيدة عن الساحل بحيث لا ينالها الأسطول الرومي ، وفي نفس الوقت تكون مواجهة لجبل أوراس الذي كثيراً ما قاوم سكانه الفاتحين من قبل . وكان أول عمل قام به عقبة هو تخطيط المسجد الجامع في القيروان ، الذي ما زال يحمل اسم ذلك الفاتح إلى يومنا هذا ، وإن لم يسمّ به ، ولكن فضل انشائه يعود إلى ذلك الرجل الصالح عقبة بن نافع . وبهذا يمكن القول بأن تأسيس مدينة القيروان كان نقطة تحوّل في تطوير حركة الفتح الإسلامي ودفع هذه الحركة إلى الأمام بخطى وئيدة لتكون تلك المدينة قاعدة للإمداد والتموين دون حاجة إلى الاعتماد المباشر على مصر، لأن هذا في حد ذاته يضيع على القادة الكثير من الجهد والوقت ، أما والحالة هذه ، وهو إنشاء قاعدة عسكرية في الشمال الافريقي تكون نقطة الانطلاق ، مركزها ومنطلقها المسجد الذي أنشأه عقبة بن نافع في وسط

---

(١) ابن خياط خليفة/ تاريخ خليفة بن خياط ص ٢١٠ ، البيان المغرب جـ١ ص ١٩ .

تلك المدينة ، فهذا سيحقق للقادة الكثير من المكاسب ، ويجنبهم الكثير من إضاعة الوقت والجهد الذي كانوا يبذلونه أثناء اعتمادهم على مصر ، وما يأتي منها من خراج وأوامر من ولاتها .

وبالفعل لقد تحققت أمنية المسلمين في تلك البلاد وما كانوا يصبون إليه ـ حتى بعد أن قتل عقبة ـ من نشر الإسلام والعروبة في تلك الأقطار التي ما زالت ترفل بهما إلى يومنا هذا ، بفضل الجهود التي بذلها أبطال الإسلام من أمثال عقبة بن نافع وغيره من قادة المسلمين ، الذين اتخذوا من المسجد نقطة انطلاقهم لفتح جزء كبير من الأقطار في الشمال الافريقي ، واسبانيا « الأندلس فيما بعد » .

شرع عقبة بن نافع ببناء مسجده بعد أن استقر هناك في القيروان ، وبذل جهداً كبيراً في تحديد اتجاه القبلة ، حتى وفق إلى ذلك على أثر رؤيا رآها في المنام كما يقول البعض من المؤرخين .

والذي يعنينا من هذا الموضوع هو أن عقبة بنى مسجده المشهور في القيروان ، ووضع له محراباً ما زال قائماً إلى يومنا هذا ، لأسباب سأشير إليها بعد قليل .

ويعتبر هذا المسجد أباً لمساجد الجناح الغربي لمملكة الإسلام كما يقول الدكتورر حسين مؤنس[1] .

أما بالنسبة لأطوال المسجد الجامع بالقيروان فقد تطرّق إلى هذا الموضوع واحد من علماء الآثار المسلمين الذين أجروا أبحاثهم في هذا المسجد إذ يقول :

---

(١) المساجد ص ٦٧ .

يرتسم مسجد القيروان على سطح الأرض على شكل مستطيل غير متساوي الأضلاع ، عرضه سبعة وسبعون متراً ، وطوله ستة وعشرون ومائة متر ، وفيه بهو فسيح يقرب طوله من سبعة وستين متراً ، وعرضه من ستة وخمسين متراً ، ولهذا البهو مجنبات يبلغ عرض كل منها حوالي ستة أمتار وربع ، وتنقسم الواحدة منها إلى رواقين ، أما بيت الصلاة فطوله سبعون متراً ، وعرضه سبعة وثلاثون متراً ، وسبعون سنتمتراً ، أما المحراب فلا يقع في منتصف ضلع المسجد تماماً ، إذ يحيد يسرة عن الوسط مقدار مترين ونصف ، ويقع في نصف دائرة قطرها متران .

أما المئذنة فتقع في منتصف ضلع المستطيل الشمالي ، ولكنها لا تقع بالضبط في محوره ، وهي عبارة عن مربع طول كل ضلع من أضلاعه عشرة أمتار ونصف(١) .

ويؤكد الدكتور أحمد فكري نتيجة أبحاثه التي أجراها في المسجد نفسه في السنوات من سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٤م ، وسنة ١٩٣٦م ما أكده المؤرخون من أن محراب مسجد عقبة بن نافع في القيروان الذي ركز لواءه في موضعه سنة ٥٠هـ (٦٧٠م) ما زال باقياً إلى يومنا هذا ، وإن كانت قد ألصقت حوله في عهد زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢١هـ الموافق ٨٣٦م كسوة من لوحات من الرخام المخرم المحلى بزخارف بديعة أخفت من ورائها معالم المحراب العتيق .

كما أكّد في أبحاثه تلك بأن المسجد الجامع كان في سنة ١٠٥هـ أيام الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك يحتل نفس المساحة التي يحتلها

---

(١) المسجد الجامع بالقيروان ص ص ١٩ ـ ٢١ .

اليوم من جدار القبلة إلى المئذنة في جدار المؤخر ، وما بين الجدارين الشرقي والغربي .

فإلى عقبة بن نافع يرجع تخطيط جدار القبلة وموضع المحراب[1] .

وفي مجال الحديث عن هذا المحراب يقول البعض : عندما هدم زيادة الله بن الأغلب المسجد وأعاد بناءه على نفس الخطوط أراد أن يهدم المحراب أيضاً ، ولكن الفقهاء اعترضوا على ذلك ، وانتهى الأمر بتغطية المحراب القديم بحائط بحيث لا يبدو لأحد ، ويظل قائماً ، وبهذا أمكن إنقاذ محراب عقبة بن نافع ، فبني زيادة الله جدار القبلة ، ومحراباً جديداً للمسجد ، وكلاهما مكسو بالرخام الأبيض المغطى بالزخارف والكتابات ، وتحف به أعمدة رخامية آية في الدقة والجمال[2] ، وقد استمر هذا المسجد على حالته منذ عهد عقبة بن نافع حتى قدم حسان بن النعمان الغساني قائداً وأميراً على تلك البلاد ، فهدم المسجد ما عدا المحراب ، وبناه وحمل إليه الساريتين المتجاورتين الموشاتين بصفرة ، واللتين لم ير الراءون مثلهما من كنيسة كانت للأُوَل في الموضع المعروف اليوم بالقيسارية « بسوق الضرب » ويقولون إن صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهباً ، فابتدرواْ الجامع بهما ، ويذكر كل من رآهما أنه ما رأى في البلاد ما يقترن بهما[3] .

وقد بنى حسان بن النعمان مئذنة الجامع التي ما زالت موجودة حتى

---

(١) المدخل إلى مساجد القاهرة ص ٢٠٥ .

(٢) المساجد ص ١٨١ .

(٣) البكري/ المسالك ص ٢٦ ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية جـ ١ القسم الأول ص ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

الآن كما يقول الحبيب الجنحاني[1] وإن كان البعض يؤكد على أن المئذنة القائمة الآن إنما يعود إنشاؤها إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك الذي أمر ببنائها في مطلع القرن الثاني الهجري وليس حسان بن النعمان[2] . غير أنني أميل إلى الرأي الأول القائل بأن بانيها هو حسان بن النعمان .

وقد جاء تجديد حسان للمسجد الجامع والتوسعة فيه بعد أن رأى أن مسجد عقبة أصبح لا يسع المصلّين ، ولا تتناسب مساحته مع تطور حركة العمران في القيروان ، وازدياد عدد سكانها في ذلك الوقت[3] .

لقد كان هذا المسجد منارة العلم في المغرب الاسلامي قاطبة ، حيث تخرّج منه من العلماء من يفخر بهم العالم العربي والإسلامي على مرّ العصور .

ولعل أبرز شاهد على ذلك هو أن شيوخ القيروان ممن تلقوا علومهم في هذا المسجد هم الذين جعلوا من مسجد القرويين بفاس جامعة كبرى ، على أثر نزوحهم من القيروان إثر الغارة الهلالية ، فهم الذين أسسوا جامع القرويين ، وأعطوه اسمه ، وعمّروه بالعلم وحلقات الدرس ، ذلك أن كلمة القرويين تعني القيروانيين في نظر العديد من العلماء والمؤرخين .

يقول البعض في هذا :

وشيوخ القيروان هم الذين جعلوا من مسجد القرويين في فاس جامعة

---

(١) القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ص ١٢٢ .
(٢) فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية/ فراج/ عز الدين ص ٢٧٢ .
(٣) القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ص ١٢٣ .

كبرى ، وهم الذين أعطوه اسمه ، لأن القرويين تعني « القيروانيين »[1] .

وكان من بين العلماء الذين نشرواْ علمهم في هذا الجامع كل من : علي بن زياد تلميذ مالك بن أنس ، وأسد بن الفرات الذي أقام مدة طويلة بالمدينة المنورة قادماً إليها من القيروان ليأخذ المذهب المالكي ، ثم ذهب إلى العراق ليأخذ الفقه الحنفي عن أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة . كما أن الامام سحنون بن سعيد هو الآخر قد سافر الى المدينة المنورة للاستزادة من العلم وعاد الى القيروان ليلقي دروسه في جامعها وليكون إماماً وقاضياً في القيروان .

هؤلاء العلماء الذين قامواْ بدور الدعاة الأول في جامع عقبة ليسواْ سوى قطرة من بحر ، ونماذج لغيرهم في نشر الاسلام في المغرب العربي قاطبة ممن سبقوهم في هذا المجال أو أتواْ بعدهم .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن هناك العديد من علماء القيروان ممن شاركوا في كثير من الأمور السياسية والعسكرية للدولة حيث شارك البعض في وضع خطة مدروسة لغزو جزيرة صقلية في عهد الأغالبة ، ولعل قاضي القيروان المشهور « أسد بن الفرات » الذي تلقى علومه في مسجد القيروان كان واحداً من هؤلاء الرجال الذين خططوا لذلك الغزو ، بل لقد أُسنِد إليه أمر قيادة ذلك الجيش الغازي مع أنه لم تكن له دراية في فنونِ الحرب والقتال ، ومع هذا فقد أظهر مهارة في فن القيادة العسكرية والإدارية تدعو إلى الإعجاب ، بل لقد حقق الكثير من الانتصارات في هذه الجزيرة ، ومات محاصِراً لبعض قلاعها ، وعمره قد تجاوز السبعين عاماً .

ويكفي فخراً أن يكون هذا الرجل « أسد بن الفرات » واحداً من

---

(١) مؤنس/ حسين/ المساجد ص ١٧١ .

تلاميذ مسجد القيروان وأحد قضاة القيروان أيضاً .

يقول البعض في هذا :

« إن خطة صقلية هي خطة مدروسة، فكّر فيها قادة القيروان آنذاك ملياً ، وشارك في وضعها علماء القيروان أيضاً ولا سيما قاضيها أسد بن الفرات »[1] .

هذا هو جامع القيروان الذي ما زال معقلاً من معاقل الإسلام في الشمال الافريقي ، والذي يعتبر لعلمائه الفضل الأكبر في نشر الدين الإسلامي ، والثقافة العربية الإسلامية في وقت كان هذا المسجد موئلاً للعديد من روّاد العلم والمعرفة ، ومنطلقاً للجهاد في سبيل الله إلى العديد من الأقطار الأخرى التي كان له فضل إدخالها في الإسلام .

جامع الزيتونة بتونس[*]

يعود تاريخ بناء هذا المسجد إلى حسّان بن النعمان الغساني أحد قادة فتح بلاد المغرب ومؤسس تونس ، إذ بعد أن استقرّ الأمر له على أثر طرد الروم نهائياً من إفريقية وتخريب قرطاجنة أسس تونس ، وجعلها مركزاً لإمارته ، ثم أنشأ بمرساها أول مصنع إسلامي لصناعة السفن والمراكب الحربية .

وكان قيام هذه المدينة الجديدة وانشاؤها على يد مؤسسها حسان ، يعني أن العرب في إفريقية أصبحوا قوة بحرية لا يستهان بها ، إلى جانب القوة البرية الضاربة التي امتازوا فيها عندما اتخذوا من القيروان مستقراً لهم

---

(١) القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ص ١١٤ .

(*) عن جامع الزيتونة انظر : ملحق الصور رقم ٢٨ ، ٢٩ في آخر الكتاب.

ومقاماً ، على يد مؤسس القيروان عقبة بن نافع الفهري ، أشهر قادة فتح بلاد المغرب .

وكان أول عمل قام به حسان هو تخطيط المسجد الجامع ، وهذا هو المنهج الذي سار عليه المسلمون منذ هجرة رسول الله ﷺ إلى يثرب حتى ذلك الوقت ، إذ كان أول عمل يقومون به في البلاد المفتوحة أو المنشأة حديثاً ، هو تخطيط المسجد الجامع الذي يكون عادة في وسط المدينة .

وقد سمي هذا الجامع بجامع الزيتونة لأن الناس وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد فقالوا : هذه تونس فسمي الجامع بجامع الزيتونة[1] .

وقيل بأنه سمي بجامع الزيتونة نسبة إلى القدّيسة « زيتونة » التي عاشت في زمن الواندال كما يقول المالكي في كتابه رياض النفوس ، غير أنني أشك في مدى صحة هذا الكلام ، فلماذا يسمي المسلمون مسجدهم باسم قديسة عاشت زمن الواندال منذ أزمان موغلة في القدم قبل الإسلام ، وهم ليسوا في حاجة إلى ذلك ، ولهذا فإنني استبعد أن يحصل مثل هذا بل أميل إلى الرأي الأول القائل بنسبة المسجد إلى الزيتونة ، بل ربما أن تونس نفسها التي تشتهر بكثرة الزيتون قد نسب هذا الجامع إلى تلك المنطقة التي تكثر فيها أشجار الزيتون .

لقد أسّس حسان بن النعمان هذا المسجد بعد استقرار المسلمين في تونس إذ يقول البعض :

لا شك بأن حسان بن النعمان قد جعل مسجداً جامعاً لأهل تونس وأنه يسمى « جامع الزيتونة » لأن في ناحية منها كانت زيتونة ، ولعل جامع

---

(١) ابن أبي دينار/ المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ص ١٠ .

الزيتونة الذي أسسه حسان كان بسيطاً ضيق المساحة بحيث لم يخلف ذكراً لإسم حسان ، لأن البعض من المؤرخين قد أكّدوا على أن المؤسس الحقيقي لجامع الزيتونة هو الوالي الأموي «عبيد الله بن الْحَبْحَابْ» سنة ١١٤هـ ، فإذا قبلنا بهذا الرأي فإنما نقبله على شرط أن يكون عبيد الله بن الْحَبْحَابْ قد هدم جميع البناء السابق ، وأعاده في مساحة أوسع ، فنسب البناء الجديد إليه ، لأن القديم قد اضمحل نهائياً[١] .

ويبدو لي أنه من غير المعقول أن يؤسّس حسان بن النعمان مدينة تكون مقراً لإمارته أثناء قيادته للجيش الإسلامي في المغرب دون أن ينشيء مسجداً جامعاً في تلك المدينة الجديدة « تونس » .

إذاً فنسبة هذا الجامع إلى عبيد الله بن الْحَبْحَابْ ربما تكون على أساس أنه أعاد بناءه على نمط آخر ، ووسّعه ، أما حسّان بن النعمان فهو ـ في نظري ـ المؤسّس الحقيقي لجامع الزيتونة .

وعن دور هذا المسجد في نشر العلم والثقافة في تونس يقول الوزير السراج : « ظل جامع الزيتونة بتونس كعبة القصاد ، ونهاية مطاف رواد المعرفة من مغاربة وأندلسيين نازحين ، وبجانبه مدارس علم تخرّج منها أكابر العلماء ، وعظام الأدباء[٢] .

وقال آخر : جامع الزيتونة هو أسبق المعاهد التعليمية للعروبة مولداً ، وأقدمها في التاريخ عهداً ، وقد حمل مشعل الثقافة العربية اثني عشر قرناً ونصف القرن بلا انقطاع ولا انفصال ، تجرّد في خلالها لدراسة

---

(١) زبيس/ سليمان مصطفى/ حول مدينة تونس العتيقة ص ٣٩ .
(٢) الحلل السندسية جـ ١ قسم ١ ص ٦٤ .

العلوم وذلـك منذ سنـة ١٢٠هـ (٧٣٧م) ، وظل على مـرّ العصـور منـاراً وهّـاجـاً للتعليم والبحث والاستنبـاط ، فتخـرّج منـه الفقيـه ، واللغـوي ، والأديب ، وأصبح أكبر جامعة إسلامية عرفها المغـرب بأسـره ، وتفرّع من دوحة الزيتونة أغصان علم وفلسفة ، زانـوا الثقافـة البشريـة في المغـرب والمشرق[1] .

وقـد أصبح هـذا المسجـد فيمـا بعـد جـامعـة للدراسـات العـربيـة والإسلامية ، حيث قام بدور كبير في خدمة الفكر الإسلامي ، لا في تونس وحدها ، بل في شمال الصحراء وجنوبها[2] .

وقد تحدّث الطاهر المعموري عن العلماء الذين أسهموا بـدور بارز في حركة النشاط العلمي والديني في الجامع إذ يقول :

« وقد بقي هذا الجامع ذا مكانة خاصة لدى التونسيين ، بـالرغم من كثرة الجوامع الموجودة في العهد الحفصي » .

ورغم المحاولات التي بذلها الأمراء الحفصيون لتحويل وجهة الناس نحو مراكز دينية أخرى ، فقد بقوا متشبثين بجامعهم الذي يحكي ذكريـات هي مزيج من التقوى والطهر والعفة والجهاد لإعلاء كلمة الله .

كما عدّد أسماء العلماء الذين قاموا بتلك المهمة نذكر بعضاً منهم :

أبو محمد خالد بن أبي عمران التجيبي(*) الذي سمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق ، ومن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

---

(١) شلبي / أحمد/ موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية جـ ٦ ص ١٧٥٧ .
(٢) الحشائشي / محمد عثمان/ تاريخ جامع الزيتونة ص ٥ .
(*) توفي سنة ١٢٧هـ .

وكذا أبو الحسن علي بن زياد العبسي التونسي(**) تلميذ مالك بن أنس والليث بن سعد ، وشيخ البهلول بن راشد ، وأسد بن الفرات ، والإمام سحنون . وكذلك أبو مسعود عبد الرحيم بن أشرس ، وأبو خليل هشام بن خليل ، وأبو البشر زيد بن بشر الأزدي وغيرهم كثير .

فوجود هذا العدد الكبير من العلماء يوحي بكثافة النشاط العلمي والتدريسي الذي احتواه الجامع الأعظم ، وجَمَع كل أولئك العلماء[1] .

ويضيف قائلاً : « إن مما لا شك فيه أن جامع الزيتونة كان قبلة العلماء ، ومحط رحالهم ، ومطمح أنظارهم ، يهفون دائماً إلى احتلال اسطوانة من اسطواناته ، حتى تذيع شهرتهم ، ويعلو نجمهم ، كما كان أمراء العهد الحفصي ينتدبون العلماء لمدارسهم من بين مشاهير علماء جامع الزيتونة ، وبذلك تكتسب المدرسة مكانة ، وتعج بطلاب العلوم المختلفة[2] .

وقد اشتهر هذا الجامع بوجود مكتبة احتوت على العديد من الكتب وقفت على الطلبة يقرأونها ، وينسخون منها ، وعين لها متخصصون لمناولة الكتب وارجاعها إلى أمكنتها ، وكانت المطالعة فيها من الظهر إلى العصر ، كما أسند الإشراف العام عليها إلى إمام جامع الزيتونة[3] .

وفي عهد الحفصيين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إزدهر التعليم في هذا المسجد ، وظل ينشر الثقافة العربية

(**) توفي سنة ١٨٣هـ .

(١) جامع الزيتونة، ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ص ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٣ .

الإسلامية ، ويقوم بإعداد المدرّسين والأئمة والوعّاظ والقضاة وكتّاب الرسائل ، وأصبح لعلمائه مكانة سامية في المجتمع ، ولعل من أشهر علمائه المدرّس والقاضي سحنون .

ويشير البعض إلى أن الدروس التي كانت تعقد في جامع الزيتونة على نوعين :

١ ـ دروس يلقيها أصحابها احتساباً دون وظيفة ولا مرتّب ، وإنما خصص لأصحابها أحباس تقسم عليهم ، وكان هؤلاء الشيوخ يلقون دروسهم لنشر العلم ، ثم لاكتساب الشهرة التي كثيراً ما تلفت إليهم أنظار الأمراء لإلحاق البعض منهم بوظائف يتقاضون عليها مرتبات .

٢ ـ دروس نظامية وهذه يتم تعيين أصحابها من قبل (الباي) .

كما أن الكثير من هؤلاء المدرّسين الذين يلقون دروسهم في هذا الجامع لا يختص الواحد منهم بدرس واحد ، وإنما كان البعض منهم تتعدد مجالسه حسب شهرته ومقدرته ، كما تتنوع دروسه ، فتتناول مختلف الفنون والعلوم[١] .

وقد استمرّ هذا الجامع على هذا المنوال يؤدي دوره الريادي حتى صدر مرسوم في سنة ١٩٣٣م اعتبر فيه جامعة سميت بجامعة الزيتونة ، وسمي شيخه مديراً ، وجعلت الدراسة فيه على ثلاث مراحل هي :

١ ـ الاعدادية : وتنتهي بشهادة الأهلية .

٢ ـ المتوسطة : وتنتهي بشهادة التأهيل .

٣ ـ العالية : وتنتهي بشهادة العالمية مع التخصص في القراءات وعلوم

---

(١) الوزير السراج/ الحلل السندسية في الأخبار التونسية جـ١ قسم ١ ص ٦٥ .

الشريعة الإسلامية والآداب ، ثم أضيف إلى مناهجه بعض المواد العصرية واللغات الأجنبية ، وخصوصاً بعد استقلال تونس .

هذا ولم يقتصر دور جامع الزيتونة على الجانب العلمي فقط بل قام بأدوار بارزة في المجال السياسي والعسكري طيلة وجوده إذ يقول البعض عن هذا :

« ولم يكن جامع تونس معبداً دينياً ، ومحجة لطالب العلم فحسب ، بل كان معقلاً لنضال المجاهدين الأبرار منذ تأسيسه المبارك على يد القائد الفاتح « حسان بن النعمان » وبنائه في عهد «عبيد الله بن الحَبْحَابْ» إلى يوم أن أندلعت شرارة الكفاح التحريري ضد المستعمر الفرنسي ، فمنه انطلقت عدة انتفاضات هزت البلاد التونسية ، وبلغت أوجها في تطاحن الترك والأسبان أيام حكم الحفصيين ، وفي الأمس القريب خرجت مظاهرات عارمة ، واحتمى به المقاومون احتجاجاً على الاضطهاد والعسف والتنكيل .

لهذا كانت لجامع الزيتونة ـ على مدار التاريخ ـ مكانة روحية في قلوب التونسيين ، يلوذون بحماه إذا نال بلادهم مكروه ، أو حركت مشاعرهم بهجة الاحتفال بالأعياد الدينية ، فهو معبدهم ، ومدرستهم ، ومعقل نضالهم ، كما هو في نفس الوقت مجمع أفراحهم ، وجامع شملهم ، وموحّد صفوفهم[١]

ولعل أكبر دليل على أهمية هذا الجامع ، وما يتمتع به من مكانة سامية في نفوس الناس وما يتمتع به علماؤه من تقدير واحترام ، وما يشكله

---

(١) الحشائشي : محمد بن عثمان/ تاريخ جامع الزيتونة ص ص ٣ ـ ٤ .

هذا الجامع من خطر على مصالح المستعمرين ممثلاً بعلمائه ، هو أن يصبح في يوم من الأيام هدفاً لهجوم الاسبان إذ يقول المعموري :

وإذا كانت لجامع الزيتونة هذه المكانة في العهد الحفصي ، فمن الطبيعي أن تستمر في العهد التركي ، وهي التي جعلته هدفاً للهجوم الأسباني ، إذ أحرقوه ، ورموا بكتبه تحت سنابك الخيل[1] .

هذا هو جامع الزيتونة ـ الذي تحوّل فيما بعد إلى جامعة ـ منذ أن أنشأه القائد الأموي حسان بن النعمان الغساني حتى يومنا هذا ، قلعة من قلاع الإسلام الصامدة في المغرب العربي .

جامع القرويين[*] بفاس

بدأ هذا المسجد في الأصل جامعاً صغيراً يسمى جامع الشرفاء ، إذ بناه إدريس الثاني في عدوة القرويين من فاس عند أول إنشائها في القطاع الغربي من تلك المدينة ، حيث يقطنه المهاجرون القيروانيون الذين فروا أمام هجمات الهلاليين للشمال الافريقي ، مما حدا بكثير من علماء القيروان إلى هجرها والفرار إلى فاس ، حيث وجدوا في المغرب الأقصى مستقراً لهم ومقاماً .

وتعتبر مدينة فاس هي ثاني عاصمة أسسها الأدارسة بعد العاصمة الأولى « وليلي » التي أسسها إدريس الأول بن عبد الله العلوي ، وقد بقي هذا المسجد على حاله منذ سنة ١٩٢هـ حتى سنة ٢٤٥هـ . ويعود سبب توسعة وتجديد هذا الجامع إلى أن ابنة « محمد بن عبد الله الفهري

---

(١) جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ص ٥٥ .

(*) عن هذا الجامع أنظر ملحق الصور رقم ٣٠، ٣١ في آخر الكتاب.

القيرواني » وتدعى فاطمة كان والدها ثرياً من عرب القيروان ، سافر إلى المغرب واستقرّ هناك ، وكسب أموالاً طائلة فلما توفي ورثت هذه البنت مالاً كثيراً من أبيها ، فأرادت أن تنفق جزءً كبيراً من هذا المال في أوجه الخير ، فهداها تفكيرها إلى أن تقوم بتوسعة وتجديد مسجد القرويين ، فقامت بهذا الأمر في غرة رمضان من سنة ٢٤٥هـ[١] في مكان يدعى عدوة القرويين .

ويشير البعض إلى أن فكرة التوسعة والتجديد تلك كانت فكرة أبيها محمد ولكن وفاته حالت دون ذلك ، إلَّا أن فاطمة قد اتخذت هذا المشروع حقيقة واقعة عندما قامت بهذا الأمر وأنفقت الأموال الطائلة في سبيل ذلك .

وقد ابتدأت حلقات التدريس في علوم الفقه والشريعة الإسلامية بشكل منظم تعقد فيه منذ سنة ٥٣٨هـ على أيدي علماء أجلّاء وفدوا من القيروان ، ونقلوا معهم جلّ العلوم الدينية . وقد ازداد ازدهار هذا الجامع في عهد المرابطين ، وأصبح منذ ذلك الحين معهد دراسة وعلم ، تخرّج منه الآلاف من المغاربة في أجيال متعاقبة ، وظل على مرّ العصور حصناً للعروبة والإسلام ، واجتذبت شهرته التي طبقت الآفاق عدداً كبيراً من العلماء الأجانب من أنحاء أوروبا .

ويعتبر أشهر مساجد المغرب ، لا سيما وأنه استخدم جامعة إسلامية مثل جامعة الأزهر ، كما كان له أثره في الطراز المعماري للمساجد في بلاد المغرب ، حيث أنشأته فاطمة أم البنين ابنة محمد الفهري سنة ٢٤٥هـ في

---

(١) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ٥٤ .

عدوة القرويين[1] .

وقد شيّد هذا الجامع ليكون مركزاً للتعليم ، وظل كذلك أحد عشر قرناً ، حيث يعتبر من أقدم الجامعات الإسلامية ، وإليه يرجع الفضل في نشر الدين الحنيف ، والحفاظ على تعاليمه السمحة ، وحماية لغة القرآن وآدابها ، والعمل على إثرائها في جميع فروع المعرفة ، وفي عهد ازدهاره أضيفت إليه دراسة الفلسفة والطب والصيدلة والطبيعة والهندسة والفلك .

وكان التعليم فيه حراً يختار الأساتذة والطلاب ما يشاءون من المواد والكتب .

ولا شك بأن هذا المسجد قد أصبح علماً من أعلام الحضارة العربية الإسلامية حيث أصبح ـ منذ أن عنيت بتجديد بنائه فاطمة الفهرية ـ جامعة يلقي الشيوخ دروسهم عند قواعد أعمدته ، فهو على هذا أقدم جامعة في الدنيا وهذا الجامع الجليل يقف على قدم المساواة مع الجامع الأزهر ، ومسجد قرطبة ، وجامع القيروان ، والجامع الأموي بدمشق ، فكلها مراكز عبادة ومنارات عرفان[2] .

ومما يؤخذ على هذا الاستاذ الفاضل أنه نسي الدور القيادي والريادي الذي اضطلع بـه مسجد رسـول الله ﷺ في المدينـة ، والذي أصبـح مثلاً يحتذى في سائر مساجـد المسلمين ، سواء بـالنسبة للتخـطيط ، أو للدور الذي يقوم به المسجد في التعليم والتوجيه والإرشاد ، وكان عليه أن يضرب مثلاً في مسجد رسول الله أولاً ، لأن تلك المساجد قد احتذت حذو الدور الذي قام به المسجد النبوي الشريف .

---

(١) الباشا/ حسن. مدخل إلى الآثار الإسلامية ص ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .
(٢) مؤنس/ حسين. المساجد ص ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

ويقول البعض عن هذا المسجد : وتأسّست أول جامعة علمية في العالم وكانت هي جامعة القرويين بفاس المبتناة سنة ٢٤٥هـ الموافق سنة ٨٥٩م ، فكانت مركزاً للعلوم على اختلاف أنواعها ، وتخرّج منها العديد من العلماء الأفذاذ والشيوخ الأجلّاء ، وبقيت مركزاً للإشعاع الإسلامي ونشر جميع أنواع المعرفة الإنسانية لا بين المسلمين فحسب ، بل كان يقصدها حتى الأجانب المسيحيين أمثال الراهب « جربرت » الذي تبوأ منصب البابوية ، وغدا اسمه « البابا سلفيستر الثاني » ، « ملينار » من جامعة لوفان ، كوليوس من جامعة لندن ، وكل هؤلاء تلقوا كثيراً من معلوماتهم في القرويين ، ثم أصبحوا فيما بعد اساتذة الاستشراق في أوروبا ، ويقول المرحوم علال الفاسي عن هذا : وقد لعب المعهد القروي دوراً هاماً في تنقيح المنقول ، وابتكار المعقول ، وفي ذلك الجو نشأ أبطال في المعرفة والفلسفة أمثال : ابن رشد وابن الطفيل ، وابن باجة وابن حزم وابن العربي وغيرهم من مختلف رجال الفكر الذين نشروا المعرفة ، وضحوا في سبيلها ، وكانوا القناة التي سقت الغرب الأوروبي فأثمر حضارته الحالية ،وقد أكّد العلّامة « دِلِغان » في كتابه « فاس وجامعتها » هذه الحقيقة بأنها أول جامعة علمية في العالم إذ قال : إن جامعة القرويين تعتبر أول مدرسة في الدنيا »[1] .

ونفس الشيء بالنسبة لما أشار إليه الكاتب إذ ربما يكون في هذا الكلام مبالغة لأن مسجد رسول الله ﷺ يعتبر أول جامعة في العالم إذ تخرّج من هذا المسجد صحابة رسول الله الذين فتحوا أقطار الدنيا ، اللهم إلّا إذا

---

(١) مقال بعنوان: رسالة المسجد عبر التاريخ/ القادري أبو بكر/ بحوث مؤتمر رسالة المسجد ص ٢٤٤ .

كان الكاتب يقصد بهذا الشمولية أي تدريس مختلف العلوم في هذه الجامعة ، فهذا صحيح ، أما إذا كان غير ذلك فالمعروف أن المسجد النبوي الشريف هو الذي قام بهذا الدور قبل أن يؤسس هذا الجامع بما يقرب من قرنين من الزمان .

ولم يقتصر دور هذا المسجد على ما ذكر وإنما جهز بمستودع توضع فيه الأموال إذ يقول البعض : وقد جهز الجامع بمستودع توضع فيه أموال الجامع وأمانات الناس ، وكان محصّناً بخشب الأرز ، وبخمس منافيس بصفائح من حديد مقلوبة[1] .

ويمكن تقسيم حياة هذا الجامع إلى مرحلتين :

الأولى : هي التي تقع بين عامي ٢٤٥ ـ ٦٦٧هـ وهذه لم ينقل التاريخ ـ فيما أعلم ـ عنها معلومات دقيقة ، وإن كان يفيدنا بأن علوم التفسير والحديث وأصول الفقه ، وبعض العلوم الرياضية كانت تدرس فيه .

ولم تقتصر فائدة التعليم في هذه المرحلة على المغاربة فقط ، بل انتفع بها عدد من الأوروبيين الذين وفدوا من بلاد الأندلس ، وتلقوا علومهم بين ظهرانيه ، ويقال بأن البابا سليفستر الثاني كان أول من أدخل الأعداد العربية إلى أوروبا بعد أن أتقنها جيداً في هذا الجامع ، مع تأثره أيضاً بالنظريات الفقهية الإسلامية حيث حمل إلى بلاده ـ على ما يروىٰ ـ فكرة تطوير القانون الروماني .

---

(١) مقال بعنوان : المسجد منبر للدعوة ومنتدى للعلم/ ابن عبد الله/ عبد العزيز/ بحوث مؤتمر رسالة المسجد ص ١٠٢ .

الثانية : تبدأ من سنة ٦٦٧ هـ ـ سة ١٠٥٠هـ من عهد الدولة المرينية إلى أوائل الدولة العلوية ، وقد امتازت عن الأولى بازدهار الحياة العلمية في ذلك العهد .

كما أنشئت في هذه الفترة مساكن يقيم فيها الطلبة الوافدون من الأقطار الأخرى .

وإلى جانب ذلك فقد امتازت هذه الفترة بأنها عرفت أياماً للعطلة ، منها الخميس والجمعة وأربعين يوماً للصيف ، إلى جانب عطلة يوم عاشوراء ، واسبوعاً في عيد الفطر ، ومثله في عيد الأضحى .

وما لبث هذا الجامع أن أصبح جامعة مشهورة تقوم بواجبها في حرية تامة .

ففي سنة ١٩٣١م صدر مرسوم بتقسيم التعليم بالجامع إلى ثلاث مراحل ، ابتدائية ، ثانوية ، عالية ، كما تقرر جعله جامعة مؤلفة من ثلاث كليات هي : الشريعة ، والآداب ، والعلوم[١] .

وقد ابتليت البلاد المغربية بالاستعمار الفرنسي ، وأوجس الفرنسيون من هذا الجامع خيفة ، فحاولوا أن يوصدوا أبوابه أمام الطلبة أو على الأقل بأن يحددوا عدد الطلبة فيه بحجة الإصلاح والتجديد ، ولكنهم اصطدموا بمعارضة شديدة عندما فطن المولى يوسف ـ ملك البلاد ـ إلى نواياهم ، وخصوصاً حينما عيّن الملك محمد الخامس الأستاذ محمد الفاسي مديراً لجامعة القرويين سنة ١٩٣٧م ، وهو من علماء القرويين الذين استكملوا دراستهم في باريس ، حيث أدخل العلوم العصرية ، واللغات الأجنبية في

---

(١) الموسوعة الثقافية ص ٣٣٤ .

مناهج التعليم إلى جانب المواد الدينية ، كما أنشأ قسماً خاصاً لتعليم الفتيات تابعاً للجامعة .

وقد أثمرت هذه الجهود حيث سجل علماء وطلاب الجامعة صفحات ناصعة بيضاء في مناوأتهم للقوى الاستعمارية ، كما أن دور هؤلاء العلماء في تحرير المغرب لا يقلّ بأي حال عن الدور الذي قام به علماء الأزهر ، في مناوأتهم للاستعمار . وبالرغم مما وصل إليه جامع القرويين من مكانة سامية ، وشهرة طبقت الآفاق ، فإن الاستعمار بكل أشكاله وألوانه لم يغفل عن التصدي لهذا الصرح الشامخ وعلمائه وطلابه ، حيث تعرض رجاله لحملة هوجاء من قبل العديد من الكتاب الافرنج ، ومن سار على نهجهم سواء ممن وردواْ على المغرب في بعثات خاصة ، أو من كانت لديهم خلفية عما وصل إليه هذا الجامع وعلماؤه من مركز مرموق في مختلف العلوم ، حيث نعتوهم بالتخلف والجمود ومحاربة التطوير ، كما طعنوا في كفاءتهم . هذا إن دل على شيء فإنما يدل على الحقد الدفين الذي يكنه هؤلاء وأمثالهم ضد علماء القرويين الذين نشروا الاسلام في ربوع عديدة من إفريقية وأوروبا ، محاولة منهم للإقلال من قيمة هذا الصرح العملاق الذي صمد أمام جميع التيارات المناوئة للاسلام .

هذا هو جامع القرويين الذي أصبح فيما بعد جامعة القرويين ، والذي ظل عبر العصور معقلاً للتراث الإسلامي ، والحضارة العربية الإسلامية في شمال افريقيا ، كما أن فضل بقاء بلاد المغرب على صبغتها العربية الإسلامية يرجع بالدرجة الأولى إلى هذه الجامعة ، كما يرجع إلى المعاهد الدينية الاقليمية التي تغذيها هذه الجامعة بالأساتذة والمرشدين الذين انتشروا في كل مكان من بلاد المغرب ينشرون رسالة العروبة والإسلام .

جامع قرطبة(*)

قبل البدء في الحديث عن جامع قرطبة يحسن أن أورد نبذة قصيرة عن فتح العرب لشبه جزيرة ايبريا وادخالها في حوزة الإسلام .

لقد فتح العرب الأندلس سنة ٩٢هـ عندما أسند « موسى بن نصير » - القائد الأموي في شمال افريقيا - قيادة ذلك الجيش إلى مولاه القائد « طارق بن زياد » وذلك بعد موافقة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وبعد أن تم فتح بقية شمال إفريقيا . عندها اتجه الجيش الإسلامي بقيادة طارق إلى شبه جزيرة ايبريا « الأندلس » ، وتم فتحها على يد طارق وموسى وغيرهما وظلت الأندلس خاضعة للأمويين حتى سقطت تلك الدولة على يد بني العباس سنة ١٣٢هـ .

وبالرغم من سقوط تلك الدولة في الشرق ، إلَّا أن الأندلس لم تكن خاضعة في يوم من الأيام لسلطة العباسيين ، ذلك أن واحداً من أحفاد عبد الملك بن مروان، قد فرَّ من جلادي بني العباس ثم التحق بأخواله في المغرب الأقصى ، حتى استطاع بجهوده أن يؤسس دولة هناك في الأندلس تحمل اسم دولته المنهارة . ذلك الشاب هو « عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك » . وبالطبع فإن هذا التصرف من قبل عبد الرحمن لم يكن ليرضي بني العباس ، ولم يدر بخلد أحد منهم بأن هذا الشاب سينشيء ملكاً ينافس ملك بني العباس في الأندلس ، ولو علموا لبذلوا كل الأسباب في سبيل القضاء عليه قبل أن ينال مطلبه ، وعندما أصبح وجود عبد الرحمن في الأندلس حقيقة واقعة ، سارع أبو جعفر المنصور بإرسال

(*) عن هذا الجامع أنظر ملحق الصور رقم ٣٢ في آخر الكتاب.

جيش إليه معتمداً على مؤيديه في الأندلس بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي ، وقد جرت معركة بين أنصار أبي جعفر وبين عبد الرحمن وأعوانه ، انتهت بانتصار ساحق للأمويين على خصومهم ، ولم يكتف عبد الرحمن بهذا النصر المؤزر ، وإنما عمد إلى قطع رؤوس أعوان المنصور ، ووضعها في صناديق ، وكتب اسم كل واحد وعلقه في أذنه ، وأرسلها إلى المنصور الذي قيل بأنه كان حاجاً إذ وضعت الصناديق أمامه في بطحاء مكة ، وقيل بل أرسلت إليه الصناديق وهو في عاصمته في العراق ، وسواء تم ذلك في مكة أو في العاصمة لدولة بني العباس ، فإن المنصور عندما شاهد المنظر هاله ما رأى وقال عبارته المشهورة : « الحمد لله الذي جعل البحر حاجزاً بيننا وبين هذا الشيطان » يقصد : عبد الرحمن الداخل ، وسماه « صقر قريش » والفضل ـ كما يقال ـ ما شهدت به الأعداء .

ولعل أبرز وصف لهذا الجامع هو ما تحدّث عنه الولبني إذ يقول عن هذا المسجد :

والجامع قدّس الله تعالى بقعته ومكانه ، وثبّت أساسه وأركانه ، قد كسي ببردة الازدهاء ، وجلي في معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول في سنان ، أو أشر في أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حلل ، وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهاراً قد أحدق به ليل ، كما أحدث بربوة سيل ، ليل دامس ، ونهار شامس ، وللذبال تألق كنضنضة الحيّات ، أو إشارة السبابات في التحيات ، قد أترعت من السليط كئوسها ، ووصلت بمحاجن الحديد رءوسها، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة، أو كالثعابين العائمة، عصبت بها تفاح من الصفر ، كاللقاح الصفر ، بولغ في صقلها وجلائها ، حتى

بهرت بحسنها ولألائها ، كأنها جليت باللهب ، وأشربت ماء الذهب ، إن سمَّتّها طولاً رأيت منها سبائك عسجد ، أو قلائد زبرجد ، وإن أتيتها عرضاً رأيت منها أفلاكاً ، ولكنها غير دائرة ، ونجوماً ولكنها ليست بسائرة ، تتعلق تعلق القرط من الذِّفريٰ(*) ، وتبسط شعاعها بسط الأديم حين يفرىٰ ، والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود ، وعرضت عليها عرض الجنود ، ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد ، ويستوي في هداية ضيائها الشقي والسعيد ، وقد قوبل منها مبيض بمحمر ، وعورض مخضر بمصفر ، تضحك ببكائها ، وتبكي بضحكها ، وتهلك بحياتها ، وتحييٰ بهلكها ، والطيب تفغم أفواحه ، وتتنسم أرواحه ، وقتار الألنجوج(**) والند ، يسترجع من روح الحياة ما نَد ، وكلما تصاعد وهو محاصر ، أطال من العمرر ما كان تقاصر ، في صفوف مجامر ، ككعوب مقامر ، وظهور القباب مؤللة ، وبطونها مهللة ، كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان ، قد قوس محرابها أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنه بالمجرة مقرطق ، وبقوس قزح ممنطق ، وكأن اللازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام ، والناس أخياف(***) في دواعيهم ، وأوزاع في أغراضهم ومراميهم ، بين ركّع وسجّد ، وأيقاظ وهجد ، ومزدحم على الرقاب يتخطاها ، ومقتحم على الظهور يتمطاها ، كأنهم بَرَد خلال قطر ، أو حروف في عرض سطر ، حتى إذا قرعت أسماعهم روعة التسليم ، تبادروا بالتكليم ، وتجاذبوا بالأثواب ، وتساقوا بالأكواب ، كأنهم حضور طال عليهم غياب ، أو سَفْر أتيح لهم

(*) الذِّفرىٰ : أصل الأُذُن .

(**) الألنجوج : هو البخور .

(***) أخياف : أي مختلفون .

إياب ، وصَفِيُّكَ مع إخوان صدق ، تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق ، في مكانٍ كوكر العصفور ، أستغفر الله أو ككناس اليعفور ، كأن اقليدس قد قسم بيننا مساحته بالموازين ، وارتبطنا فيه ارتباط البيادق بالفرازين ، حتى صار عقدنا لا يحل ، وحدُّنا لا يفل ، بحيث نسمع سور التنزيل كيف تتلى ، ونتطلع صور التفصيل كيف تجلى ، والقومة حوالينا يجهدون في دفع الضرر ، ويعمدون إلى قرع العمد بالدرر ، فإذا سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين ، وسرت نحوهم سري القين ، توهموا أنها إلى أعطافهم واصلة ، وفي أقحافهم حاصلة ، ففروا بين الأساطين ، كما تفرّ من النجوم الشياطين ، كأنما ضربهم أبو جهم بعصاه ، أو حصبهم عمير بن ضابيء بحصاه ، فأكرم بها مساعٍ تشوق إلى جنة الخلد ، ويهون في السعي إليها إنفاق الطوارف والتلد ، تعظيماً لشعائر الله ، وتنبيهاً لكل ساه ولاه ، حكمة تشهد لله تعالى بالربوبية ، وطاعة تذل لها كل نفس أَبية ، فلم أر أدام الله سبحانه عزك منظراً منها أبهىٰ ، ولا مخبراً أشهىٰ ، وإذ لم تتأمله عياناً ، فتخيله بياناً ، وإن كان حظ منطقي من الكلام ، حظ السفيح(*) من الأزلام ، لكن ما بيننا من مودة أكَّدنا وسائلها ، وذمة تقلَّدنا حمائلها ، يوجب قبول إتحافي سميناً وغثاً ، ولبس إلطافي جديداً ورثًا ، لا زلت لزناد النبل مورياً ، وإلى آماد الفضل مجرياً ، والتحية العبقة الريًا ، المشرقة المحيًا ، عليك ما طلع قمر ، وأينع ثمر ، ورحمة الله تعالى وبركاته[1] .

إذاً فالحديث عن مسجد قرطبة وروعته كأثر معماري من تلك الآثار العظيمة التي تركها المسلمون في الأندلس ، يعيد إلى الأذهان تلك الفترة

(*) السفيح : أحد سهام الميسر التي لا حظَّ لها في الربح .

(١) المقري : نفح الطيب جـ ٢ ص ص ٩٠ ـ ٩٢ .

التاريخية الخصبة من تاريخ الإسلام ، حيث استقر في الأندلس قرابة ثمانية قرون ، وخلال تلك الفترة المشرقة من التاريخ الإسلامي انتقلت الحضارة العربية الإسلامية إلى الأندلس ، ومنها إلى أوروبا التي كانت يومها تتخبط في ظلام دامس .

نعم لقد استمرت الأندلس خاضعة للعرب المسلمين ما يقرب من ثمانمائة عام حتى سقطت غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس في عهد أبي عبد الله الصغير على يد كل من « ايزابيلا » و« فرناندو » ، ملكي قشتالة وأرغون وذلك في سنة ١٤٩٢م وبهذا زال كل أثر للإسلام في تلك البلاد .

وقد أُسس هذا المسجد في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل في الأندلس بمدينة قرطبة وانتهى سنة ١٧٠هـ وكان مستطيلاً طوله خمسة وسبعون متراً تقريباً ، وعرضه خمسة وستون متراً ، حيث أراد أن يجعله مماثلاً لجامع دمشق في الشام ، وكان هذا الجامع يفوق معابد الشرق قاطبة بعظمته وروعته ، خاصة بعد توسعته وعمارته ، حتى أعتبره العديد من الجغرافيين والمؤرخين المسلمين وعلماء الآثار أروع مثل للعمارة الإسلامية والمسيحية على السواء في العصر الوسيط ولقد أصبح للمسجد بعد الزيادات التي كان آخرها زيادة المنصور « محمد بن أبي عامر » واحد وعشرون باباً كلها ملبسة بالنحاس ، ويحتوي على مقاصير مسقفة للنساء ، وعدد أعمدته ألف ومائتان وثلاثة وتسعون عموداً كلها رخام ، وجدار المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء[1] .

---

(١) المقري / نفح الطيب جـ ٢ ص ٨٥ .

ويشير الدكتور أحمد فكري إلى أن عرض المسجد قد بلغ مائة وخمسة وعشرين متراً ، وطوله مائة وثمانين متراً ، وهي مساحة تبلغ اثنين وعشرين ألفاً وخمسمائة من الأمتار المربعة ، أو ما يزيد عن خمسة أفدنة ، وهي المساحة التي ما زال المسجد العظيم يشغلها إلى اليوم ، والتي يشغل بيت الصلاة منها أكثر من ثلاثة أفدنة ، جعلت منه أعظم بيوت صلاة المساجد في العالم الإسلامي حجماً ، وأكثرها اتساعاً[1] .

ولقد رافق مسجد قرطبة بناء الدولة الإسلامية في الأندلس ورقيها وازدهارها ، فأصبح الصورة الواضحة التي تعكس للعالم أجمع وعبر العصور الحضارة العربية الإسلامية أصدق انعكاس ، في مختلف الجوانب الفنية والعلمية والتاريخية .

قال عنه البعض : أما جامع قرطبة فهو تحفة معمارية لا مثيل لها ، يحيط به سور يرتفع إلى ثمانية أمتار ، وقد بني من الأحجار الضخمة ، كما أن ارتفاع الجامع ثمانية أمتار أيضاً ، وطوله مائة وثمانية وستون متراً ، وعرضه مائة وخمسة وعشرون متراً ، وفي داخله الأقواس الأنيقة المزينة بالقيشاني ، كما أن أعمدته من المرمر ذات الألوان الجذّابة ، ولكي تعرف عظمة هذا المسجد يكفي أن تعرف أنه يضمّ تسعمائة عمود، كما أن عدة الأعمدة في ساحته الخارجية مائتين من الأعمدة ، كما أن محراب المسجد من المرمر ، وقد كتب أعلاه بالخط الكوفي :

بسم الله الرحمٰن الرحيم . حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . وتحت هذه الآية نرى هذه الكلمات :

---

(١) المدخل ص ٢٤٧ .

الإمام الحكم أمير المؤمنين[1] .

لقد كانت أيام المسلمين في الأندلس أياماً عظيمة باقية على مرّ الأيام خالدة مع الزمن ، ولو استمرت هـذه الحضارة لـدخل الإسـلام إلى معظم أوروبا ، ولكن المنازعات والمشاحنات التي قامت بين العرب ، والخلافات التي دبت بين المسلمين ، والصـراع الجبـار على الخـلافـة بين الأمـويين والعباسيين في المشرق العربي ، والخلافات التي دبت بين أمراء الطوائف في الأندلس نفسها ، كل هذا أدى إلى انحسـار المسلمين عن هذه البـلاد التي بلغت الحضارة فيها شأواً بعيداً ، وخسر العالم الإسلامي هذا الموقع العظيم من العالم .

ويعدّ هذا الجامع أعظم جامعـة عربيـة في غرب أوروبـا في العصر الـوسيط ، فيـه كـانت تـدرس كـافـة العلوم ، ويفـد إليـه الـطلاب من مختلفالأقطار ، وكـان ممن درس في هذا الجـامع وتلقى علومـه الـراهب « جربرت » الذي أصبح فيما بعد « بابا » بـاسم البابـا سلفيستر الثـاني من (٣٩٠ ـ ٣٩٤هـ) وقـد قيـل بـأنـه انتجـع اسبـانيـا طلبـاً للعلوم الـطبيـة والرياضية ، فبلغ من العلم في هذا الجامع مبلغاً خيّل للعامة من الناس إذ ذاك أنه ساحر ، هذا بالإضافة إلى دراسته في جامع القرويين .

أما غوستاف لوبون فقد قال هو الآخر عن هذا الجامع :

إن جـامع قـرطبة الشهيـر الذي بـدأ عبد الـرحمن بإنشـائه في سنـة ٧٨٠م ، والـذي يعده علمـاء المسلمين قبلة أنـظار المغـرب، من أجمـل المباني التي شادها العرب في اسبانيا ، إذ بني ذلك المسجد الجـامع في

---

(١) بيوت الله ص ص ٦٦ ، ٦٩ .

أواخر القرن الثامن من الميلاد بأمر عبد الرحمن الأول وإشرافه .

وروي أن عبد الرحمن الأول هذا أراد أن يجعله مماثلاً لجامع دمشق على أوسع نطاق ، ومذكراً الناس بفيض زخارفه ، بعجائب هيكل سليمان القدسي المجيد الذي هدمه الرومان .

وكان جامع قرطبة يفوق معابد الشرق قاطبة بعظمته وروعته ، وترى ارتفاع مئذنته أربعين ذراعاً، وترى قبته الهيفاء تقوم على روافد من الخشب المحفور ، وتستند إلى ألف وثلاثة وتسعين عموداً ، مصنوعاً من مختلف الرخام ، إذ يتألف منها تسعة عشر صحناً واسعاً طولاً ، وثمانية وثلاثون صحناً ضيقاً عرضاً ، وترى في وجهه الجنوبي المقابل للوادي الكبير تسعة عشر باباً مصفحاً بصفائح من البرونز العجيب الصنع ، خلا الباب المتوسط الذي كان مصفحاً بألواح من الذهب ، وترى في كل من وجهه الشرقي الجانبي ، ووجهه الغربي الجانبي تسعة أبواب مشابهة لتلك الأبواب[1] .

كما أوردت المستشرقة الألمانية « سيجريد هونكة » حديثاً عن جامع قرطبة ، دحضت فيه الآراء التي قال بها العديد من المستشرقين من أن المسجد قد اقتبس كثيراً من نظامه التخطيطي من الكنائس والهياكل وغيرها ، إذ تقول في هذا :

وعندما زاد عدد السكان في قرطبة إلى درجة جعلت من الضرورة بناء مسجد كبير لهم ، فاضطر عبد الرحمن بن معاوية إلى شراء كاتدرائية قرطبة من المسيحيين ، ودفع لهم مائة ألف دينار ثمناً لها لكي يرمموا بها بقية كنائسهم المهدمة ، وكان من الممكن أن ينتقل المسلمون إلى الكاتدرائية

---

(١) حضارة العرب ص ٢٨٤ .

بعد شرائها ، وأن يعدلوا في بنائها كيف شاءوا ، ولكن عبد الرحمن لم يرض أن يجعل من الكنيسة مسجداً ، ولم يكن في حاجة لمثل ذلك الإجراء ، فأمر ببناء مسجد جديد مكانها ، استخدمت في بنائه عمد الكنيسة المزالة .

كما لم يعتمد عبد الرحمن على أي من أشكال البناء الغربية ، فبرغم استخدامه لعمد الكنيسة أو لمواد البناء الموجودة فقد صمم على أن يكون المسجد إسلامي الطراز تماماً ، وبرغم استخدامه للمهندسين والعمال من مختلف الأجناس ، فإن الطراز العربي الأصيل ظهر واضحاً جلياً ، ولم يظهر هذا الاتجاه العربي فقط فيما يتعلق بالمحراب والقبلة أو المنبر أو المئذنة ، مما يختص بشعائر الصلاة والإسلام ، بل تعداه إلى البناء بأكمله ، ولم يكن المسجد تقليداً للكنيسة بالمرة .

فمفهوم المسجد يختلف عند المسلمين تمام الاختلاف منذ البداية عن مفهوم المسيحيين للكنيسة . فليس المسجد بيت الله المقدس الذي يتقرب فيه المؤمن من الله عن طريق وساطة الكاهن ، فمن قبيل التبرك أصبح بناء الكنيسة يرمز حرفياً ، وليس معنوياً إلى مملكة السماء التي يحكمها المسيح .

أما المسجد فقد تحرر من كل تلك الأفكار الشاعرية ، وكان هدفه بسيطاً واقعياً ، فالعالم كله مسجد كبير بني لله ، فالمسلم يصلي لربه فوق أية بقعة من الأرض يكون فيها ، ولم يفرض عليه الإسلام ضرورة الصلاة في مسجد أو معبد ، وعبادته ليست مرتبطة بوجود كاهن مبارك يمثل دور الوسيط بينه وبين ربه ، فكل إنسان في نظره عبد لله قادر على أن يؤم

المصلين في المسجد[1] هـذه في الـواقـع شهـادة من واحـدة لا تـدين بالإسلام ، ولكن تجردها وبحثها عن الحقيقة فرضا عليها ذلك ، ولم يعمها الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين ، فقالت ما تعتقده فيهم .

ولا نشك بأن كثيرين من نصارى الأندلس الذين كانوا يعيشون تحت ظل المسلمين قد تعلموا فيه علوم العربية ، واستعربوا وتثقفوا بالثقافة العربية ، إضافة إلى تعلّم العلوم الأخرى ، إذ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مشاركة المسلمين في حياتهم ، ورغبة في تقلد المناصب الكبرى في إدارة الدولة .

وقد بقي هذا الجامع قبلة تهفو إليه قلوب المسلمين من كل مكان في أوروبا وغيرها ، كما كان جامعة إسلامية يقصدها العلماء ، كما يقصدها الطلبة أيضاً ، إذ كانت قرطبة في ذلك الوقت مستقر العلماء وينبوع العلوم .

ومع كل هذا فهل بقي هذا الجامع على ما كان عليه بعد أن سقطت الأندلس ؟

الواقع يقول غير هذا ، ويحسن أن أورد بعض ما أشار إليه أحد المؤرخين المحدثين حيال التغييرات التي طرأت عليه بعد سقوط الأندلس إذ يقول :

وقد حوّل ذلك المسجد إلى كاتدرائية عندما استولى الاسبان على قرطبة سنة ١٢٣٦م ، ثم أنشئت في الجانب الغربي منه كاتدرائية صغيرة ، أمر ببنائها الملكان الكاثوليكيان فرناندو وايزابيلا ، وفي القرن السادس عشر وعلى وجه التحديد سنة ١٥٢٣م أنشئت في قلب الجامع كاتدرائية كبيرة

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ص ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ .

كاملة شوهت وسط الجامع تشويهاً مؤسفاً ، وقد أنكر الامبراطور كارلوس الخامس المعروف باسم « شارلكان » هذا البناء المقحم على المسجد العظيم الذي أفسد الصورة الرائعة التي كان بيت الصلاة في هذا المسجد يمتاز بها ، ومن غريب الأمر أن بيت الصلاة لا يزال محتفظاً إلى اليوم بمعظم بهائه وجماله[1] .

ويضيف قائلاً : ولا يقل المركز الذي يحتله مسجد قرطبة الجامع في تاريخ العلوم العربية والإسلامية عن مكانته في التاريخ المعماري الإسلامي ، فقد كان هذا المسجد من أول انشائه جامعة حقيقية تحفل بالشيوخ والطلاب ، وقد تعاقبت عليه أجيالهم ، وشدت إليه الرحال من نواحي الأرض كلها ، حتى كان خلال قرون طويلة أعظم مراكز العلم في أوروبا[2] .

ويقول في موضع آخر : ومع أن الدولة لم يكن لها إشراف مباشر على التدريس في جامع قرطبة كما كان الحال في الجامع الأزهر ، إلَّا أن أهل العلم الأندلسيين عرفوا كيف يضعون من القواعد والنظم ما حفظ لجامعهم مستواه العلمي الرفيع ، فكان شيوخ جامع قرطبة أجلّ الشيوخ وأوفرهم علماً وأحسنهم سمتاً ، وكانت الدراسة تسير فيه وفق نظام دقيق قرره الشيوخ أنفسهم وحافظوا عليه .

ولم يقتصر دور المسجد على هذا فقط ، بل نرى بأن هذا الجامع قد ظل طوال تاريخ حياته داراً للقضاء في قرطبة ، إذ كان القاضي يجلس فيه كل يوم في ركن معين من أركان بيت الصلاة ، وإلى جواره كاتبه ، ودولاب

---

(١) المساجد ص ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٩ .

محفوظاته الذي يسمى « القمطر » وأمامه المتخاصمون ، وفي مؤخرة مجلس القضاء كان يجلس نفر من المحامين ، وكانوا يسمون بالوكلاء ، وكان لا يؤذن لأحد بأن يكون خصماً أو وكيلاً إلَّا بإجازة من قاضي قرطبة ، وكان الرجل يستطيع أن يوكل عنه واحداً من هؤلاء المحامين ، ويقرر ذلك بين يدي القاضي ويتصرف كما نفعل نحن اليوم[1] .

وبالرغم من كثرة التغييرات التي طرأت على المسجد بعد سقوط الأندلس والتشويه الذي لحق به إلَّا أنه لا يزال حتى الآن يحمل طابع الفن العربي الإسلامي .

وفي هذا يقول الدكتور غوستاف لوبون :

ولا يزال جامع قرطبة من المباني المهمة مع ما أحدثه الأسبان فيه من التلف والفساد ومع تلك الكنيسة التي أقاموها فيه لتطهيره ، وكان مما صنعه الاسبان أن كلَّسوا زخارف جدره وكتاباته ، ونزعوا منه فسيفساء أرضه ، وباعوا تحف سُقُفِه الخشبية المحفورة ، فيجب على من يرغب في تمثل ما كان عليه جامع قرطبة أن ينظر إلى محرابه الذي تفلت وحده من التخريب ، وأما محراب جامع قرطبة فإننا نعترف بأنه من أجمل ما تقع عليه عين بشر[2] .

هذه في الواقع شهادة لها وزنها وثقلها في التاريخ من شخص لا يدين بالإسلام .

وعلى أية حال فقد قام هذا المسجد بدور ريادي في إثراء المعرفة في تلك البلاد التي ظلت قروناً طويلة ترزح تحت دياجير الظلام .

---

(١) المساجد ص ١٩٩ .

(٢) حضارة العرب ص ٣٥٢ .

خاتمة

والآن وقد ألقينا نظرة فاحصة على المسجد في الإسلام ودوره العلمي والسياسي منذ أسس النبي ﷺ مسجده في المدينة المنورة إلى يومنا هذا ، ورأينا كيف كان المسجد ولا يزال عبر القرون والأجيال مصدر إشعاع علمي وثقافي ، وكيف كانت له مع مرور الشهور والأعوام رسالته الخالدة في خدمة العلم والدين .

كما أن مهمته لم تنحصر في اتخاذه مكاناً للعبادة ؛ بل إنه كان ولا يزال يعتبر معقلاً من معاقل الهداية والإرشاد ، ومركزاً من مراكز التعليم والتوجيه لما ينفع الناس في الدنيا والآخرة ، ومدرسة لتقويم سلوك الإنسان وتقوية إرادته ، ودفعه إلى الاستقامة والخير ، ترعرعت محافل العلماء بين عمده ومحاريبه ، وتخرّجت قوافل القادة والزعماء من ميادين أفنيته .

كان المسجد هو أول المنشئات التي عني بإقامتها المسلمون ، يمارسون فيه عبادة خالقهم ، ويوجهون فيه حياتهم في كل اتجاه ، كما يعتبر المسجد هو فاتحة التاريخ الحضاري للمسلمين ، وأول الثمار لتمكين الله لهم في الأرض ، فمن المسجد انطلقت جحافل المسلمين مكبّرة مهلّلة لافتتاح أقطار واسعة شاسعة ، وإدخالها في حوزة الإسلام . وفي المسجد تتجلى المساواة بأجلى مظاهرها ، فأية مساواة أفضل من تلك المساواة التي

تحققها الصلاة ؟ « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » وأية وسيلة لتعليم المسلم خلق التواضع كتلك الوسيلة ؟ .

هذا المظهر من المساواة الذي يتمثل في الصلاة لا فرق بين غني وفقير ، وكبير وصغير ، وعبد وحر ، هذا المظهر الذي يقضي على جميع الفوارق وقف أمامه العديد من الأجانب والمستشرقين مشدوهين ، ومن بين هؤلاء « رينان الفيلسوف الفرنسي » الذي يقول : « إنني لم أدخل مسجداً من مساجد المسلمين من غير أن اهتز خاشعاً وأن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لم أكن مسلماً » .

ويقول سير توماس أرنولد أيضاً عن الصلاة في المسجد :

هذا الفرض المنظم من عبادة الله ، هو من أعظم الامارات المميزة للمسلمين عن غيرهم في حياتهم الدينية ، فكثيراً ما لاحظ السائحون وغيرهم في بلاد الشرق ما لكيفية أدائه من التأثير في النفوس .

وتأسياً بالنبي ﷺ الذي كان يجلس في المسجد لتعليم الناس أمور دينهم ودنياهم ، فقد ارتبط المسجد بتاريخ التربية الإسلامية ، وأصبح المنارة التي تشع في المجتمع الإسلامي بنور العلم والمعرفة ، وإذا عرفنا أن المسجد في عصور الإسلام الزاهرة كان مركزاً للتوجيه الفكري والأخلاقي والأدبي والاجتماعي .

وإذا كان المسجد يتخذ مكاناً للتعبد ، ومعهداً للتعليم ، وداراً للقضاء ، وساحة لتجمع الجيوش وتعيين القواد ، وتسليم الألوية ، وتوجيه المجاهدين ، وموضعاً لاستقبال السفراء ، وميداناً للتدريب الحربي . إذا عرفنا ذلك كله أدركنا الرسالة العلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية التي يضطلع بها المسجد في المجتمع الإسلامي على مرّ العصور .

ولو طالعنا صفحات التاريخ الإسلامي البشري لوجدنا أن الأعمال الكبرى التي تمت فيه قد بدأت الدعوة إليها في أغلب الأحيان من المسجد ، ففي المسجد صدرت كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والحكام ، وفيه كتب كتاب الوحي كتاب الله بين يدي رسول الله ﷺ ، وفيه كانت توضع الخطط وترسم المناهج ، ويعين الولاة وأمراء الجيوش ، كما كانت تتقبل فيه البيعة من الناس ، ومنه يعلن الخليفة سياسته للمسلمين ، بل أكثر من هذا نرى أن المسجد قد استخدم لأغراض أخرى غير ما ذكر ، حيث خصص جزء منه مستشفى يعالج فيه المصابون ، كما حصل في غزوة الأحزاب ، وكما حصل في جامع أحمد بن طولون في مصر حينما خصص جزء منها بيمارستاناً يعالج فيه المرضىٰ بالإضافة إلى صيدلية يصرف منها العلاج .

كما كان يتخذ مجالاً للتعليم والتقويم الاجتماعي .

وعلى الإجمال فإن رسالة المسجد تستمد رسالتها وجوهرها من رسالة سيد الأنام محمد ﷺ ، ورسالته عليه الصلاة والسلام كانت رسالة شاملة تهدف إلى إصلاح العبد فيما بينه وبين ربه ، وإصلاحه فيما بينه وبين نفسه ، كما كانت تهدف إلى إصلاح كل طبقات المجتمع والرفع من شأنها ، والدفع بها في ميدان العمل الصالح البناء ، ليصبح المجتمع الإسلامي مجتمعاً مثالياً ، حتى يتحقق فيه وينطبق عليه ما أراده الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة من أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾ ففي المسجد يشعر المؤمن بكرامته التي كرمه الله بها ، وأنه متساو في الحقوق والواجبات مع جميع من يجلسون معه ، سواءً

كانوا حكاماً ومحكومين ، أغنياء أو فقراء ، جهالاً أو علماء ، فهم واحد من كل ، ولا ميزة لأي واحد إلَّا بالتقوى ، يقول تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ، ويقول عليه الصلاة والسلام : لا فضل لعربي على عجمي إلَّا بالتقوى .

ومن المسجد أيضاً تنطلق الدعوة إلى الله صارخة هادفة موضحة مبينة ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ .

نعم لقد أدى المسجد في الإسلام دوراً خطيراً في التوجيه والإرشاد والدعوة وإصلاح البشر وتربيتهم ، وتقوية الشعور الديني ، وتدريب المصلين من المؤمنين على الأعمال الجماعية التي يدعو إليها الإسلام ، والحفاظ على الوحدة الإسلامية حقيقة ومظهراً ، وما صلاة الجماعة التي تعقد خمس مرات في اليوم والليلة في المسجد ، ويحضرها كل من وجبت عليه في الحي إلَّا دليلاً حياً على ذلك .

وعلى المسلم أن لا يعيش لنفسه فقط ، وإنما يجب عليه أن يتعاون مع إخوانه فيما يخدم الصالح العام للأمة الإسلامية ، إذ يقول تبارك وتعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ .

وليس من شك في أن المسجد هو الأساس لكل نهضة وإصلاح ، في إطار الأمة الإسلامية التي أشرقت على الدنيا من خلال المسجد ، شمس هداية ونور معرفة ، ورائد حضارة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، وهي مؤهلة اليوم وفي كل يوم إذا ما عرفت كيف تعيد إلى هذا المنطلق قوته وتأثيره في البعث والتجديد والقيادة الصحيحة للبشرية قاطبة ، بعد أن أوردتها الحضارة الغربية موارد الدمار والهلاك والضياع ، وإن نظرة واحدة فاحصة إلى مراحل الدعوة الإسلامية تاريخياً تبين بما لا يقبل الشك والجدل أهمية دور المسجد

ورسالته العظمى في بناء الأمة بناءً قوياً سليماً ، يضطلع عن جدارة واستحقاق بأعباء المسيرة وإيصالها إلى الهدف المنشود ، وهو سعادة الدارين ، فلقد كان بناء المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة أول أعمال الرسول ﷺ بعد وصوله مهاجراً إليها لأن المسجد هو بيت الله تعالى ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً ﴾ وهو بيت المسلمين أيضاً .

هو بيت الله تعالى ، إذ لا يذكر فيه معه أحد ولا ينسب إلاَّ له عز وجل .

وهو بيت المسلمين ، لأنه مستقرهم وحرمهم ومأمنهم وطمأنينتهم ، ففيه وحدة صفهم ورأيهم ومشورتهم ، وفيه اجتماعهم ، والمسجد ليس حجارة ترفع ، وأعمدة تشاد وتعلو ، أو زينة تملأ الجدران ، بل قلوباً متعاطفة عامرة بالإيمان وعقولاً نيّرة تنعم بالعلم والمعرفة ، وأرواحاً تصقل وتهذب ، وجنوداً يعبَّأون لرسالة الحق .

من كل هذا : نريد عودة المسجد بصورته الأصلية المشرقة ، ورسالته السامية النظيفة ، ودوره الصحيح السليم ، كي تتفاعل معه حياتنا علماً وفهماً وتطبيقاً ، فنستعيد مركزنا القيادي في الوجود البشري ، والواقع الحضاري الإنساني ، وبغير المسجد علماً وتعلماً وتأثراً لن نصل إلى ما نريد لأن المسجد من حيث الرسالة هو الاسلام ، والإسلام وحده هو باب الحياة الفاضلة .

إذاً فمن واجب المسلمين أن يعيدوا إلى المسجد وظيفته ومهابته وحيويته حتى يصبح مصدر إشعاع يرشد فيعلِّم ، ويهدي فيقوِّم ، ويحض على المكرمات ، ويعلّم الناس كيف يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً ،

ويعملون لآخرتهم كأنهم يموتون غداً .

فرسالة المسجد إذاً ضخمة متشعبة الجهات ، متنوعة الأهداف ، فيها الخير كل الخير للدين والخلق والثقافة ، وسلامة الأبدان ، وتقويم ما اعوجّ من شؤون المجتمع إذا أحسن أداؤها .

لهذا نرى أنه من الواجب علينا أن نستجيب لهذه الأصوات التي تنبعث من هذه المساجد كل يوم خمس مرات ، تدعو الناس إلى الصلاة ، ثم تدعوهم بعد ذلك إلى الفلاح ، ولن يكون هناك فلاح بمعناه الحقيقي لأمة محمد ﷺ إلَّا إذا أعادت للمساجد رسالتها العظيمة في خدمة العلم والدين ، فتصبح المساجد معابد يذكر فيها اسم الله ، وتقام بين جنباتها شعائر الدين الحنيف ، ومدارس للتعليم بجميع أشكاله وألوانه ، وعلى اختلاف مراحله خاصة في الدين واللغة العربية وفي وجوب العودة إلى ما كانت عليه المساجد في العهود السابقة يقول البعض في هذا أثناء حديثه في مؤتمر رسالة المسجد :

أيها الاخوان عودوا بالمساجد إلى ما كانت عليه في عهود أسلافكم الأمجاد ، أعيدوا إليها الحياة العلمية ، وضعوا لها المناهج الدراسية ، وأعدوا لها المدرّسين والوعّاظ والمحاضرين ، ولا يعني ذلك أن تنقل إليها إليها الدراسة التي بالمدارس والمعاهد الثقافية ، ولا أن تكون بديلاً عنها وعن الجامعات ، فلكل طريقه في الحياة العلمية والعملية ، دينية ودنيوية ، بل القصد أن تسهم في النهضة العلمية والعملية ، ولا أن تبخس حظها من ذلك أو تهضمه حقوقها ، إن للدراسة بها روحانية توثق الصلة بين العلم والعمل ، فاجعلوها مصدر بلاغ وبيان ، ومبعث حياة للقلوب ، ونور للبصائر ، وتهذيب للنفوس والأخلاق ، يكتب الله لكم القوة والنصر ، ويتم

عليكم نعمته[1] ترى هل في استطاعة مسلمي اليوم أن يعيدوا إلى المسجد رسالته ومكانته العلمية التي فقدها منذ قرون ؟ أم ليس في استطاعتهم ذلك ؟

الإجابة ـ في نظري ـ على هذا التساؤل سهلة وميسرة . فإذا تمكّن المسلمون من إعداد نماذج طيبة من الدعاة الحقيقيين المخلصين ، الذين يحملون كفاءة علمية وفكرية وروحية وخلقية ، دعاة إلى الله بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ، ثم حملوا هذه الأمانة بكل صدق وإخلاص ، نبراسهم في هذا تحقيق قول الله تعالى فيهم : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

إذا تحقق هذا كله فإنه سيتبدل خوفهم أمناً ، وضعفهم قوة ، وهزائمهم نصراً ، وسيعود المسلمون كما كانوا من قبل ، ليكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليهم شهيداً .

وقبل هذا كله فإن المسلمين إن أخلصوا دينهم لله ، واجتمعت كلمتهم على الحق ، وترسموا خطى النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعاشوا في ضوء هدايته ، فإن باستطاعتهم أن يعيدوا إلى المسجد عظمته وبهاءه التي تمتع بها قروناً عديدة .

وليس مؤتمر رسالة المسجد الذي عقد في مكة المكرّمة في عام ١٣٩٥هـ ، والقرارات والتوصيات التي اتخذها المؤتمرون ، إلَّا بادرة خير

---

(١) مقال بعنوان « المساجد خير بقاع الأرض »/ بحوث مؤتمر رسالة المسجد/ الشيخ إبراهيم بن محمد آل الشيخ ص ٢٩٩ .

أريد بها إعادة المجد والعزة للمسجد في عصوره الأولى التي فقدها(*)، ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

هذه دراسة أقدمها للقاريء الكريم أرجو أن أكون قد وفقت في عرض بعض الحقائق عن الأدوار التي اضطلع بها المسجد في عصور الإسلام المتتالية ، في جوانب متعددة ، سواء العلمي منها أو السياسي أو الاجتماعي بالإضافة إلى الديني .

ولا يعني هذا أنني أدعي الوصول إلى الكمال في هذا البحث ، وإنما اعتقد أنه ما زال بحاجة ماسة إلى معالجة ، ولكن هذه لبنة أضيفها إلى لبنات تحدّث عنها من سبقني في هذا الموضوع .

تلك الدراسة ما هي إلَّا مجرد نافذة أفتحها لمن يريد أن يطرق هذا الموضوع ويحاول فتح نوافذ جديدة يصل من خلالها إلى كثير من الحقائق التي لم يكشف عنها بعد .

والله أسأل مخلصاً له الدين ، أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، وأن يمنّ علينا بالتوفيق والسداد ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وهو الهادي إلى سواء السبيل ، وصلَّىٰ الله على محمد وآله وصحبه .

(*) عن تلك القرارات والتوصيات التي اتخذها المؤتمرون انظر الملحق الأول في آخر الكتاب .

الملاحق

الملحق الأول

قرارات وتوصيات مؤتمر رسالة المسجد

المنعقد في مكة المكرّمة بدعوة من رابطة العالم الإسلامي

في الفترة من ١٥ ـ ١٨ رمضان ١٣٩٥هـ

الموافق ٢٠ ـ ٢٣ سبتمبر ١٩٧٥م »

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد :

ففي رحاب البيت العتيق الذي قال الله فيه سبحانه : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ .

وفي شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ثم في مقر الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي ، التي كانت منها أول دعوة لأول مؤتمر قمة إسلامي ، وصدرت عنها أول دعوة لانعقاد أول مؤتمر لرسالة المسجد في العالم الإسلامي ، وعقد بها أول مؤتمر للمنظمات الإسلامية بالعالم . وفي هذا المناخ الإيماني الكريم انعقد أول مؤتمر لرسالة المسجد في الفترة ما بين الخامس عشر والثامن عشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٩٥هـ الموافق العشرين إلى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٧٥م ، وشهده بالإضافة إلى

الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي وفود دول ومنظمات وأقليات إسلامية من ثمانين دولة هي :

الأرجنتين ، الأردن ، اسبانيا ، استراليا ، افغانستان ، ألمانيا الغربية ، الإمارات العربية المتحدة ، أندونيسيا ، أوغندا ، إيران ، إيطاليا ، باكستان ، البحرين ، البرازيل ، البرتغال ، بريطانيا ، بلجيكا ، بنغلاديش ، بوتسوانا ، تايلند ، ترينداد ، تشاد ، تشيلي ، تنزانيا ، تونس ، التيبت ، جامبيا ، جزائر يو نيون ، جزائر القمر ، جنوب أفريقيا ، الداهومي ، رواندا ، روسيا ، زامبيا ، السعودية ، سنغافورا ، السنغال ، السودان ، سوريا ، سورينام ، سويسرا ، سيريلانكا ، الصين ، العراق ، عمان ، غانا ، غويانا ، غينيا ، الفلبين ، فلسطين ، فنزويلا ، فنلندا ، فولتا العليا ، قطر ، كندا ، كنغو برازا فيل ، كنغو زائير ، كينشاسا ، كوريا ، الكويت ، كينيا ، لبنان ، ليبيا ، ليبريا ، مالي ، ماليزيا ، مدغشقر ، مصر ، المغرب ، موريتانيا ، موريشس ، النيجر ، نيجيريا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، الهند ، هولندا ، اليابان ، اليمن ، يوغسلافيا ، اليونان . ولفيف من الشخصيات الإسلامية .

وبعد أن تدارس المؤتمرون جدول أعمال هذا المؤتمر انتهوا إلى التوصيات التالية :

أولاً : فيما يتعلق بموضوع : « رسالة المسجد » .

يوصي المؤتمر بما يلي :

١ ـ العناية بوضع مناهج إسلامية للدعوة تتلاءم مع واقع الحركة الإسلامية لكل منطقة ، ومراجعتها بين الحين والآخر لإضافة مزيد من الخبرات الميدانية التي تكونت للدعاة من خلال ممارستهم ميدانياً وعملياً .

٢ ـ التنسيق بين كليات الدعوة في الوطن الإسلامي ليكون لكل منها عناية خاصة ، بمساحة جغرافية معينة .

٣ ـ ضرورة التنسيق بين المسجد والوسائل الإعلامية والمؤسسات التربوية حتى تخدم جميعها عقيدة المسلم وتصحيح سلوكه حسب تعاليم الشريعة الإسلامية الغرّاء .

٤ ـ التوسع في إنشاء المساجد المتعددة الخدمات بحيث توفر لروادها إشرافاً ثقافياً واجتماعياً وتربوياً .

٥ ـ تنويع وسائل الدعوة بالكلمة المكتوبة والمسموعة وغيرها .

٦ ـ من الضروري أن ينهض المسجد برسالته في جميع الأماكن التي توجد فيها تجمعات إسلامية حيث يصبح وجود المسجد ضرورة في كل مكان يتجمع فيه المسلمون كالمدارس والجامعات والمصانع والأندية والثكنات والمعسكرات وغيرها .

٧ ـ من الضروري أن يلقىٰ الشباب في المسجد عناية خاصة بتوجيهه بالاسلوب الذي يتفق وعمر الشباب من ناحية ، وروح العصر من ناحية أخرى .

٨ ـ العناية بالمرأة حتى تنال نصيبها من الثقافة الإسلامية ، وأحكام دينها .

٩ ـ عقد اجتماعات دورية لأئمة المساجد في كل منطقة لتبادل الخبرات والتجارب ، ودراسة المشاكل التي تعترض مهمة المسجد ، ووضع الحلول المناسبة لعلاجها بما يتفق مع صالح المسلمين ضمن الإطار الإسلامي الصحيح .

١٠ ـ إحياء الرسالة التعليمية للمساجد الإسلامية العريقة كجامع الزيتونة ، والقرويين ، والأزهر ، وضرورة استمرار وظيفة تلك المساجد التعليمية بما يجدد ماضيها التاريخي الذي أدى دوراً هاماً في الحياة الإسلامية .

١١ ـ أهمية إعداد الأئمة ومساعديهم حيث يتوقف الجزء الأهم في رسالة المسجد على كفاءتهما .

١٢ ـ ضرورة العناية بالمسجد من ناحية بنائه وسائر متطلباته ، ومطابقة وظائفه وتخطيطه ، بما يخدم الهدف الأساسي من وجوده وتطهيره من كل ما يخالف شرع الله .

١٣ ـ استنفار المسلمين لاستنقاذ المقدسات الإسلامية ، وعلى الأخصّ المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي والدعوة إلى تحريرهما .

١٤ ـ يوصي المؤتمر بأن تكون للإمام حصانة تكفل له استقلاله الفكري ورأيه الحرّ في تناول مشاكل المسلمين وقضاياها في إطار الشريعة الإسلامية .

ثانياً : فيما يتعلق بموضوع : « إعداد الأئمة والخطباء والدعاة » .

يوصي المؤتمرا بما يلي :

فيما يتصل باختيار الإمام والخطيب يوصي المؤتمر بمراعاة ما يأتي :

١ ـ أن يكون قوي الصلة بربه ، وقدوة لغيره ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، قادراً على الجهر بكلمة الحق .

٢ ـ أن يقصد بما يقدمه من أعمال وجه الله والدار الآخرة ، وان يبتعد عن الرياء والمجاملة في الحق ، وأن يكون زاهداً في مدح الناس وثنائهم .

٣ ـ أن يكــون دائم الصلة بــالأصلين الأســاسيين ، واليـنبــوعـين الصافيين ، كتاب الله ، وسنّة رسوله ، ﷺ ، دراسة وتأملاً واستنباطاً وعملاً يستمد من نورهما ، ويقف عند حدودهما .

٤ ـ أن يكون دقيق الفهم ، واسع الاطلاع ، محيطاً بالبيئة التي يعيش فيها إحاطة تامة بأحـوالها وظـروفها ، والتيـارات والتحديـات التي تتعرض لها .

٥ ـ أن يدرس التاريخ الإسلامي والانساني ، وأن يكون ملماً بقسط كبير من علوم الكون والحياة .

٦ ـ أن يكوِّن له ثروة طائلة من النصـوص واللغة ، وأن يكـون على علم ببعض اللغات غير العربية ليتمكن من الإطلاع على ما يكتبه الأصدقاء والأعـداء عن الإسـلام ، ومن إفهـام وإقنـاع من يتكلم بغيـر العـربيـة من المسلمين وغير المسلمين .

٧ ـ أن يكون على مستوى المسؤولية والكفاية العلمية حتى يستـطيع أن يعالج ما يعرض له بحجة قوية وأسلوب مقنع .

٨ ـ أن يكـون ذا خلق كـريم وسلوك مستقيم ليكون محبوباً إلى قـومه فيؤمنوا عن صدق بما يقول ، ويستجيبوا لما يرشدهم إليه .

٩ ـ أن يكـون حليماً صبـوراً حريصـاً على إفادة أهـل حيـه وتنـويـر بصائرهم .

١٠ ـ أن يزهد بما عند الناس ، ويقنع بما أعطاه الله حتى يكون عزيزاً بينهم ، أهلاً لاحترامهم ومودّتهم ، بعيداً عن التعرّض لإهانتهم .

١١ ـ أن يكون حسن التلاوة لكتاب الله عالماً بأحكام تجويده .

١٢ ـ أن يكون حسن المظهر ذا زي يتسم بالوقار .

وفيما يتصل بإعداد الأئمة يوصي المؤتمر :

١ ـ إنشاء معاهد متخصصة في تخريج الأئمة والدعاة وفق مناهج يضعها الخبراء من الاساتذة وكبار الدعاة ، وذلك بناء على المشروع المقدم للأمانة العامة للرابطة .

٢ ـ إعداد البحوث الواسعة والدراسات التوجيهية المتنوعة في بيان واجبات الإمام وإنشاء مجلة متخصصة لمساعدة الأئمة في مهمتهم ، ومدهم بالبحوث التي تتصل بأعمالهم .

٣ ـ عقد الدورات التدريبية الاقليمية للاستماع من الأئمة إلى ما صادفهم من مشكلات، ومعاونتهم على حلها ، مع تزويدهم دائماً بما يجدد ثقافتهم وينشط معلوماتهم .

٤ ـ تكوين هيئة عليا للإشراف على الأئمة لمعاونتهم على أداء مهمتهم على الوجه الأكمل ، على أن تنسق هذه الهيئة العليا عملها بالتعاون مع الأمانة العامة للرابطة .

٥ ـ إحاطتهم علماً بأحدث الوسائل في خدمة الدعوة وتبليغ الكلمة بأحسن الوسائل .

ثالثاً : فيما يتعلق بموضوع : « خطبة الجمعة » .

يوصي المؤتمر بما يلي :

١ ينبغي أن تهدف خطبة الجمعة إلى تحقيق الأغراض التالية :

أ ـ الوعظ والتذكير بالله تعالى وبحسابه وجزائه في الآخرة ، وبالمعاني الربانية التي تحيا بها القلوب ، والدعوة إلى الخير والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر .

ب ـ تفقيه المسلمين وتعليمهم حقائق دينهم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، مع العنايةبسلامة العقيدة من الخرافات ، وسلامة العبادة من المبتدعات ، وسلامة الأخلاق والآداب من الغلو والتفريط .

جـ ـ تصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام ، ورد الشبهات والأباطيل التي يثيرها خصومه لبلبلة الأذهان ، بأسلوب مقنع حكيم ، بعيد عن المهاترة والسباب ، ومواجهة الأفكار الهدامة والمضللة بتقديم الإسلام الصحيح باعتباره منهج الأمة الأصيل الذي ارتضاه الله لها ، وارتضته لنفسها ديناً ، مع إبراز خصائصه من الشمول والتوازن والعمق والإيجابية .

د ـ ربط الخطبة بالحياة ، وبالواقع الذي يعيشه الناس ، وذلك بالتركيز على علاج أمراض المجتمع ، وتقديم الحلول لمشكلاته مستمدة من الشريعة الإسلامية الغرّاء ، مع إعطاء عناية لشؤون المرأة والأسرة المسلمة ، نظراً لما تتعرض له من فتنة يحرك تيارها أعداء الإسلام .

هـ ـ مراعاة المناسبات الإسلامية المختلفة التي تتكرر على مدار العام مثل رمضان ، والحج ، والهجرة وغيرها ، مما يشغل أذهان المستمعين ، ويشوقهم إلى معرفة تنير لهم الطريق بشأنه .

و ـ تثبيت معنى أخوة الإسلام ووحدة أمته الكبرى ، ومقاومة النزعات والعصبيات العنصرية والمذهبية والاقليمية وغيرها ، المفرقة للأمة الواحدة ، والاهتمام بقضايا المسلمين داخل العالم الإسلامي وخارجه ، حتى لا ينفصل المسلم فكرياً وشعورياً عن اخوانه المسلمين في كل مكان (ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) .

ز ـ إحياء روح الجهاد والقوة في نفوس الأمة ، وإشعال جذوة الحماس لحماية حرمات الإسلام ومقدساته وأوطانه ، وصون دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم والدفاع عن عقيدة الإسلام وشريعته ، والعمل لإزالة الطواغيت المعوقين لسير دعوته .

٢ ـ يجب أن تنزه خطبة الجمعة عن أن تتخذ أداة للدعاية لشخص أو لحزب أو نظام ، وأن تكون خالصة لله تعالى ولدينه ، وتبليغ دعوته وإعلاء كلمته ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ .

٣ ـ ينبغي أن لا تفرض على الخطيب خطبة موجهة من قبل السلطات يرددها ترديداً آلياً لا روح فيه ، وأن تترك له الحرية لاختيار موضوعه وإعداده وأدائه بالطريقة التي يرضاها عقله وضميره ، وفقاً لما درسه من كتاب ربه وسنّة نبيه ﷺ .

٤ ـ على العلماء والدعاة الأكفاء أن يضعواْ أمثلة رفيعة لموضوعات إسلامية متنوعة ، تشتمل على المواد الأساسية لبناء الخطبة في صورة أدلة وشواهد من الكتاب والسنّة والسيرة والتاريخ الإسلامي ، والأقوال المأثورة ، والشعر البليغ لتكون في أيدي الخطباء في شتى الأقطار الإسلامية ليستعين بها من يحتاج إليها في إعداد الخطبة .

٥ ـ يجب أن يعتمد في إعداد الخطبة على مصادر المعرفة الإسلامية الموثقة ، وأن تترفع عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، والاسرائيليات المدسوسة ، والحكايات المكذوبة ، والمبالغات المذمومة ، وكل ما لا يسنده نقل صحيح ، أو عقل صريح .

٦ ـ يجب أن تكون لغة الخطبة في البلاد العربية هي الفصحى السهلة المفهومة ، وأن تبعد عن العامية ، وعن تكلف الأسجاع والألفاظ

الغريبة على الأسماع .

أما في غير البلاد العربية فيكفي أن تكون مقدمة الخطبة وأركانها باللغة العربية ، وأما موضوع الخطبة فيجب أن يكون باللغة التي يفهمها الحاضرون .

٧ ـ ينبغي أن يكون أداء الخطبة طبيعياً بعيداً عن التغني والتشدق والصياح ، وكل مظاهر التكلف المنفرّ .

٨ ـ ينبغي أن لا يطيل الخطيب إلى حد يثقل على المستمعين وينفرهم من سماع الخطبة ، وألا يقصر إلى حد يخل بموضوعه ويبتره .

٩ ـ خطبة العيد ينطبق عليها ما يسبق بالنسبة لخطبة الجمعة مع وجوب رعاية المناسبة الخاصة بكل عيد من عيدي الإسلام ، وأن يكون لها طابع الشمول ، والتذكير العام بمباديء الإسلام .

رابعاً : فيما يتصل بموضوع : « الإشراف على المسجد » .

يوصي المؤتمر بما يلي :

بما أن المسجد مؤسسة ذات مركز عظيم ، ولهَ استقلاله الذاتي حكومياً كان أو أهلياً ، فهو يحتاج في النهوض برسالته إلى جهاز يتولى ما يلي :

١ - أ ـ الإشراف على أداء الصلوات في أوقاتها المعلومة .

ب ـ تفقّد أحوال المسلمين الموجودين في محيط المسجد وتقديم العون لهم وتشجيعهم على أداء الصلاة جماعة وحل مشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية وإصلاح ذات بينهم .

جـ ـ جمع التبرعات وتوجيهها في مستلزمات المسجد أو إعانة المحتاجين من المسلمين .

د ـ يتم تكوين هذه اللجنة بطريق الاختيار من قبل المصلّين في محيط المسجد .

هـ ـ تشارك لجنة الإشراف على المسجد في اختيار الإمام بالتشاور مع أهل الحي .

٢ ـ أن يكون هناك تنسيق وتعاون بين لجان التوجيه والإشراف في القرية والمدينة والقطر ، ليتم التعاون مع المجلس الأعلى العالمي للمساجد .

خامساً : فيما يتعلق بموضوع : « المجلس الأعلى العالمي للمساجد » .

يوصي المؤتمر بما يلي :

تكوين مجلس أعلى باسم « المجلس الأعلى العالمي للمساجد » تكون أهدافه :

١ ـ تكوين رأي إسلامي عام في مختلف القضايا والموضوعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة .

٢ ـ محاربة الغزو الفكري والسلوك المنحرف في حياة المسلمين وبناء الشخصية الإسلامية فكراً وعقيدة وسلوكاً .

٣ ـ العمل على تأكيد حرية الدعاة إلى الله وأئمة المساجد والخطباء في الدعوة والتبليغ في إطار الكتاب الكريم والسنّة الشريفة والعمل على حمايتهم من أي اضطهاد ، وتمكينهم من أداء رسالة المسجد .

٤ ـ حماية المساجد من كل اعتداء يقع عليها وعلى ممتلكاتها من أي انتهاك لحرماتها ، وإعادة المساجد التي حولت عن طبيعتها إلى أوضاعها الأصلية كمسجد أيا صوفيا وغيره .

٥ ـ الحفاظ على الأوقاف الإسلامية واسترجاع ما عطل أو صودر منها وتنميتها .

٦ ـ الدفاع عن حقوق الأقليات الإسلامية في أداء شعائرهم الدينية في المساجد وإيقاف المضايقات التي يتعرضون لها .

الاختصاصات :

١ ـ وضع الخطط العامة لإحياء دور المسجد في التوجيه والتربية والتعليم ونشر الدعوة وتقديم الخدمات الاجتماعية .

٢ ـ إصدار مجلة دورية باسم « رسالة المسجد » تعنى برفع كفاية الأئمة والخطباء ، الثقافية والفنية وتضع بين أيديهم نماذج رفيعة من الخطب والدروس المدعمة بالنصوص من الكتاب والسنة .

٣ ـ إصدار المؤلفات والنشرات التي تشرح مباديء الإسلام وتوضح مزاياه .

٤ ـ (أ) ضرورة تخصيص إذاعة من مكة المكرمة باسم «رسالة المسجد » باللغات المختلفة وتكون قوية بحيث تسمع في جميع أنحاء العالم .

ب ـ العمل على تخصيص ركن في كل إذاعة إسلامية لرسالة المسجد .

جـ ـ العمل على إيقاف الإذاعات المسيحية الصليبية في البلاد

الإسلامية وتسليمها للمسلمين لنشر دعوة الإسلام .

٥ ـ القيام بمسح شامل للمساجد في العالم ، وتدوين المعلومات اللازمة عنها ، وضبطها في سجل خاص ، وتفريغها في كتب ونشرات دورية بين حين وآخر .

٦ ـ اختيار مجموعة من الدعاة القادرين على مهمة الدعوة والخطابة بعد إعدادهم للقيام بجولات توجيهية في مساجد العالم الإسلامي .

٧ ـ إقامة دورات تدريبية مستمرة لأئمة المساجد وخطبائها مركزية واقليمية تثري ثقافتهم وترفع كفايتهم .

٨ ـ تشكيل هيئة أو مجلس إدارة لكل مسجد تتولى الإشراف المباشر على المسجد ومرافقه وملحقاته وإدارته وتنظيم شؤونه .

٩ ـ دراسة الأفكار وأنماط السلوك التي تتعارض مع تعاليم الإسلام وتفنيدها .

تكوين المجلس :

فيما يتعلق بتشكيل المجلس الأعلى العالمي للمساجد يوصي المؤتمر بما يلي :

(١)

يعين المؤتمر هيئة تأسيسية تضع النظام الأساسي للمجلس الأعلى العالمي للمساجد ، وتسمي أعضاء المجلس لفترة تحددها ، ويكون أعضاء المجلس مسؤولين أمامَها .

وتتكون الهيئة التأسيسية من التالية أسماؤهم :

الاسم	البلد	الصفة
١ ـ فضيلة الدكتور: عبد الحليم محمود	مصر	شيخ الأزهر[١] لم يكن الآن هو شيخ الأزهر
٢ ـ سماحة الشيخ : عبد العزيز بن عبد الله بن باز	السعودية	رئيس الجامعة الإسلامية أصبح الآن هو الرئيس العام لادارات البحوث
٣ ـ سماحة الشيخ : عبد الله ابن حميد	السعودية	رئيس الاشراف الديني بالحرم المكي[٢]
٤ ـ معالي الشيخ : محمد صالح القزاز	السعودية	الأمين العام للرابطة[٣]
٥ ـ دولة الدكتور: معروف الدواليبي	سوريا	رئيس مؤتمر العالم الإسلامي[٤]
٦ ـ سعادة الاستاذ: عبد الله العلي المطوع	الكويت	أمين عام جمعية الإصلاح الاجتماعي
٧ ـ معالي اللواء: محمود شيت خطاب	العراق	عضو المجلس التأسيسي للرابطة
٨ ـ سعادة الاستاذ: كامل الشريف	الأردن	عضو المؤتمر الإسلامي العام
٩ ـ سماحة الشيخ : حسن خالد	لبنان	مفتي لبنان
١٠ ـ فضيلة الشيخ : عبد المجيد الزنداني	اليمن	رئيس مكتب التوجيه والإرشاد
١١ ـ فضيلة الاستاذ: أبو الحسن الندوي	الهند	رئيس ندوة العلماء

---

(١) لم يعد الآن هو شيخ الأزهر .

(٢) انتقل إلى رحمة اللّه .

(٣) لم يعد الآن هو الأمين العام للرابطة وإنما أمينها العام الآن هو معالي الدكتور عبد الله نصيف .

(٤) لم يعد الآن رئيساً للمؤتمر .

١٢ ـ فضيلة الشيخ : محمد يوسف	الهند	أمير الجماعة الإسلامية
١٣ ـ سعادة الاستاذ: الطفيل محمد	باكستان	أمير الجماعة الإسلامية
١٤ ـ دولة الدكتور: محمد ناصر	أندونيسيا	رئيس المجلس الإسلامي الأعلى للدعوة الإسلامية
١٥ ـ معالي الاستاذ: أحمد شيخو	أندونيسيا	رئيس المنظمة الإسلامية العالمية
١٦ ـ دولة : تون مصطفى	ماليزيا	رئيس وزراء ولاية صباح
١٧ ـ فضيلة الدكتور: كامل الباقر	السودان	رئيس الجامعة الإسلامية بأم درمان
١٨ ـ فضيلة الشيخ : أبو بكر جومي	نيجيريا	قاضي القضاة
١٩ ـ معالي الشيخ : يوسف النبهاني	غينيا	رئيس الجمعية الإسلامية
٢٠ ـ فضيلة الشيخ : محمود صبحي	ليبيا	رئيس جمعية الدعوة الإسلامية
٢١ ـ فضيلة الشيخ : موسى إبراهيم	تشاد	إمام المسلمين في تشاد
٢٢ ـ فضيلة الشيخ : أحمد حماني	الجزائر	رئيس المجلس الأعلى الإسلامي
٢٣ ـ سعادة الاستاذ : سالم عزام	أوروبا	أمين عام المجلس الإسلامي الأوروبي
٢٤ ـ سعادة الدكتور: أحمد صقر	أمريكا	مدير مكتب الرابطة

٢٥ ـ سعادة الاستاذ: داود أسعد أمريكا رئيس اتحاد الجمعيات الإسلامية في أمريكا

٢٦ ـ فضيلة الشيخ: شفيق الرحمن أمريكا الجنوبية رئيس جمعية ألاسجا

(٢) يكون لأعضاء الهيئة التأسيسية الحق في إضافة أعضاء جدد إليها تختارهم .

(٣) ينشأ مكتب أمانة عامة في رابطة العالم الإسلامي للهيئة والمجلس .

سادساً : فيما يتصل بموضوع : « تمويل المساجد » .

يوصي المؤتمر أن تكون مصادر تمويل المساجد كمّا يلي :

١ ـ ما تقدمه حكومات الدول الإسلامية من دعم مادي في تمويل ورعاية شؤون المسجد في كافة أنحاء العالم .

٢ ـ ما يتبرع به أغنياء المسلمين لتعمير بيوت الله .

٣ ـ ما يوصي به الموسرون لهذا الغرض .

٤ ـ الأوقاف التي يقفها المسلمون على المساجد .

٥ ـ ما تتبرع به المنظمات الإسلامية الشعبية لهذا الغرض .

٦ ـ المشروعات الاستثمارية التي يقوم بها صندوق التمويل بالطرق الشرعية لصالح المسجد .

٧ ـ يتم إنشاء صندوق للتمويل يتولى جمع هذه التبرعات والانفاق منها على شؤون المسجد محلياً .

٨ ـ ينشيء المسجد الأعلى العالمي للمساجد صندوقاً تكون مهمته

التنسيق بين احتياجات المساجد في أنحاء العالم .

٩ ـ من الأهمية بمكان أن يتولى المجلس الأعلى العالمي للمساجد عملية تنسيق التبرعات لتعمير بيوت الله بحيث لا يتكرر التبرع لواحد منها بينما يبقى غيره في أشد الحاجة إلى التمويل .

نفقات المساجد ورسالتها :

تغطى نفقات المساجد ورسالتها كما يلي :

١ ـ نفقات انعقاد مؤتمر المساجد ورسالتها في مختلف دوراته ونفقات انعقاد المجلس الأعلى العالمي للمساجد تقوم بها وتغطيها الدولة التي تدعو لعقده بمساعدة رابطة العالم الإسلامي .

٢ ـ نفقات تنفيذ قرارات المؤتمر ومهمات المجلس الأعلى العالمي تغطىٰ من الصندوق المركزي للمساجد ، ومما تأخذه الرابطة على عاتقها من هذه النفقات في هذا المجال .

٣ ـ نفقات المساجد المحلية في كل بلد تغطىٰ كما يلي :

أ ـ إنشاء المساجد في محل الحاجة وترميمها وصيانتها تقوم بنفقاته وزارات الأوقاف وفروعها الإدارية بحسب ميزانياتها ، وتعاوِن فيه أيضاً الصناديق المحلية للمساجد .

ب ـ أما نشاطات المساجد المحلية وأداء رسالتها فما كان منها من قبيل الشعائر والوظائف الأساسية كالأئمة والخطباء والمدرّسين والمؤذنين وسائر موظفي المساجد ، وكمفروشات هذه المساجد مما يقع عادة على عاتق وزارات الأوقاف وفروعها الإدارية فتلتزم به وتتحمله ميزانياتها كالمعتاد ، وما كان من نشاطات أخرى كالمحاضرات وتسجيلاتها وتأسيس

المكتبات وسائر وجوه النشاط الذي يدخل في رسالة المسجد ووسائلها المتطورة فيتحمله الصندوق المحلي مما يقدمه إليه الصندوق المركزي لهذه الغايات .

سابعاً : فيما يتصل بموضوع : « التخطيط الهندسي للمساجد » .

يوصي المؤتمر بما يلي :

(١) اعتبار المسجد مركزاً لحياة المجتمع الإسلامي حيث الواجبات الاجتماعية هي امتداد للواجبات الدينية ، وعلى هذا الأساس يجب أن يكون موقع المسجد في قلب المدينة أو الحي بارزاً سواء في القرية أو الحي أو مقر العمل .

(٢) البساطة في التصميم والتنفيذ ومراعاة البيئة التي يشيد فيها المسجد مع استخدام الأساليب الحديثة في مجالات الهندسة والتشييد .

(٣) أن يصمم المسجد ليخدم مجموعة من الأغراض اللازمة لحياة المسلمين مثل :

أ ـ أن يكون المصلىٰ مستوفياً للشروط الصحية من تهوية وإضاءة وتدفئة .

ب ـ أن يكون للنساء قسم خاص من المصلى يكون الوصول إليه والخروج منه بدون الحاجة إلى الاختلاط مع الرجال .

ج ـ أن يشمل المسجد إلى جانب المصلى مكتبة وقاعة للمطالعة والمحاضرات وصالات للاجتماعات .

د ـ أن يحتوي المسجد على مكان لتعليم القرآن ولمساعدة الطلاب في دروسهم .

هـ ـ أن توجد إلى جوانبه ملاعب وصالات لرعاية الصغار أثناء أوقات فراغهم وخاصة خلال العطلات الصيفية .

و ـ أن يجهز قسم بالمعدات الخاصة لتعليم النساء أمور التدبير المنزلي .

ز ـ أن يلحق به مستوصف لمعالجة الحالات البسيطة ، وكذلك غرفة معدة لتغسيل وتكفين الموتى .

ح ـ من الضروري عند التصميم مراعاة حرمة المساجد بحيث لا تجاور أماكن اللهو وما من شأنه أن ينال من حرمة بيوت الله .

ط ـ وجود أماكن للضيافة ملحقة بالمسجد .

(٤) (أ) أن تقوم رابطة العالم الإسلامي بحثّ الجهات المسؤولة عن بناء المساجد في العالم الإسلامي على تحسين وتطوير الأجهزة الفنية التي تشرف على بناء المساجد بها ، وعلى إعطاء العناية اللائقة بأعمال تصميم المساجد .

ب ـ أن تقوم رابطة العالم الإسلامي بحثّ الجهات المسؤولة عن بناء المساجد في العالم الإسلامي على طرح تصميمات المساجد الرئيسية التي تزمع تشييدها في مسابقات بين المعماريين المسلمين .

جـ ـ أن تتبنى رابطة العالم الإسلامي مسابقات معمارية في مجال تصميم المساجد على اختلاف مستوياتها وذلك على مستوى المعماريين المسلمين .

ثامناً : فيما يتصل بموضوع : « المسجد الأقصىٰ » .

يوصي المؤتمر بما يلي :

١ ـ العمل على تقوية روح الجهاد عند المسلمين وبـذل الجهود في سبيل تشكيل كتائب الجهاد الإسـلامية لاستنقـاذ المقدسـات بالتعـاون مع المجاهدين من أجل فلسطين .

٢ ـ العمل الجاد على تسخير جميع ما يملكه المسلمون من إمكانات وغيرها في سبيل استرداد مقـدساتهم الإسـلامية ، ورفض جميـع القرارات التي تفرط بأي جزء من أجزاء الأراضي المغتصبـة ، أو أي حق من حقوق شعبها .

٣ ـ تدريب الجيل الناشيء تدريبـاً عسكريـاً إسلاميـاً ، وجعل هـذا التدريب جزءً أساسياً من مناهج التعليم في المرحلة الاعدادية وما تليها من مراحل دراسية في البلاد الإسلامية التي لا يكـون التدريب العسكـري فيها إلزامياً ، وتعميم فكـرة حركـة الأشبال التي تعمـل على إعداد أشبـال الأمة إعداداً عسكرياً ، وذلك لتخريج أفواج من المجاهدين المخلصين .

٤ ـ شرح القضية التي نكب بها المسلمون في المسجـد الأقصى ، وغيره من البقاع السليبة شرحاً وافياً لأبناء الأمة الإسلامية وغيرهم ، ويمكن تحقيق هذا الهدف إذا تعاونت وسائل الإعلام مع منابر المساجـد ومناهـج التعليم على تحقيقه .

٥ ـ العمل على وقوف المسلمين صفاً واحداً في وجه أي دولة يثبت أنها قد انتهكت حرمة مسجد من مساجد المسلمين ، ومقاومة هذه الـدولة بكل ما يستطيع المسلمون فرضه عليها من عقوبات .

٦ ـ تشكيل لجنة دائمة تحمل اسم « لجنة المسجد الأقصى » يكون مقرها رابطة العالم الإسلامي وتكون مهمتها متابعة تنفيذ هذه التوصيات .

توصيات عامة

١ ـ مطالبة الحكومات الإسلامية بتحكيم الشريعة الإسلامية ، وتطبيقها في جميع أمور الدين والدنيا ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ .

٢ ـ مطالبة الحكومة التركية بفتح جامع أيا صوفيا وإعادته للعبادة باعتباره أول مسجد صلى به المسلمون بعد فتح استانبول على يد القائد البطل « محمد الفاتح » .

٣ ـ رجاء الرابطة بطبع موسوعة لجميع المساجد في العالم الإسلامي تحوي كل المتطلبات التي تلزم الباحث .

٤ ـ حثّ الحكومات الإسلامية على فتح بيوت للطلبة المسلمين في البلدان الأجنبية والعناية بالطالبات المسلمات ، وعدم السماح بسفرهن إلاَّ في الضرورة القصوى مع ذي محرم .

٥ ـ إن مؤتمر رسالة المسجد يتابع بقلق شديد الأحداث الدامية في لبنان ، وبدافع من إيمانه برسالة الإسلام السمحة يتوجه إلى جميع اللبنانيين بنداء أخوي لإيقاف الاقتتال .

وفي ختام هذه التوصيات يحرص المؤتمرون على أن يؤكدوا التزامهم بالعمل ـ كل في محيطه ـ على وضع هذه التوصيات موضع التنفيذ على المستويين الحكومي والشعبي إيماناً منهم بأن رسالة المسجدفي أمتناهي رسالة الإسلام .

كما يحرص المؤتمرون على أن يعربوا عن تقديرهم العميق للبلد الإسلامي الشقيق المضياف/ المملكة العربية السعودية ، وعلى رأسها

جلالة خادم الحرمين الشريفين الملك خالد بن عبد العزيز[١] ، وولي عهده سمو الأمير فهد بن عبد العزيز .

ولا ينسى المؤتمرون أن يسجلوا بالشكر والتقدير الجهود الموفقة التي تبذلها الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي ، ويخصون بالشكر معالي أمينها العام الشيخ محمد صالح القزاز[٢] ، وجميع العاملين معه لمبادراتهم الكريمة إلى مثل هذه الدعوات . والله وحده المسؤول أن يهدينا سواء السبيل ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مكة المكرمة

١٥ ـ ١٨ رمضان ١٣٩٥هـ

٢٠ ـ ٢٣ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥م

---

(١) انتقل خادم الحرمين الشريفين الملك خالد بن عبد العزيز الى جوار ربه ، وخلفه في الحكم جلالة الملك فهد بن عبد العزيز .

(٢) كان هذا عندما كان سماحة الشيخ محمد صالح قزاز أميناً عاماً للرابطة ، أما الآن فقد أصبح الأمين العام للرابطة هو معالي الدكتور عبد الله نصيف .

الملحق الثاني

الزيادات التي مر بها المسجد النبوي الشريف

لقد مرّ المسجد النبوي الشريف بعدد من الزيادات منذ عهد رسول الله ﷺ حتى يومنا هذا .

فلقد أسس رسول الله ﷺ مسجده حين قدومه إلى المدينة في السنة الأولى من الهجرة النبوية سنة ٦٢٢م ، وجعله ما يقرب من ثلاثة وستين ذراعاً عرضاً ، وسبعين ذراعاً طولاً وجعل له ثلاثة أروقة من الجهة الشمالية .

ولما تحولت القبلة إلى الكعبة في الخامس عشر من شعبان في السنة الثانية من الهجرة جعلت الأروقة من الناحية الجنوبية ، وتركت الأروقة الأولى لإيواء الفقراء والمهاجرين ممن لا يجدون مأوى لهم .

وفي المحرم من السنة السابعة للهجرة ، وسع النبي عليه الصلاة والسلام مسجده عندما ازداد عدد الداخلين في الإسلام ، فأصبح طوله مائة ذراع ، وعرضه مائة ذراع أيضاً تقريباً . إذ أصبح مربعاً .

كما زاد فيه الخليفة الثاني « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه في سنة

١٧هـ عندما ضاق بالمصلين ، فبناه على شكل بناء الرسول وجعل أساطينه من لبن ، وسقفه بالجريد ، وجعل عمده من خشب ، فجعله ما يقرب من مائة وعشرين ذراعاً عرضاً من الشرق إلى الغرب ، ومائة وثلاثين ذراعاً طولاً من الشمال إلى الجنوب ، وكانت الزيادة من الشمال والجنوب والغرب حيث كانت بيوت أزواج النبي ملاصقة للمسجد من الشرق .

كما زاد فيه الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » رضي الله عنه من جهاته الثلاث ، الجنوبية ، والشمالية ، والغربية ، وأصبح بهذا طوله مائة وستين ذراعاً ، عرضه مائة وثلاثين ذراعاً[(١)] فبني جدره بالحجارة المنقوشة والقصة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج[(٢)] .

وقد بقي المسجد النبوي على حالته تلك حتى عهد الوليد بن عبد الملك الذي أمر واليه على المدينة ، عمر بن عبد العزيز بإعادة بنائه ، وإدخال حجرات أزواج النبي ﷺ فيه ، وقد بدأ الهدم ثم العمل في المسجد عام ٨٨هـ وانتهي العمل منه في عام ٩١هـ . إذ استغرق ما يقرب من ثلاث سنوات . كما زاد فيه الخليفة العباسي المهدي ، حيث بديء بالعمارة في سنة ١٦٢هـ وانتهي العمل في سنة ١٦٥هـ ولعل أكبر الزيادات التي حظي بها المسجد النبوي منذ تأسيسه حتى عهد السلطان العثماني عبد المجيد الأول ، هي تلك الزيادة التي أجريت لهذا الجامع في عهد هذا السلطان ، إذ بديء في العمل عام ١٢٦٥هـ وانتهي العمل عام ١٢٧٧هـ ، وقدرت التوسعة بما يقرب (١٢٩٣م) وهي ثلاثة أمتار من الناحية الشرقية من المئذنة الرئيسية إلى باب جبريل ، ومن الناحية الشمالية جعل مكاتب

---

(١) السمهودي/ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ١ ص ٣٦ .

(٢) ابن الجوزي/ الوفا بأحوال المصطفى ص ٢٥٥ .

ومخازن من طابقين[1] والبناء من الحجر الأحمر اللون ، وتعلو الأعمدة عقود فوقها قباب . أما أكبر توسعة مر بها المسجد النبوي الشريف منذ إنشائه حتى يومنا هذا فهي تلك التي حدثت في عهد آل سعود ، إذ بدأت المرحلة الأولى سنة ١٣٧٠هـ في الخامس من شوال في عهد الملك عبد العزيز آل سعود وانتهى البناء في عهد الملك سعود سنة ١٣٧٥هـ .

إذ قدرت الزيادة بحوالي (٦٠٢٤م) بالإضافة إلى المساحة التي أزيلت من عمارة عبد المجيد وتقدر بحوالي (٦٢٤٧م) فتكون مساحة العمارة والتوسعة السعودية حوالي (١٢٢٧١م) .

وأبقي على عمارة عبد المجيد حيث تبلغ مساحتها (٤٠٥٦) متراً مربعاً .

وقد أقيمت هذه العمارة من الخرسانة المسلحة ، من أعمدة تحمل عقود مدببة ، وقسم السقف إلى مربعات شكلت على أنماط الأسقف الخشبية ، وعمل للأعمدة المستديرة تيجان من البرونز زخرفت بزخارف نباتية ، وكسيت الأعمدة بالموزايكو ، وغطيت قواعدها بالرخام ، وأقيم مئذنتان في الجهة الشمالية ارتفاع الواحدة (٧٠م)، وأساسها (١٧م) ، وطول الجدار الشرقي الغربي (١٢٨م) أما الشمالي الجنوبي فطوله (٩١م) .

ولم يمض طويل وقت حتى ضاق المسجد بالمصلين ، مما حدا بجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز إلى الأمر بنزع ملكيات البيوت الواقعة

---

(١) نشرة أصدرتها رئاسة الإشراف الديني للحرمين الشريفين موجودة بمكتبة الحرم النبوي ص ٣ .

إلى الشمال والغرب من الحرم النبوي ، وذلك في عام ١٣٩٣هـ ، وجعل عليها مظلات لحماية المصلين عن الشمس ، حيث أحيطت بسور ، وتم تبليطها بالرخام ، وإنارتها وتهويتها ، وتبلغ مساحتها (٣٠٤٠٦م) . وفي عهد الملك خالد بن عبد العزيز هدم جزء آخر من البيوت الواقعة غرب المظلات بمساحة قدرها (٣٢٤٠١م) ، وذلك في عام ١٣٩٨/ ١٣٩٩هـ ، إذ أضيفت إلى المظلات بنفس التصميم ، حيث بلغت المساحة الإجمالية للمظلات (٦٢٨٠٧م) .

وفي يوم الجمعة ٩/٢/١٤٠٥هـ وضع جلالة الملك فهد بن عبد العزيز حجر الأساس للتوسعة السعودية الثانية ، والتي تقدّر مساحتها بما يقارب (٨٤٠٠٠م) أي حوالي أربعة أضعاف مساحة المسجد النبوي المبني حالياً ، وتشمل الجهات الغربية والشمالية والشرقية ، وتتضمن تكييف الهواء ، وتهيئة السطح للصلاة فيه أوقات المواسم ، وأن يكون التأسيس قابلاً لإقامة طابق آخر ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك[1] .

وقد انتهى هدم البيوت الواقعة شرق الحرم فيما بينه وبين البقيع ، وهو ما يسمى « حارة الأغوات » في شهر رمضان المبارك عام ١٤٠٥هـ .

وقد ابتدأ العمل الجاد في البناء ـ بالنسبة للتوسعة السعودية الثانية ـ منذ فترة وجيزة ، وذلك بحفر الأساسات على عمق منخفض ضماناً لقوة البناء فصبت القواعد وظهرت العديد من الأعمدة خارج سطح الأرض ، وما زال العمل جارياً على قدم وساق .

---

(١) نشرة أصدرتها رئاسة الاشراف الديني للحرمين ص ٤ .

فجزى الله القائمين على هذا العمل الخيري منذ عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا خير الجزاء .

وليس هناك عمل أفضل من عمارة المساجد إذا حَسُنت النيات ، وخلص العمل لوجه الله سبحانه ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ ويقول ﷺ : « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

الملحق الثالث

الزيادات التي مر بها المسجد الحرام

لم يكن للمسجد الحرام سور يحيط به قبل عهد الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، ذلك أن دور قريش كانت محدقة بالمسجد من كل جانب، غير أن بين الدور أبواب يدخل منها الناس إليه، فلما ضاق المسجد قال عمر: لابد لبيت الله من فناء، فاشترى الدور المجاورة للمسجد فهدمها، وهدم على من قرب من المسجد، فأبى البعض أن يأخذ الثمن، وتمنع من البيع، فوضعت أثمانها في خزانة الكعبة حتى أخذوها بعده، ثم أحاط عليه جداراً قصيراً، وقال لهم عمر: إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها، ولم تنزل الكعبة عليكم[1].

وبهذا يعتبر عمر رضي الله عنه أول من أحاط المسجد الحرام بسور، حيث لم يكن له سور قبل عهده، وربما يكون السبب في تلك التوسعة إلى ما تعرض له المسجد الحرام عندما وقع سيل عظيم أدى إلى اقتلاع مقام إبراهيم عليه السلام، ورماه خارج مكة، إذ يقول القطبي: « في سنة ١٧هـ وقع سيل عظيم يسمى سيل أم نهشل[*]، فدخل المسجد

---

(١) الأزرقي / أخبار مكة جـ ٢ ص ص ٦٨ ـ ٦٩.

(*) أم نهشل: هي بنت عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية، حيث ماتت في هذا الحادث.

واقتلع مقام إبراهيم من موضعه وذهب به إلى أسفل مكة ، وغيَّر مكانه ، وذهب بأم نهشل فماتت فيه ، فكُتِبَ إلى عمر وهو بالمدينة ، فهاله ، وركب فزعاً مروعاً إلى مكة ، فدخلها في شهر رمضان ، ووقف على حجر المقام وهو ملصق بالبيت الشريف ، ثم قال : أنشد الله عبداً عنده علم في هذا المقام ؟ . فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي : أنا يا أمير المؤمنين ، قد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر ، فأخذت قدره من موضعه إلى الحجر ، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط ، وهو عندي في البيت ، فقال له : إجلس وأرسل من يأتي به نقيس به ، ووضع حجر المقام في هذا المحل « يعني الذي هو الآن ، وأحكم واستمر فيه إلى الآن »(١) .

فمن المحتمل أن يكون حضور الخليفة عمر إلى مكة لمعالجة وضع مقام إبراهيم عليه السلام عندما جرفه السيل ، وإعادته إلى مكانه الطبيعي هو السبب في تلك التوسعة عندما لمس الحاجة الى توسعته على أثر كثرة الناس ، ولهذا قرر زيادته بأن اشترى الدور الملاصقة للحرم ، وهدمها وإدخالها في المسجد ، وإحاطته بسور لحمايته من عبث الناس . أما في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقد زاد في المسجد الحرام سنة ٢٦هـ عندما كثر ضيوف الرحمن من الوافدين إلى هذا المكان الطاهر للحج أو العمرة ، على أثر الفتوحات الاسلامية ، إذ اشترى الدور المجاورة للمسجد وهدمها وأدخلها فيه ، عندها ضج أصحاب الدور احتجاجاً على هدمها ، فدعاهم وقال لهم : إنما جرأكم علي حلمي عليكم ، ألم يفعل بكم ذلك عمر رضي الله عنه ، فما صاح به أحد ، وقد حذوت حذوه ، فضجرتم مني وصحتم ، ثم أمر بهم الى الحبس ، فشفع

---

(١) اعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام/ القطبي ص ٦٧ .

فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فتركهم[١] .

ويشير البعض إلى أن عثمان رضي الله عنه هو أول من اتخذ الأروقة للمسجد الحرام ، كما جدد أنصاب الحرم .

أما الزيادة الثالثة فقد تمت في عهد عبد الله بن الزبير إذ يقول الأزرقي : « زاد ابن الزبير في المسجد الحرام ، واشترى دوراً من الناس وأدخلها في المسجد »[٢] . هذا بالاضافة إلى هدم الكعبة وبنائها من جديد في عهد ابن الزبير أيضاً . وقد حدد البعض الجهات التي زيدت في زمن ابن الزبير إذ يقول : « زاد ابن الزبير في المسجد الحرام زيادة كبيرة من الجهة الشرقية والجنوبية والشمالية ، وذلك بعد أن أكمل عمارة الكعبة المشرفة خلال سنتي ٦٤ ، ٦٥هـ »[٣] .

أما في عهد الوليد بن عبد الملك فقد أمر بتوسعة المسجد الحرام بالاضافة إلى نقض عمل أبيه عبد الملك ، وعمره عمارة متينة محكمة ، وهو أول من أتى بالأساطين الرخام من مصر والشام ونقلها من هناك إلى مكة ، وسقفه بالخشب الساج المزخرف ، وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب ، وأزَّر داخل المسجد الحرام بالرخام ، وجعل له شرافات ، وجعل في حائطه العقود ، ويبدو أن أساطين الرخام التي جاء بها الوليد كانت على قدر زيادته في توسيع المسجد الحرام ، وكان رواقاً واحداً دائراً على حافة المسجد الحرام حول الكعبة ، وكانت زيادة الوليد من الجهة الشرقية حيث تم ذلك في سنة ٩١هـ[٤] .

وقد بقي المسجد الحرام على حاله دون زيادة حتى عهد الخليفة

---

(١) الأزرقي / أخبار مكة جـ ٢ ص ٦٩ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٦٩ .

(٣) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ص ١٧ ـ ١٨ .

(٤) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ص ٢٣ ـ ٢٤ .

العباسي « أبي جعفر المنصور » الذي أمر عامله بالزيـادة في المسجد ، إذ زاد فيـه في شقة الشـامي مما يلي دار النـدوة ، كما زاد في أسفله إلى أن انتهى إلى المنارة التي في ركن باب بني سهم ، أما الجانب الجنوبي فلم يزد فيه شيئاً لاتصاله بمسيل الوادي ، وصعوبة البناء فيـه ، وعدم ثبـاته إذا قوي السيل ، وقد اشترى من الناس دورهم فهدمها وأدخلها في المسجد ، وقد تم ذلك فيما بين سنتي ١٣٧ ـ ١٤٠هـ إذ يقول الأزرقي :

« كتب على باب المسجد الذي يمر منه سيل المسجد وهو سيل باب بني جمـح ، وهو آخـر عمل أبي جعفـر من تلك الناحيـة ، وهو قـائم الى اليـوم(*) . ﴿ بسم الله الـرحمن الـرحيم * محمـد رســول الله أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً . . . . إلى قوله : غني عن العالمين ﴾ أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزيادة فيه نظراً منه للمسلمين ، واهتماماً بأمورهم ، وكان الـذي زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل ، وأمر ببنيانه وتوسعته في المحرم سنة ١٣٧هـ ، وفرغ منه ورفعت الأيدي عنه في ذي الحجة سنة ١٤٠هـ ، بتيسير أمر الله ، بأمر أمير المؤمنين ومعونة منه له عليه ، وكفاية منه له وكرامة أكرمه الله بها ، فأعظم الله أجر أمير المؤمنين فيما نوى من توسعة المسجد الحرام ، وأحسن ثوابه عليه ، فجمع الله تعالى له به خير الدنيا والآخرة ، وأعز نصره وأيده »[1] .

أما في عهد المهدي : فقد زاد في المسجد مرتين :

الأولى : عنـدمـا حـج في سنـة ١٦٠هـ ولاحظ ضيق المسجـد بالمصلين ، فأمر بتوسعته واشترى الدور الملاصقة له ، وتمت الـزيادة في

(*) كان هذا في زمن المؤلف الذي عاش فترة في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

(١) أخبار مكة جـ ٢ ص ص ٧٣ ـ ٧٤ .

الجهتين الشرقية والشمالية .

الثانية : تمت عندما حج في سنة ١٦٤هـ إذ رأى أن الكعبة ليست في وسط المسجد الحرام ، إذ كانت قريبة من الطرف الجنوبي للمسجد ، عندها قرر توسعة المسجد من هذا الجانب لتكون الكعبة في وسطه .

وبالرغم من صعوبة هذا العمل الذي أقدم عليه المهدي حيث كانت العقبات الطبيعية تعترض توسعة المسجد من تلك الناحية حيث مجرى مسيل وادي إبراهيم مما يتطلب تحويل مجرى السيل « كما أشار الى ذلك المهندسون » الذين شرحوا للخليفة صعوبة تحويل مجرى السيل ، مع كثرة النفقات ، بالاضافة الى هدم العديد من البيوت ، لكن المهدي صمم على ما أقدم عليه إذ يقول البعض في هذا :

« لما حج المهدي في سنة ١٦٤هـ وشاهد الكعبة ليست في وسط المسجد بل في جانب منه، ورأى المسجد قد ضاق من الجانب اليماني، ذلك أن تربيع المسجد ليس مستوياً ، فجمع المهندسين وقال : أريد أن أزيد في الجانب اليماني من المسجد لتكون الكعبة في وسط المسجد ، فقالوا له : لا يمكن ذلك إلا بهدم البيوت التي على حافة المسيل ، مع زيادة المئونة والتكلفة ، فقال : لابد أن أزيد ولو أنفقت جميع بيوت الأموال ، فصمم على ذلك ، وعظمت نيته ، واشتدت رغبته حتى بلغ ما أمل ، ولكنه توفي قبل اكمال البناء ، فلما تولى ابنه الهادي الخلافة كان أول شيء عمله هو الأمر بإكمال بناء المسجد الحرام »[1] .

وفي عهد الخليفة المعتضد العباسي أدمجت دار الندوة بالمسجد الحرام حيث كانت عمارتها الأولى عبارة عن مسجد مستقل ثم أصبحت بعد

---

(١) اعلام العلماء الاعلام ببناء المسجد الحرام/ اختصار : عبد الكريم بن محب الدين القطبي ص ص ٦٩ ـ ٧١ .

هذا الادماج جزءاً من المسجد الحرام ، وهي لا تزال كذلك الى العصر الحاضر[1] . وقد تم ذلك فيما بين سنتي ٢٨١ ، ٢٨٤هـ .

أما في عهد الخليفة المقتدر العباسي فقد تمت الزيادة التي سميت فيما بعد « زيادة باب ابراهيم الخياط » وذلك سنة ٣٠٦هـ إذ شملت تلك الزيادة دارين للسيدة زبيدة أدخلت مساحتهما في المسجد الحرام بعد هدمهما .

وقد ظل المسجد الحرام منذ عهد الخليفة المقتدر على ما هو عليه بدون زيادة حتى العهد السعودي الذي شهد أكبر توسعة مر بها المسجد الحرام ـ إذا استثنينا أعمال الصيانة والترميم والتجديد التي قام بها سلاطين المماليك والعثمانيين في فترات متعاقبة ـ .

أما في العهد السعودي فقد مر المسجد الحرام بعدد من التوسعات يحسن أن أشير إليها إشارة عابرة .

فمع تزايد اعداد المسلمين القادمين من شتى بقاع الأرض للحج والعمرة نتيجة لتطور وسائل النقل من برية وبحرية وجوية إزداد المسجد ضيقاً بالوافدين إليه سنة بعد أخرى ، الأمر الذي دعا إلى شعور المسؤولين في حكومة المملكة العربية السعودية إلى ضرورة توسعة المسجد بصورة تجعله قادراً على استيعاب تلك الاعداد الكبيرة من المسلمين ، إذ كانت الحاجة ماسة الى توسعته للحفاظ على قدسية هذا المكان الطاهر ، وتيسير العبادة لضيوف الرحمن حتى يتموا مناسكهم في أمن وطمأنينة .

فلم يكد العمل ينتهي من مشروع توسعة الحرم المدني حتى أذيع

---

(١) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ٦٢ .

بلاغ من المديرية العامة للاذاعة صدر في الخامس من محرم سنة ١٣٧٥هـ يعلن البشرى بالمباشرة في تنفيذ مشروع توسعة المسجد الحرام ، ونقل المعدات المستخدمة في المسجد النبوي الى المسجد الحرام استعداداً لتوسعته .

وفي السادس من صفر من نفس العام صدر مرسوم ملكي بتشكيل لجنة عليا للاشراف على المشروع برئاسة المغفور له سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز ، ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء إذ ذاك . ثم شكلت اللجان الأخرى منها لجنة متخصصة في مراقبة التنفيذ ، ولجنة أخرى لتقدير أثمان العقارات التي يقتضي المشروع إزالتها بعد نزع ملكيتها ، ثم وحدت اللجنتان في لجنة واحدة سميت « اللجنة التنفيذية العليا » وعهد إلى مؤسسة محمد بن لادن بتنفيذ المشروع .

المرحلة الأولى :

في الرابع من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٧٥هـ بوشر في العمل ، وذلك بإزالة اسلاك الكهرباء والتليفون ، ومواسير المياه والمجاري ، وهدم الأبنية والمنشآت القائمة هناك ، ونقل الأنقاض خارج مدينة مكة المكرمة ، وكانت بداية أعمال مشروع التوسعة هو حفر أساس الجدار الخارجي المشتمل على المسعى من ناحيتيه الشرقية والجنوبية ، وقد انتهت هذه الأعمال في أوائل شهر شعبان من نفس العام ، وفي الثالث والعشرين من شعبان أيضاً احتفل بوضع حجر الأساس في المشروع حيث بوشر بصب القواعد الإسمنتية .

وفيما يتعلق بالمسعى فقد أمكن تحويل الطريق العام الذي كان يخترق المسعى ويسبب إزعاجاً لمن يؤدون شعائرهم من قبل المارة ،

وأصبح السعي بعد هذا ميسراً حيث يؤدي الناس السعي ذهاباً وإياباً دون مشقة أو تعب .

المرحلة الثانية :

تم في هذه المرحلة إزالة المباني من منطقة زقاق البخارية سابقاً إلى منطقة باب إبراهيم كتمهيد لعمارة المنطقة الجنوبية ، ثم بني الرواق الممتد من باب أم هانىء الى باب ابراهيم بطابقيه ، وطبقة البدرومات تحت هذا الرواق ، وبلغ ارتفاع الطابق الأول عشرة أمتار ونصف المتر ، وغطيت الجدران بالمرمر ، والعقود بالحجر الصناعي .

وأقيم بهذه الجهة باب الملك عبد العزيز ، إذ يتكون من ثلاثة أبواب كبيرة ، ثم أقيم طابق آخر فوق الرواق الجنوبي ، كما أقيم في هذا الجانب ثلاث منارات ، الأولى بجوار الصفا وكانت بدايتها في المرحلة الأولى ، وثنتان بجوار باب الملك عبد العزيز « على جانبيه » ، وتم تسقيف ما تبقى من مجرى السيل الذي بدىء به في المرحلة الأولى ، كما تم هدم بعض الأبنية القديمة التي كانت تحول بين المصلين بالطابق الأول من الرواق الجنوبي ، ورؤية الكعبة .

المرحلة الثالثة :

بدأت هذه المرحلة في سنة ١٣٨٢هـ إذ أزيلت المباني وحفرت الأساسات وارتفع بناء الرواق الغربي إذ يتكون من « البدروم » وطابقين علوهما مماثل لعلو الرواق الجنوبي ، وسقف الرواق الغربي ، وغطيت جدرانه بالرخام ، وعقوده وسقفه بالحجر .

وقد بدىء في هذه المرحلة في الاعداد لمشروع الرواق الشمالي

الذي يمتد من باب العمرة الى باب السلام ، كما تم في هذه المرحلة عمل منارتين على جانبي باب العمرة ، وأخليت أرض المـرحلة الرابعـة ، وهي الممتدة من باب العمرة إلى باب السلام من المباني القديمة .

المرحلة الرابعة :

أكمل في هذه المرحلة مباني الجانب الشمالي من المسجد الحرام من باب العمرة الى باب السلام ، وتم تـأسيس وبناء منـارتين على جانبي باب السلام ، وأقيم باب السلام على غرار باب الملك عبد العزيـز ، كما استكمل باب العمرة على نفس النمط ، كما اتصل في المرحلة الرابعة بناء الرواق الشمالي بمبنى المسعى ، وبهذا اكتملت المباني من جميع جهات المسجد الحرام .

وقد بلغت التوسعة السعودية بجميع مـراحلها أضعـاف ما كـان عليه المسجد الحرام قبل تلك التوسعة . وللمسجد الحرام حالياً أربعة وستـون باباً موزعة على مختلف جهات المسجد لعل أكبرها :

(١) **باب الملك عبد العـزيز** : في الجهـة الجنوبيـة من المسجد ، ويتكون من ثلاثة أبواب خشبيـة منقوشـة ، وفي مدخـل الباب من النـاحية الخارجية عقد مقام على أربعة أعمدة وتزينه زخارف جصية ، وينقسم العقد الى ثلاثة أقواس ، وعلى جانبيه أقيمت مئذنتان .

(٢) **باب العمرة** : في الجهة الغربية من المسجد الحرام ، وقد بني على نسق باب الملك عبد العزيز وعلى جانبيه منارتان .

(٣) **باب السلام** : في الجهة الشمالية من المسجد ، وقد بني أيضاً على غرار باب الملك عبد العزيز وأقيمت على جانبيه منارتان .

(٤) **باب الصفا** : في الجهة الجنوبية من المسجد لم يكن كبيراً وإنما

أقيم على أحد جانبيه منارة مماثلة لسائر منائر المسجد الحرام التي بلغت سبعاً ارتفاع كل واحدة منها إثنان وتسعون متراً[١] .

المنبر في المسجد الحرام :

لم يكن بالمسجد الحرام منبر في عهد رسول الله ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين إذ كانوا يخطبون في أيام الجمع قياماً على أقدامهم ، وقد استمرت الحال على ذلك حتى عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان الذي يعتبر أول من أحدث المنبر في المسجد الحرام ، وهو عبارة عن منبر صغير يتكون من ثلاث درجات ، وقد بقي هذا المنبر حتى عهد هارون الرشيد الذي أهدى الى المسجد منبراً في تسع درجات .

وقد أهدي للمسجد الحرام العديد من المنابر في عهود كل من العباسيين والمماليك والعثمانيين حتى كان آخرها المنبر الذي أهداه السلطان العثماني « سليمان القانوني » ابن سليم ، وهذا المنبر مصنوع من الرخام البراق الناصع البياض ، إذ يحتوي على ثلاث عشرة درجة ، وفي أعلاه أربعة أعمدة من المرمر فوقها قبة مستطيلة صنعت من الخشب ، وكسيت بألواح من الفضة مطلية بالذهب ، ويبلغ ارتفاع المنبر حوالي إثني عشر متراً[٢] هذه نبذة موجزة عن الزيادات التي مر بها المسجد الحرام منذ صدر الاسلام حتى يومنا هذا ، إذ بذل العديد من الخلفاء والسلاطين والملوك جهوداً جبارة في توسعة وعمارة هذا المسجد الذي يعتبر أشرف وأطهر بقعة في الأرض ، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً .

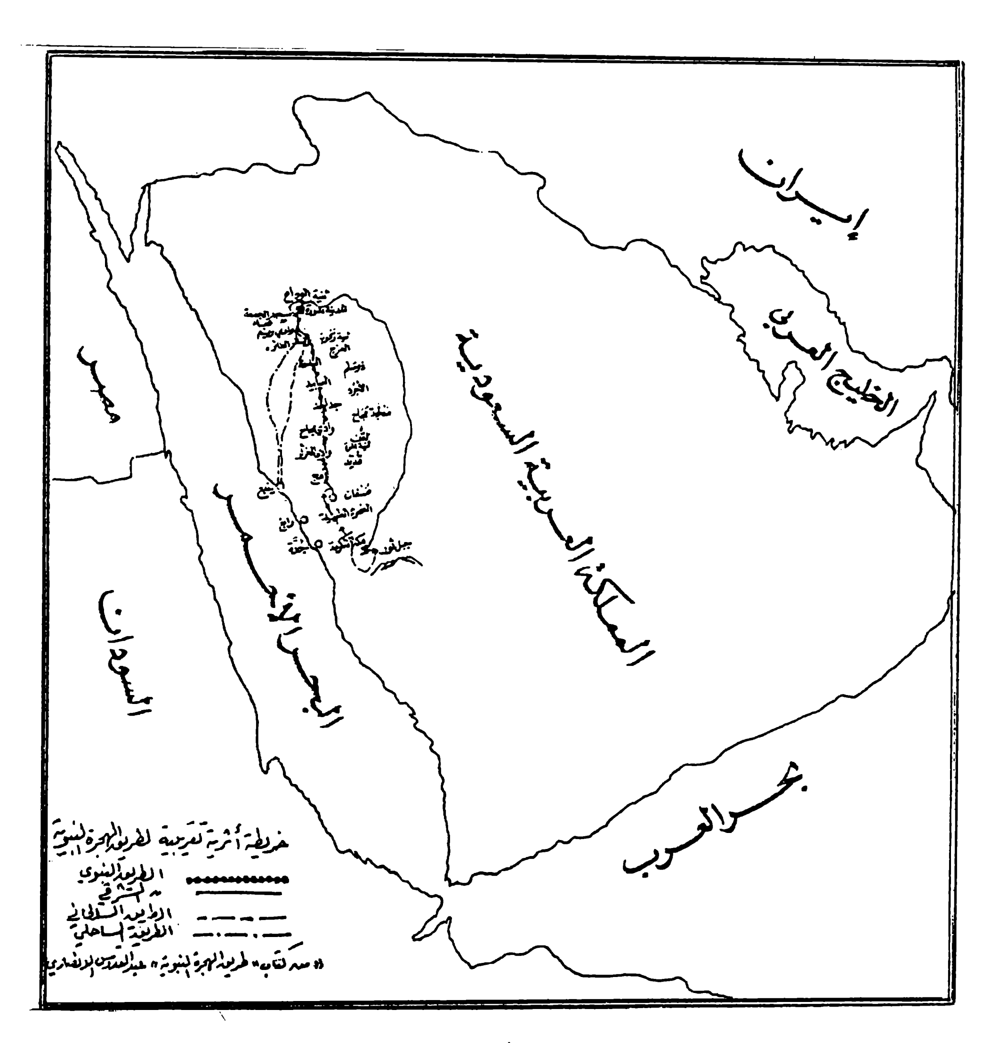
---

(١) للمزيد من التفاصيل عن التوسعة السعودية أنظر : كتاب صدر عن وزارة الاعلام بعنوان : توسعة الحرمين الشريفين ص ٧٣ وما بعدها ، أشهر المساجد في الاسلام جـ ١ ص ٢٩ وما بعدها .

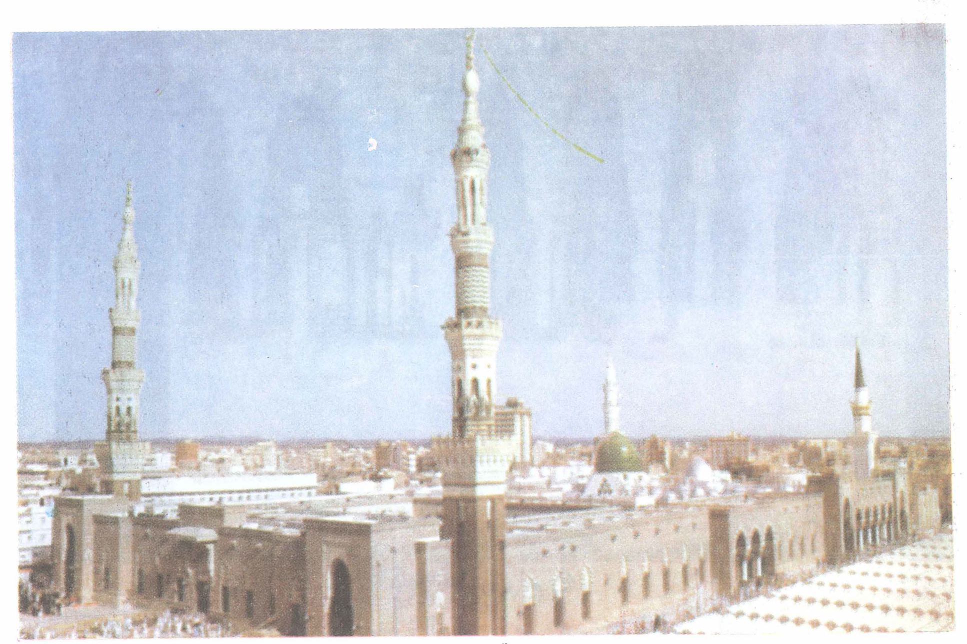
(٢) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ٢٠١ وما بعدها .

الملحق الرابع

الصور والخرائط



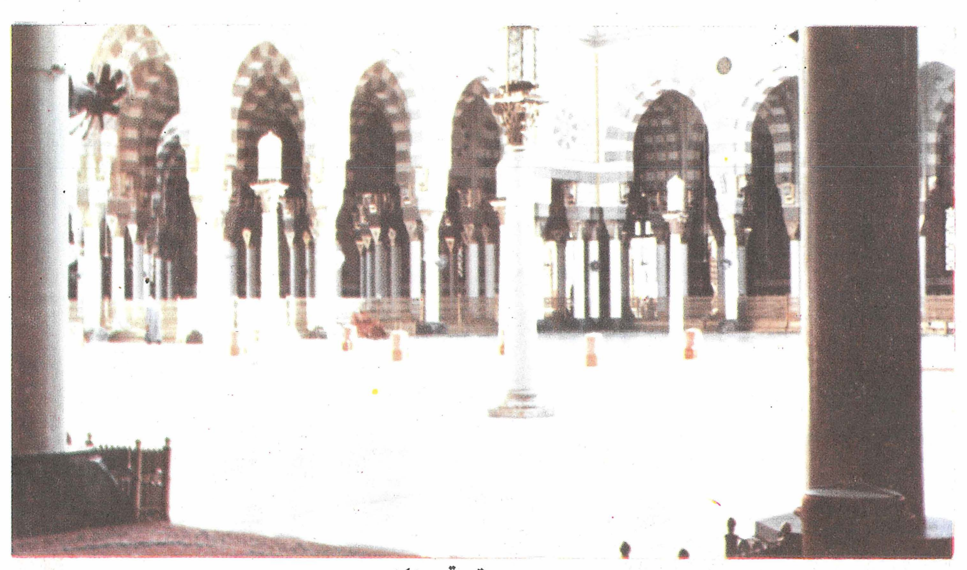
«خريطة رقم (١)
توضح طريق الهجرة النبوية



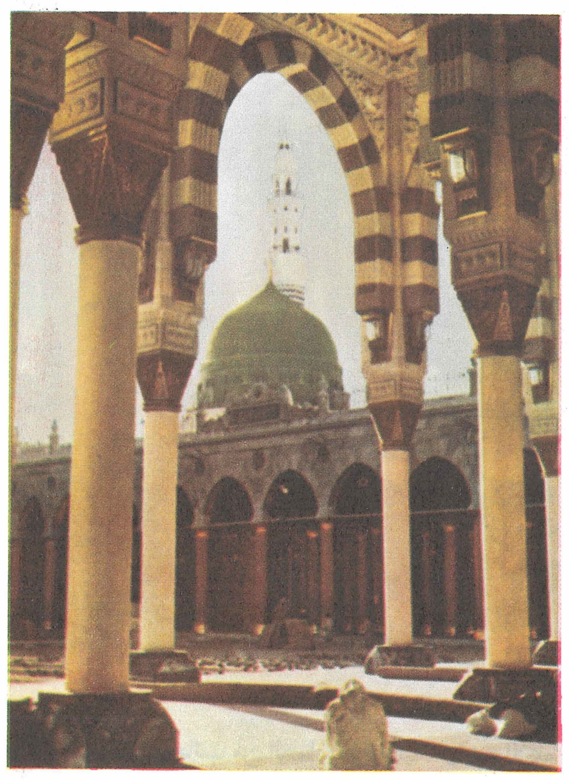
صورة رقم (٢)
منظر عام للمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة



صورة رقم (٣)
جانب من العمارة العثمانية، وتبدو الأعمدة والأروقة واضحة



صورة رقم (٤)
جانب من العمارة السعودية في المسجد النبوي الشريف
وتوضح الأقواس والأعمدة روعة الفن الإسلامي

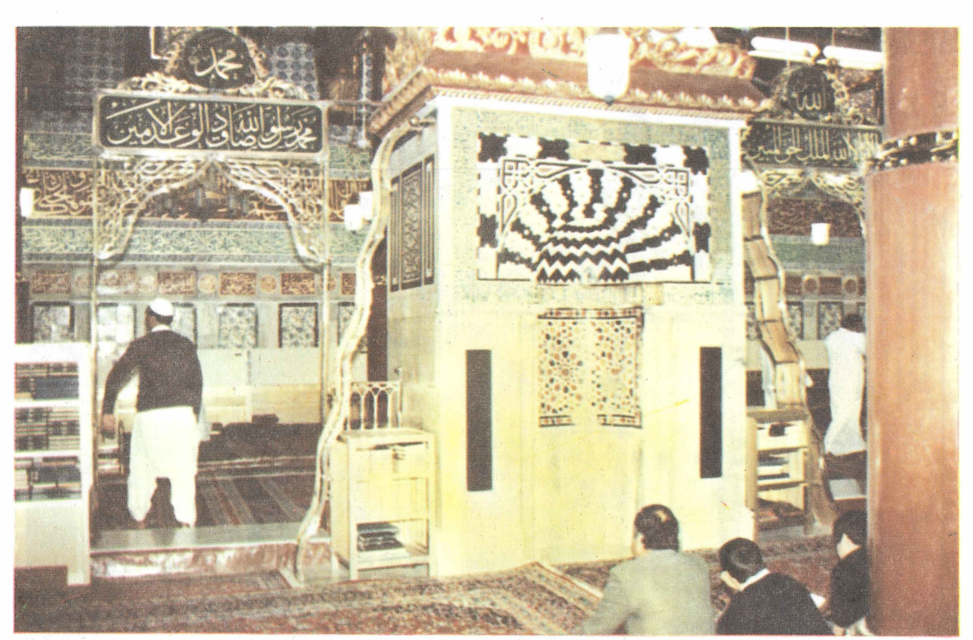


صورة رقم (٥)
الأعمدة والأقواس في العمارة السعودية
ومن خلفها
عمارة السلطان العثماني عبد المجيد

صورة رقم (٦)
منظر لواجهة الروضة النبوية المطهرة

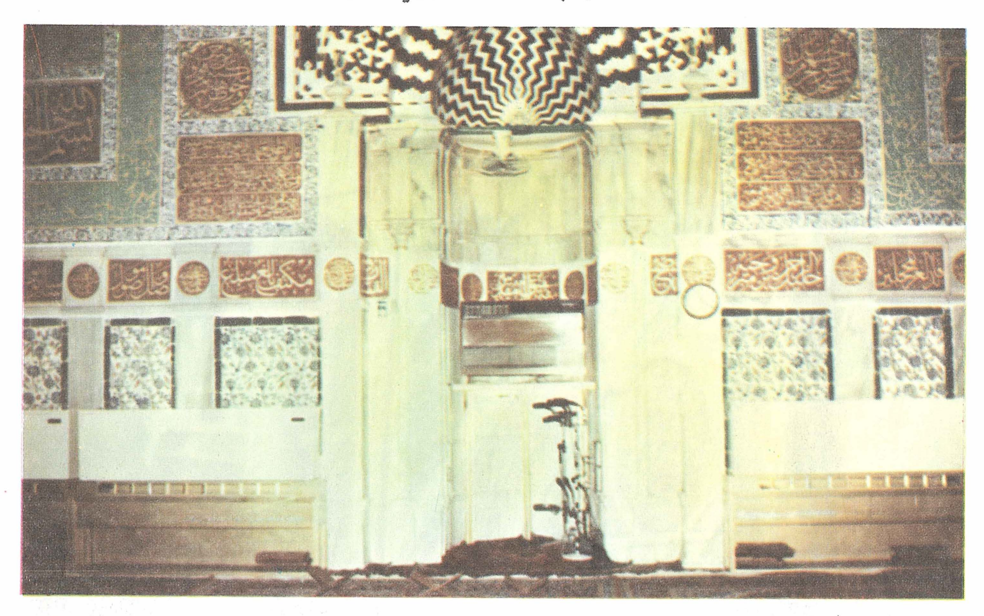


صورة رقم (٧)
منبر المسجد النبوي الشريف وتظهر به روعة العمارة الإسلامية



صورة رقم (٨)

محراب المسجد النبوي الشريف



صورة رقم (٩)

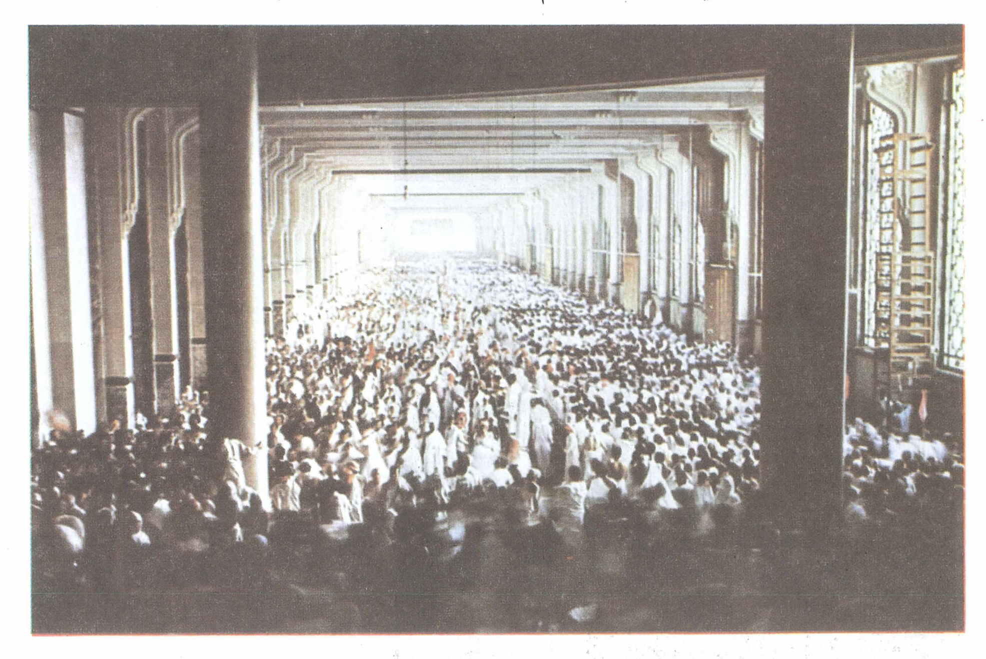
محراب عثمان في المسجد النبوي الشريف

ويقع في وسط الجدار الجنوبي للمسجد النبوي حالياً



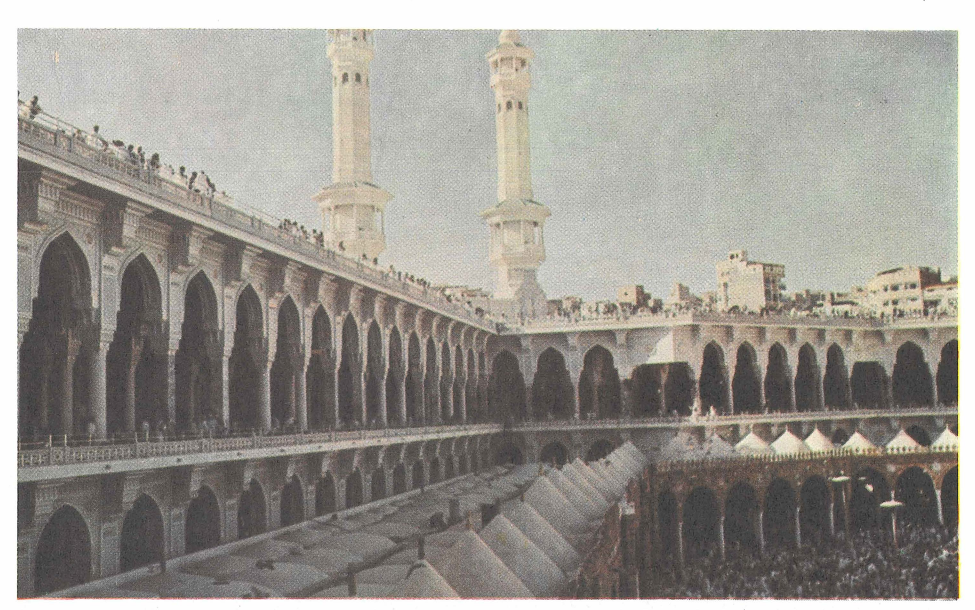
صورة رقم (١٠)

«منظر جوي للمسجد الحرام حيث تتوسطه الكعبة المشرفة»

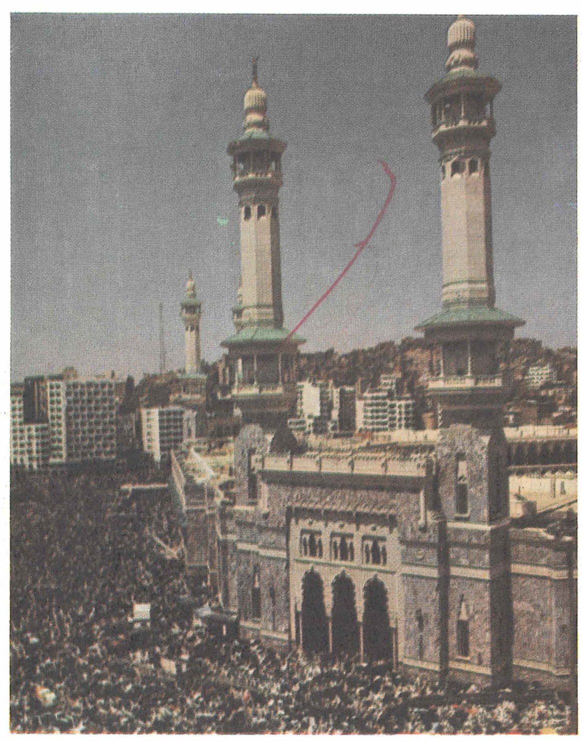


صورة رقم (١١)

المسعى من الداخل في المسجد الحرام

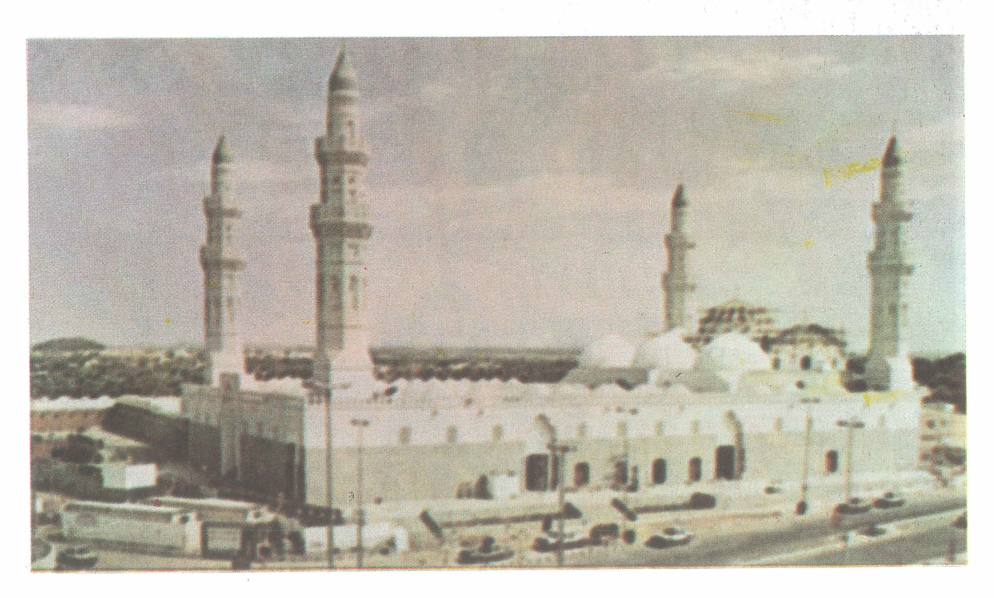


صورة رقم (١٢)
منظر عام للمسجد الحرام في مكة المكرمة
وتظهر في البناء روعة العمارتين العثمانية والسعودية



صورة رقم (١٣)
أحد الأبواب الرئيسية
في العمارة السعودية
للمسجد الحرام
وإلى جانبيه مئذنتان
ارتفاع كل واحدة «٩٢ متراً»

صورة رقم (١٤)
«منظر عام لمسجد قباء قبل التوسعة الأخيرة»



صورة رقم (١٥)
«منظر عام للتوسعة الجديدة بمسجد قباء»



صورة رقم (١٦)

منظر عام لمسجد الصخرة بالقدس الشريف



صورة رقم (١٧)

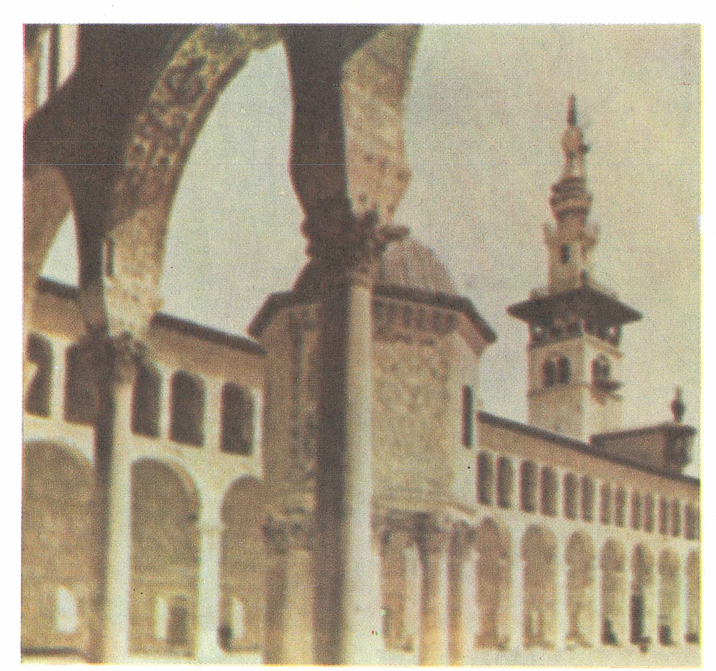
منظر عام للمسجد الأقصى المبارك في القدس



صورة رقم (١٨)
جانب من الأعمدة والأروقة للمسجد الأقصى المبارك من الداخل



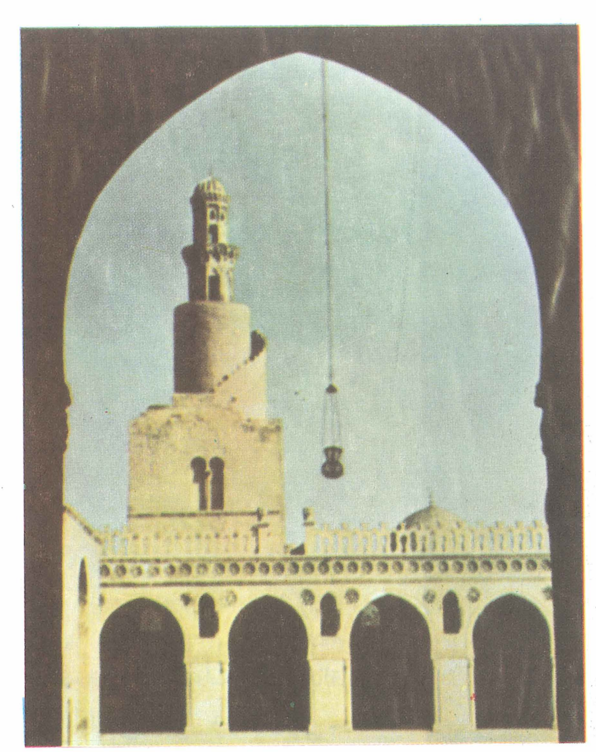
صورة رقم (١٩)
جانب من عمارة المسجد الأموي بدمشق



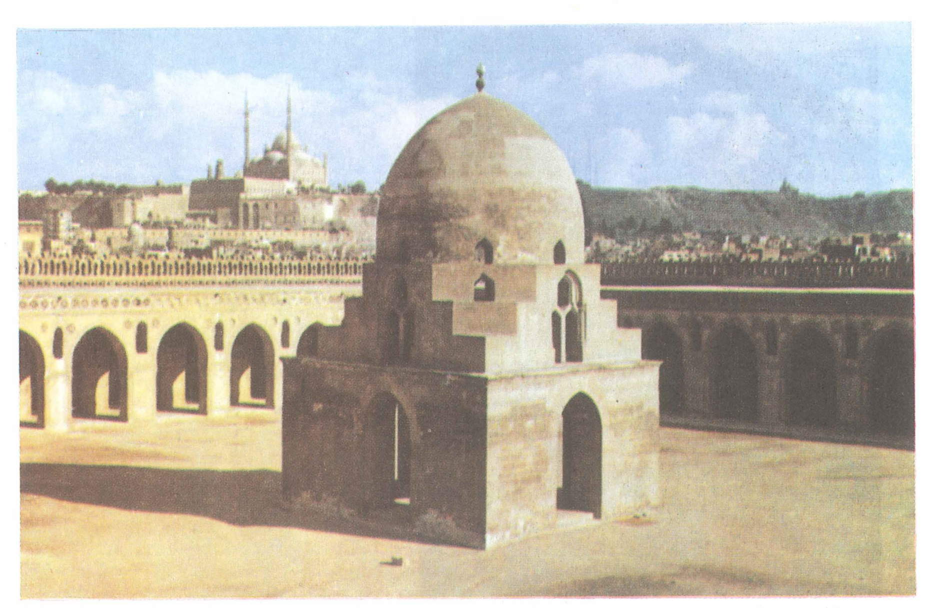
صورة رقم (٢٠)
جانب آخر من عمارة
المسجد الأموي،
وتبدو في الصورة القبة
التي تسمى « قبة المال »



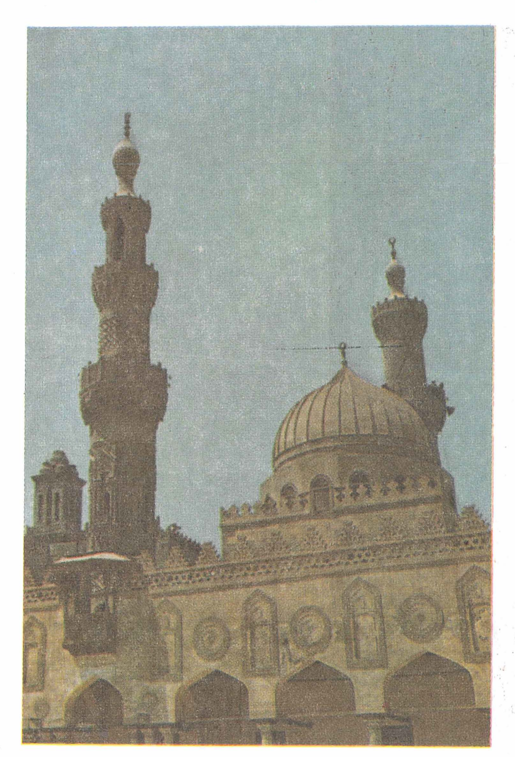
صورة رقم (٢١)
جامع عمرو بن العاص بالفسطاط « في مصر »



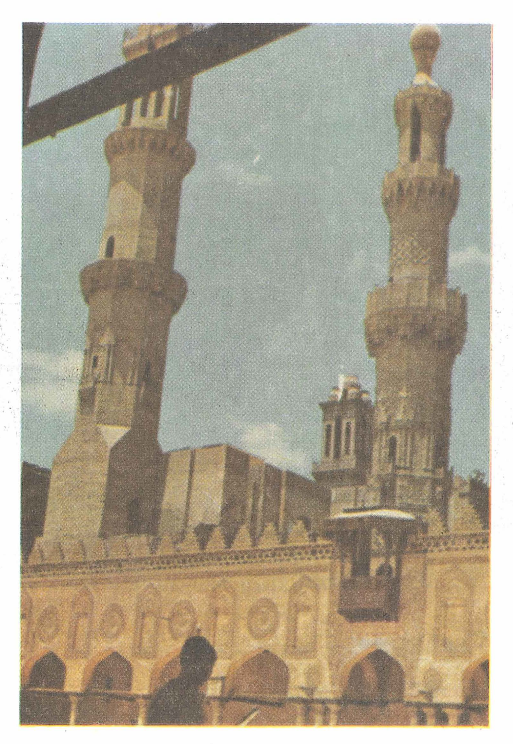
صورة رقم (٢٢)
جامع أحمد بن طولون في القطائع
جانب من الأروقة والعقود
مع مئذنته الحلزونية



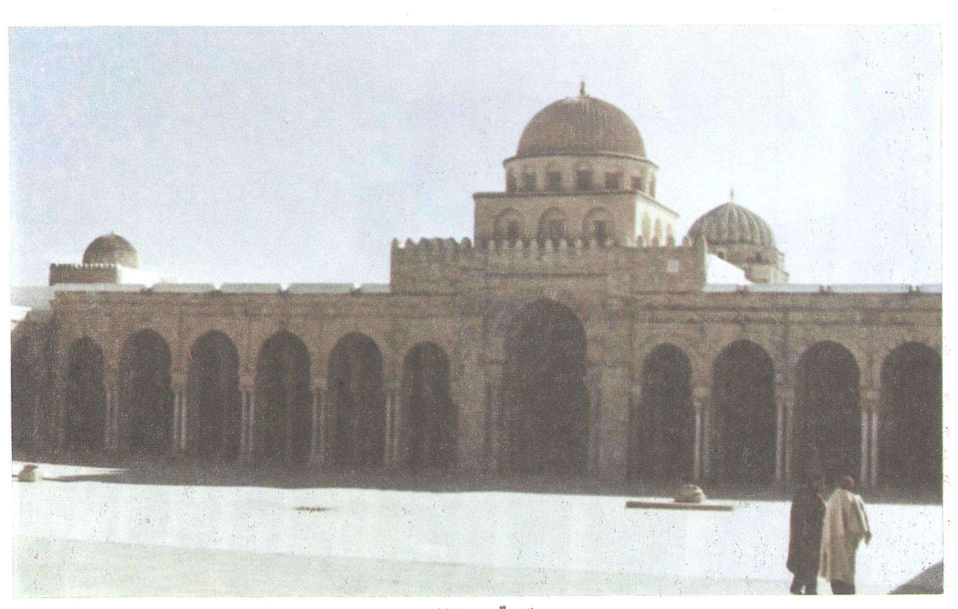
صورة رقم (٢٣)
«جانب آخر من جامع أحمد بن طولون في القطائع»



صورة رقم (٢٤)
«جانب من الجامع الأزهر بالقاهرة»
«الذي تحول فيما بعد إلى جامعة»



صورة رقم (٢٥)
«جانب من
فناء الجامع الأزهر بالقاهرة»



صورة رقم (٢٦)
«المسجد الجامع بالقيروان الذي أسسه عقبة بن نافع»
«وتظهر في الصورة القباب والأروقة بشكل واضح»

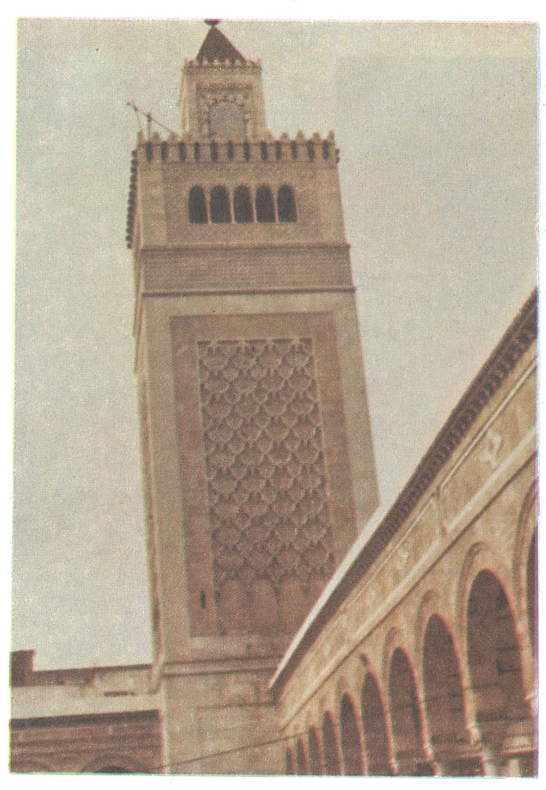


صورة رقم (٢٧)
مئذنة جامع القيروان بتونس
ومن ورائها الأروقة الخلفية



صورة رقم (٢٨)

«جامع الزيتونة بتونس الذي أسسه حسان بن النعمان والذي تحول فيما بعد إلى جامعة»

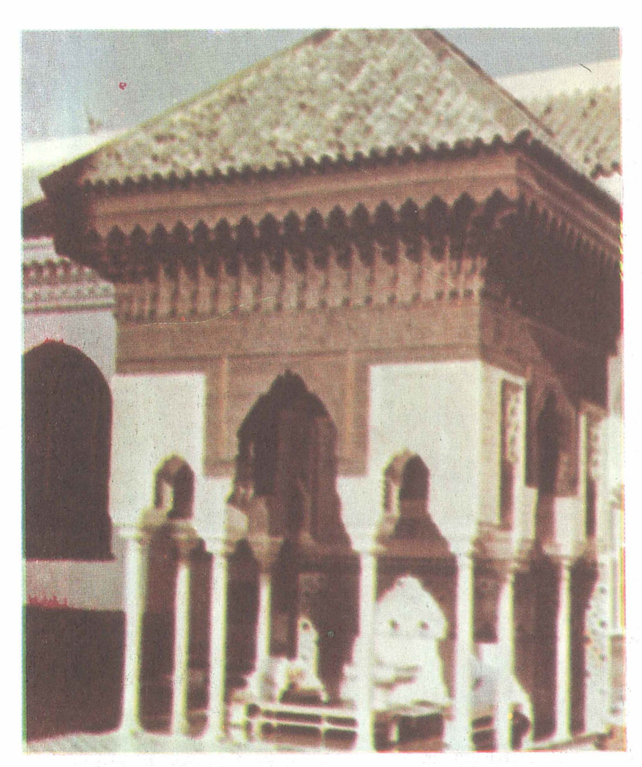


صورة رقم (٢٩)

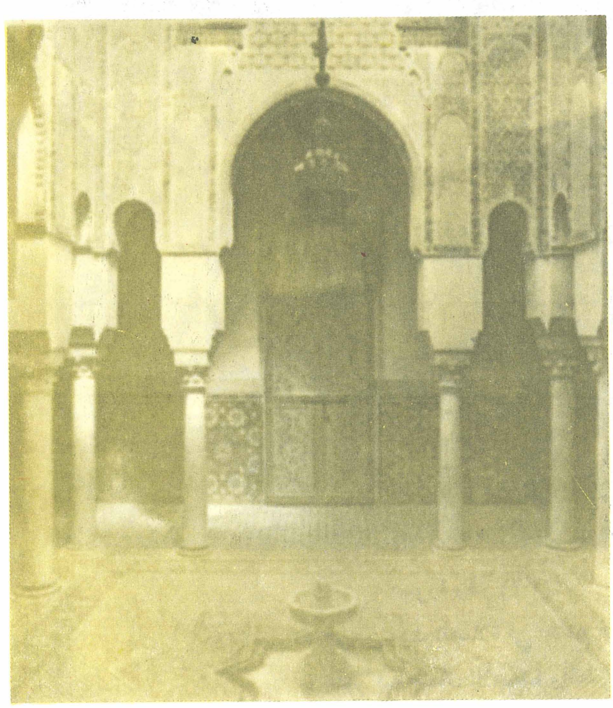
«مئذنة جامع الزيتونة»

وتظهر في الصورة

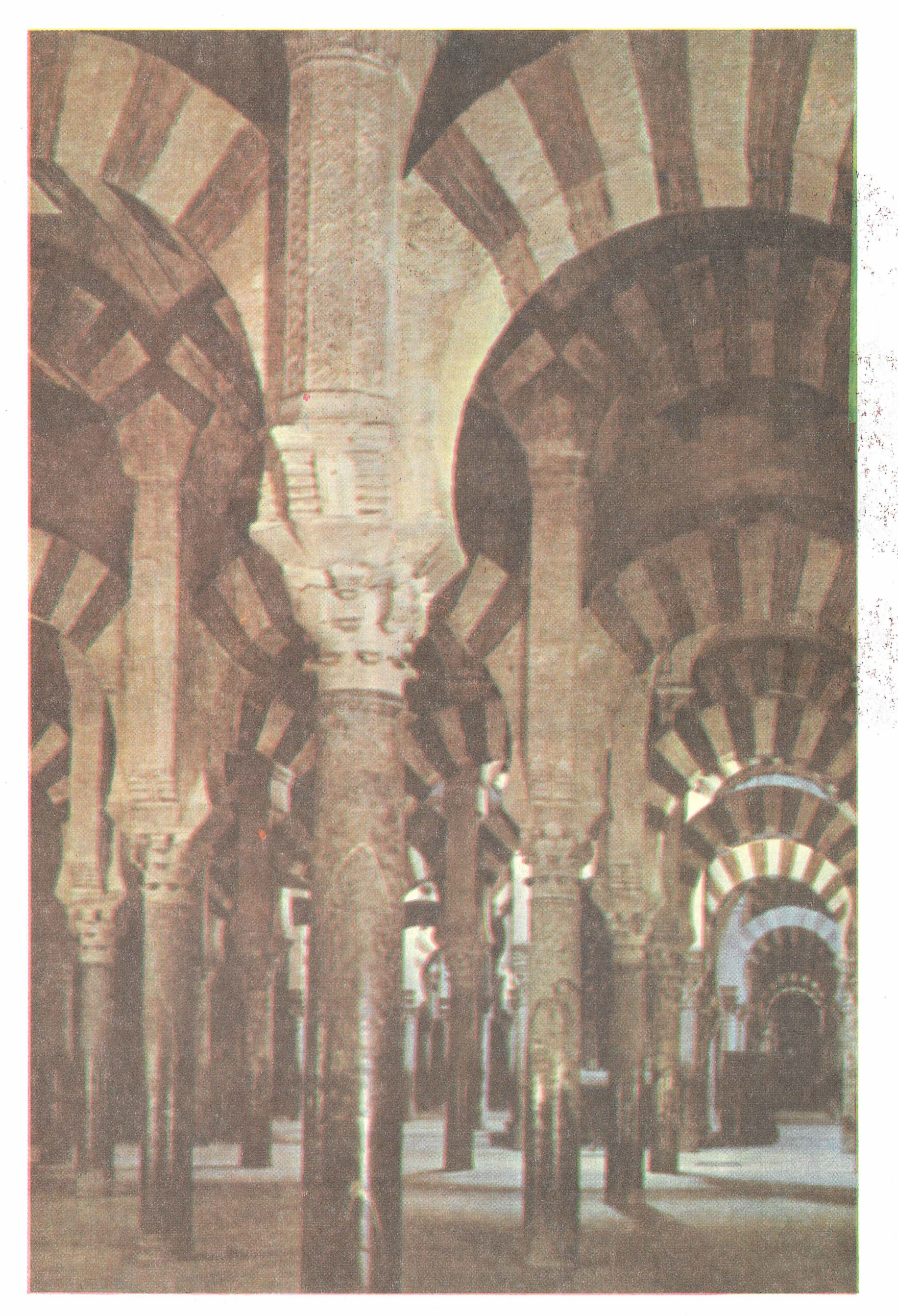
الأروقة من الجانبين



صورة رقم (٣٠)
جزء من
جامع القرويين بفاس في المغرب
الذي تحول الآن إلى جامعة



صورة رقم (٣١)
جزء من الرواق الداخلي
لجامع القرويين في المغرب
الذي أصبح الآن جامعة



صورة رقم (٣٢)
«منظر من بيت الصلاة في جامع قرطبة
ويظهر فيه جمال الأعمدة والعقود»

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ السنة النبوية المطهرة .

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ) .

٣ ـ الكامل في التاريخ : ط ٢ / ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م/ دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان .

الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد .

٤ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار : تحقيق : رشدي الصالح ملحس/ ط ٢ / ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م مطابع دار الثقافة/ مكة المكرّمة .

الأصبهاني : أبو الفرج علي بن الحسين .

٥ ـ الأغاني : دار الفكر للطباعة والنشر .

البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه (ت ٢٥٦هـ) .

٦ ـ صحيح البخاري : استانبول/ تركيا .

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ت (٧٧٩هـ : .

٧ ـ رحلة ابن بطوطة/ المسماة « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م/ دار بيروت للطباعة والنشر .

البكـــري : أبـــو عبيـــد عبـــد الله بن عبـــد العـــزيـــز بن محمـــد . ت (٣٨٧هـ) .

٨ ـ المغرب في ذكر بلاد افريقيـا والمغرب « جـزء من كتاب/ المســالك والممالك » « لأبي عبيد البكري » .

البلاذري : أحمد بن يحيىٰ .

٩ ـ فتوح البلدان : **ط ١/ مطبعة الموسوعات.**

ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف الأتابكي .

١٠ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ المؤسسـة المصريـة العامـة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

ابن تيمية : تقي الدين أحمد .

١١ ـ مجمـوع فتـاوي شيـخ الإسـلام ابن تيميــة/ جمـع وتــرتيب/ عبـد الرحمن بن محمد بن قاسم (تصوير الطبعة الأولى) ١٣٩٨هـ .

ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني .

١٢ ـ رحلة ابن جبير/ ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م/ دار بيروت للطباعة والنشر .

الجراعي : تقي الدين أبو بكر بن زيد .

١٣ ـ تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد/ تحقيق طه الولي/ ط ١/ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م المكتب الإسلامي/ بيروت .

ابن الجوزي : أبو الفـرج عبد الـرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ) .

١٤ ـ المنتــظم في تـاريــخ الملوك والأمم/ ١٣٥٩هـ/ دائـرة المعــارف العثمانية .

١٥ ـ الوفا بأحوال المصطفى / صححه ونسقه وعلق عليه / محمد زهري النجار .

ابن أبي الحديد : أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني .

١٦ ـ شرح نهج البلاغة . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢ / ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م دار إحياء الكتب العربية .

الحموي / شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله .

١٧ ـ معجم الأدباء/ط ٣/ ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م/ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

١٨ ـ معجم البلدان / دار صادر للطباعة والنشر / دار بيروت للطباعة والنشر .

الخطيب البغدادي : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي .

١٩ ـ تاريخ بغداد (أو مدينة السلام) دار الكتاب العربي / بيروت / لبنان .

خسرو : أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي .

٢٠ ـ رحلة ناصر خسرو (سفرنامة) ترجمة وتقديم د. أحمد خالد البدلي / الناشر : عمادة شؤون المكتبات / جامعة الملك سعود / ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م / الرياض .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) .

٢١ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . وهو المسمى (تاريخ ابن خلدون) ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

٢٢ ـ التعريف بابن خلدون ، ورحلته غرباً وشرقاً ـ ١٩٧٩م ـ دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري .

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ) .

٢٣ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / تحقيق : د. إحسان عباس / دار الثقافة / بيروت / لبنان .

ابن خياط : خليفة .

٢٤ ـ تاريخ خليفة بن خياط / تحقيق أكرم ضياء العمري / ط ١ / ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م .

ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي .

٢٥ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها / تحقيق لجنة إحياء التراث العربي / دار الآفاق الجديدة .

ابن أبي دينار : أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم القيرواني .

٢٦ ـ المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس / تحقيق وتعليق / محمد شمام / المكتبة العتيقة .

الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) .

٢٧ ـ الأخبار الطوال / تحقيق عبد المنعم عامر / مراجعة : د. جمال الدين الشيال / دار المسيرة / بيروت .

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) .

٢٨ ـ سير أعلام النبلاء (الجزء الأول) تحقيق شعيب الأرنؤوط ، حسين الأسد / ط ١ / ١٤٠١هـ / ١٩٨١م / مؤسسة الرسالة .

ابن الزبير : عروة .

٢٩ ـ مغازي رسول الله ﷺ (برواية أبي الأسود عنه) جمع وتحقيق وتقديم : د. محمد مصطفى الأعظمي ـ منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج / ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

ابن أبي زرع : علي .

٣٠ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . دار المنصور للطباعة والوراقة / الرباط / ١٩٧٢م .

الزركشي : محمد بن عبد الله .

٣١ ـ إعلام الساجد بأحكام المساجد / ١٣٨٤هـ / القاهرة .

السراج : محمد بن محمد الأندلسي الوزير .

٣٢ ـ الحلل السندسية في الأخبار التونسية . تقديم وتحقيق / محمد الحبيب الهيلة ـ دار الكتب الشرقية .

ابن سعد : محمد .

٣٣ ـ الطبقات الكبرى . ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م / دار بيروت للطباعة والنشر .

السمهودي : نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـ) .

٣٤ ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار إحياء التراث العربي / بيروت / لبنان .

السهيلي : عبد الرحمن .

٣٥ ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام . تحقيق وتعليق وشرح : عبد الرحمن الوكيل / ط ١ / ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م / دار النصر للطباعة / القاهرة .

ابن سيد الناس : فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيىٰ .

٣٦ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير . / ط ١ / ١٩٧٧م . منشورات دار الآفاق الجديدة / بيروت .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) .

٣٧ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . مطبعة الموسوعات .

الشوكاني : محمد بن علي بن محمد .

٣٨ ـ نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار ، شرح منتقى الأخبار / ١٩٧٣م / دار الجيل / بيروت .

ابن أبي طالب : علي رضي الله عنه .

٣٩ ـ نهج البلاغة / اختيار الشريف أبو الحسن محمد الرضي الموسوي من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب ، ضبط النصوص د. صبحي الصالح / ط ١ / ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م / بيروت .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ت (٣١٠هـ) .

٤٠ ـ تفسير الطبري المسمى « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » تحقيق : محمود محمد شاكر / دار المعارف بمصر .

٤١ ـ تاريخ الرسل والملوك / تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم / ط ٢ / دار المعارف بمصر .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد . ت (٣٢٨هـ) .

٤٢ ـ العقد الفريد : تحقيق : محمد سعيد العريان ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت .

ابن عذاري : المراكشي .

٤٣ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : تحقيق ومراجعة : ج . س . كولان ، إ ـ ليڤي بروفنسال ـ المكتبة الأندلسية ـ دارالثقافة ـ بيروت ـ لبنان .

ابن عساكر : ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ) .

٤٤ ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير : تهذيب وترتيب الشيخ عبد القادر بدران ـ ط ٢ ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ دار المسيرة ـ بيروت .

العسقلاني : **أحمد بن علي بن حجر** .

٤٥ ـ فتح الباري ، بشرح صحيح البخاري (الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل) المطبعة السلفية ومكتبتها .

العليمي : مجير الدين أبو اليمن .

٤٦ ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل / ١٩٧٣م ـ مكتبة المحتسب ـ عمان ـ الاردن ـ توزيع دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان .

العمري : ابن فضل الله .

٤٧ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ـ تحقيق / أحمد زكي باشا ـ ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م ـ مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد ت (٥٠٥هـ) .

٤٨ ـ إحياء علوم الدين . دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت لبنان

الفاسي : أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢ هـ) .

٤٩ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . حقق أصوله وعلق حواشيه لجنة من كبار العلماء ١٩٥٦ م .

ابن فهد : محمد بن محمد بن محمد بن محمد . المشهور بـ (عمر) .

٥٠ ـ اتحاف الورى بأخبار أم القرى . تحقيق وتقديم ـ محمد فهيم شلتوت ـ مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع .

الفوطي : كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق .

٥١ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ـ مطبعة الفرات ـ بغداد ـ ١٣٥١هـ .

القطبي : عبد الكريم بن محب الدين .

٥٢ ـ أعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام . ط ١/ ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م . تحقيق وتعليق/ أحمد محمد جمال، عبد العزيز الرفاعي .

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري . ت (٢٧٦هـ) .

٥٣ ـ المعارف ـ صححه وعلق عليه : محمد إسماعيل عبد الله الصاوي ـ ط ١ ـ ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م/ المطبعة الإسلامية/ مصر .

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي .

٥٤ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا/ نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

الكتاني : عبد الحي .

٥٥ ـ التراتيب الإدارية « نظام الحكومة النبوية » .

ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ) .

٥٦ ـ تفسير القرآن العظيم ـ ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م ـ دار المعرفة للطباعة والنشر .

٥٧ ـ السيرة النبوية . تحقيق . مصطفى عبد الواحد ـ ط ٢ ـ ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ـ دار الفكر ـ بيروت .

ابن ماجه : **الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني .**

٥٨ ـ سنن ابن ماجه ـ تحقيق . د . محمد مصطفى الأعظمي ـ ط ١ ـ ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

المالكي : أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله .

٥٩ ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم . مكتبة النهضة المصرية .

المقري : أحمد بن محمد . ت (١٠٤١هـ) .

٦٠ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق . محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد .

٦١ ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار « الخطط المقريزية » عن طبعة بولاق ـ إصدار دار التحرير للطبع والنشر ـ ١٢٧٠ هـ .

ابن النجار : محمد بن محمود .

٦٢ ـ أخبار مدينة الرسول . المعروف بـ (الدرة الثمينة) تحقيق : صالح محمد جمال / ط ١ ـ مطبعة الرسالة .

ابن هشام : **أبو محمد عبد الملك . ت (٢١٣هـ) .**

٦٣ ـ السيرة النبوية . تحقيق د. محمد فهمي السرجاني ـ دار التوفيقية للطباعة بالأزهر .

ثانياً : « المراجع الحديثة » :

الأبراشي : محمد عطية .

١ ـ التربية الإسلامية وفلاسفتها . ط ٢ ـ ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٢ ـ حياة سيد المرسلين محمد ﷺ . مكتبة مصر .

٣ ـ عظمة الرسول ﷺ . ط ٣ ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه .

إبراهيم : محمد إسماعيل .

٤ ـ سيرة الرسول ومعالمها من القرآن الكريم والسنة المطهرة . ط ١ ـ ١٩٧٢م ـ دار الفكر العربي .

الأعظمي : د. عواد مجيد .

٥ ـ تاريخ مدينة القدس ـ ١٩٧٢م ـ دار الحرية للطباعة ـ مطبعة الجمهورية ـ بغداد .

الأنصاري : عبد القدوس .

٦ ـ آثار المدينة المنورة . ١٣٧٨هـ .

٧ ـ طريق الهجرة النبوية ـ ط ١ ـ ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ـ مطابع الروضة ـ جدة .

الباشا : د . حسن .

٨ ـ مدخل إلى الآثار الإسلامية . دار النهضة العربية ـ ١٩٧٩م .

البقلي : محمد قنديل .

٩ ـ المختار من تاريخ الجبرتي . ١٩٥٨م ـ مطابع الشعب .

بكر : سيد عبد المجيد .

١٠ ـ أشهر المساجد في الإسلام . ١٤٠٠هـ .

البنا : أحمد عبد الرحمن .

١١ ـ بلوغ الأماني في أسرار الفتح الرباني . دار الشهاب ـ القاهرة .

١٢ ـ الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ـ دار الشهاب ـ القاهرة .

بهجت : **عبد المعطي** .

١٣ ـ رسالة المسجد . دار الأنصار ـ القاهرة .

الجبرتي : عبد الرحمن .

١٤ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

١٥ ـ مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس . والمسمى « يوميات الجبرتي »/ دار المعارف ـ بمصر .

الجنحاني : د. الحبيب .

١٦ ـ القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي / الدار التونسية للنشر .

حافظ : عبد السلام هاشم .

١٧ ـ المدينة المنورة في التاريخ « دراسة شاملة » ط ٣ ـ منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

حافظ : عثمان .

١٨ ـ صور وذكريات عن المدينة المنورة . ط ١ ـ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ـ منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي .

حافظ : علي .

١٩ ـ فصول من تاريخ المدينة المنورة . شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر . جدة .

حتِّي : فيليب .

٢٠ ـ تاريخ العرب مطول . دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع ـ ١٩٦٥م .

حسن : زكي محمد .

٢١ ـ فنون الإسلام. مكتبة النهضة المصرية (الفن الإسلامي في مصر جـ ٢ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ لبنان) ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

الحشائشي : محمد عثمان .

٢٢ ـ تاريخ جامع الزيتونة . تحقيق وتقديم/ الجيلاني بن الحاج يحيىٰ ـ ١٩٧٤م ـ المعهد القومي للآثار .

حماد : صالح حمدي .

٢٣ ـ أدب الإسلام . ط ٢ ـ ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م ـ مطبعة هندية بالموسكي ـ مصر .

حميد : د. عبد العزيز ، **العبيدي** : د . صلاح .

٢٤ ـ الفنون العربية الإسلامية . وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ـ بغداد .

خطاب : محمود شيت .

٢٥ ـ الوسيط في رسالة المسجد العسكرية . ط ٧ ـ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت .

الخطيب : محمد عجاج .

٢٦ ـ السنّة قبل التدوين . ط ٢ ـ ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ـ دار الفكر .

خفاجي : د. محمد عبد المنعم .

٢٧ ـ الأزهر في ألف عام . ط ١ / ١٣٧٤م ـ القاهرة .

الرفاعي : أنور .

٢٨ ـ الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ـ دار الفكر/ ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .

رفعت باشا : إبراهيم .

٢٩ ـ مرآة الحرمين، أو «الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية» (بدون تاريخ ودار نشر) .

زبيس : سليمان مصطفى .

٣٠ ـ حول مدينة تونس العتيقة ـ المعهد القومي للآثار والفنون ـ ١٩٨١م ـ تونس .

سالم : إبراهيم علي .

٣١ ـ النفاق والمنافقون في عهد رسول الله ﷺ .

سالم : د . السيد عبد العزيز .

٣٢ ـ تاريخ الدولة العربية . ١٩٧١م ـ دار النهضة للطباعة والنشر ـ بيروت .

السامرائي : د. خليل إبراهيم ، ثائر حامد محمد .

٣٣ ـ المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبوة ـ ط ١ ـ ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م ـ الموصل ـ مطبعة الزهراء الحديثة .

سعيد : د. حسين (بإشراف الدكتور حسين سعيد) .

٣٤ ـ الموسوعة الثقافية ـ دار المعرفة ـ مطابع الشعب .

باسلامة : حسين عبد الله .

٣٥ ـ تاريخ عمارة المسجد الحرام ـ ط ٣ ـ ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ـ الناشر / تهامة .

شلبي : د . أحمد .

٣٦ ـ تاريخ التربية الإسلامية . ط ٤ ـ ١٩٧٣م ـ مكتبة النهضة المصرية .

٣٧ ـ موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الجزء السادس) ط ١ / ١٩٧٣م مكتبة النهضة المصرية .

شلبي : د . عبد الجليل

٣٨ ـ صور استشراقية .

الشناوي : د . عبد العزيز .

٣٩ ـ صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر ـ ١٩٧١م ـ مطبعة دار الكتب .

طلس : محمد أسعد .

٤٠ ـ التربية والتعليم في الإسلام . دار العلم للملايين ـ ١٩٥٧م ـ بيروت .

الطنطاوي : علي .

٤١ ـ الجامع الأموي في دمشق . ط ٢ ـ ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م ـ دار الفكر ـ دمشق .

العارف : عارف .

٤٢ ـ تاريخ الحرم القدسي . ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م ـ مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية بالقدس .

العباسي : أحمد عبد الحميد

٤٣ ـ عمدة الأخبار في مدينة المختار . تصحيح الشيخ محمد الطيب الأنصاري نشر : أسعد درابزوني الحسيني .

عبد المهدي : د . عبد الجليل .

٤٤ ـ الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي . ط ١ ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ مكتبة الأقصى ـ عمان ـ الأردن .

عبد الوهاب : د . حسن .

٤٥ ـ تاريخ المساجد الأثرية . مطبعة دار الكتب المصرية .

عبيد : منصور الرفاعي .

٤٦ ـ مكانة المسجد ورسالته . ط ١/ ١٩٧٨م .

عطار : أحمد عبد الغفور .

٤٧ ـ الهجرة . ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

العميد : د. طاهر مظفر .

٤٨ ـ بغداد « مدينة المنصور المدورة » ـ منشورات المكتبة الأهلية في بغداد ـ ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

عنان : محمد عبد الله .

٤٩ ـ تاريخ الجامع الأزهر . ط ٢ ـ ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة .

العوا : د . محمد سليم .

٥٠ ـ في النظام السياسي للدولة الإسلامية . ط ٥ ـ ١٩٨١م .

غريب : مأمون .

٥١ ـ بيوت الله . الناشر : مكتبة غريب .

الغزالي : محمد .

٥٢ ـ فقه السيرة ـ ط ٧ / ١٩٧٦م .

أبو فارس : محمد عبد القادر .

٥٣ ـ في ظلال السيرة النبوية . ط ١ . دار الفرقان للنشر والتوزيع .

فراج : د . عز الدين .

٥٤ ـ فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية . دار الفكر العربي ـ ١٩٧٨م .

فكري : د . أحمد .

٥٥ ـ مساجد القاهرة ومدارسها « المدخل » ـ ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م . دار المعارف بمصر .

٥٦ ـ المسجد الجامع بالقيروان . ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م ـ مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر .

فهمي : أسماء حسن .

٥٧ ـ مباديء التربية الإسلامية .

لوبون : د . غوستاف .

٥٨ ـ حضارة العرب . ترجمة : عادل زعيتر/ ط ٤ ـ ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

لينبول : ستانلي .

٥٩ ـ سيرة القاهرة . ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن ، د. علي إبراهيم حسن ، إدوارد حليم ـ ط ٢ مكتبة النهضة المصرية .

محجوب : فاطمة .

٦٠ ـ دائرة معارف الشباب : نشر دار النهضة العربية / مصر .

محمد : دكتورة : سعاد ماهر .

٦١ ـ مساجد مصر وأولياؤها الصالحون . ١٩٧١م ـ مصر ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

محمود : د. علي عبد الحليم .

٦٢ ـ المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي . دار المعارف بمصر .

مرزوق : محمد عبد العزيز .

٦٣ ـ بين الآثار الإسلامية في العالم . مطابع رمسيس بالاسكندرية ـ ١٣٧٢هـ .

مظهر : جلال .

٦٤ ـ محمد رسول الله / سيرته وأثره في الحضارة ـ مكتبة الخانجي ـ مصر .

المعموري : الطاهر .

٦٥ ـ جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ـ ١٩٨٠م ـ الدار العربية للكتاب .

مؤنس : د. حسين .

٦٦ ـ المساجد . عالم المعرفة ـ يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب . الكويت ـ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

أبو النصر : عمر .

٦٧ ـ تاريخ الحضارة العربية الإسلامية قبل الإسلام وفي العهد الأموي .

وانلي : خير الدين .

٦٨ ـ المسجد في الإسلام . ط ١ ـ ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

هل : ي .

٦٩ ـ الحضارة العربية . ترجمة د. إبراهيم أحمد العدوي / مراجعة د. حسين مؤنس ـ مكتبة الأنجلو المصرية .

هونكه : زيغريد .

٧٠ ـ شمس العرب تسطع على الغرب . « أثر الحضارة العربية في أوروبا » تعريب : فاروق بيضون ، كمال دسوقي . ط ٦/ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م/ مراجعة : مارون الخوري . دار الآفاق الجديدة .

هيكل : محمد حسين .

٧١ ـ حياة محمد . ط ٩ . دار المعارف ـ مصر .

ثالثاً : « الدوريات والبحوث » :

أ ـ الدوريــات :

حمودة : عبد الوهاب .

١ ـ مجلة لواء الإسلام/ عدد ٧/ السنة الخامسة/ ربيع أول ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م : « التدريب العسكري في الإسلام » .

عنان : محمد عبد الله .

٢ ـ مجلة الرسالة/ عدد ١٣٦ / القعدة ١٣٥٤هـ/ فبراير ١٩٣٦م . « الوزير ابن كلس واضع الحجر الأول في صرح الجامعة الأزهرية » .

مؤنس : د. حسين .

٣ ـ مجلة العربي . العدد ١٥٦ . رمضان ١٣٩١هـ/ نوفمبر ١٩٧١م . « مساجد الإسلام والمسلمين في شتى العصور » .

ب ـ البحوث والمقالات :

أولاً : نشرة أصدرتها رئاسة الإشراف الديني للحرمين الشريفين

« عن توسعة الحرم النبوي » موجودة بمكتبة الحرم النبوي تتكون من بضع صفحات .

ثانياً : بحوث قدمها عدد من العلماء بمناسبة انعقاد مؤتمر رسالة المسجد .

وجمعت في كتاب باسم « بحوث مؤتمر رسالة المسجد » .

التكنية : عبد الرؤوف حامد . الشيخ .

١ ـ رسالة المسجد ـ ماضيه وحاضره ومستقبله .

الحوت : عبد الرحمن . الشيخ .

٢ ـ رسالة المسجد والإمام .

خالد : حسن : **الشيخ** .

٣ ـ الوجهة الاجتماعية في رسالة المسجد .

زبارة : أحمد بن محمد . الشيخ .

٤ ـ أهمية إحياء رسالة المسجد .

السيد : عبد الستار . معالي الأستاذ .

٥ ـ الألفة والمحبة في ظلال المسجد .

آل الشيخ : إبراهيم بن محمد . معالي الشيخ .

٦ ـ المساجد خير بقاع الأرض .

ابن عبد الله : عبد العزيز . الاستاذ .

٧ ـ المسجد منبر للدعوة ، ومنتدى للعلم .

القادري : أبو بكر . الاستاذ .

٨ ـ رسالة المسجد عبر التاريخ .

القرة ـ علي محيي الدين . الشيخ .

٩ ـ مفهوم المسجد في الإسلام ، وماذا يتطلب منا في الوقت الحاضر .

مذكرة الوفد الأردني :

١٠ ـ المسجد أوجد المجتمع الإسلامي الأول .



المؤلف في سطور

عبد العزيز بن محمد بن عبد الكريم اللميلم

١- من مواليد مدينة عيون الجواء بالقصيم.

٢- تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط والثانوي بالقصيم

٣- أكمل دراسته الجامعية بجامعة الملك سعود / كلية الأداب. قسم التاريخ عام ١٣٨٦هـ.

٤- حصل على درجة الماجستير في التاريخ والحضارة من جامعة الأزهر/ كلية اللغة العربية - شعبة التاريخ والحضارة لعام ١٣٩٥هـ بتقدير جيد جداً.

٥- حصل على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية/ كلية العلوم الاجتماعية/ قسم التاريخ والحضارة لعام ١٤٠٠هـ مع مرتبة الشرف الأولى، والتوصية بطباعة الرسالة على نفقة الجامعة.

٦- عمل في التعليم العام بمراحله الثلاث.

٧- عمل في وزارة المعارف بوظيفة: رئيس قسم، مدير إدارة.

٨- عمل في وزارة المالية «مصلحة الإحصاءات العامة» بوظيفة:
رئيس قسم البرامج والتدريب، أخصائي إحصاء.

٩- عمل وكيلاً لكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام في فترة إنشائها من عام ١٣٩٦هـ - ١٣٩٨هـ.

١٠- يعمل حالياً أستاذاً مشاركاً بقسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود.

١١- مؤلفاته:-

أ - نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء من ٢٢١-٢٧٩هـ/ جزءان «رسالة الدكتوراه»

ب - رسالة المسجد في الإسلام/ جزء واحد «رسالة الماجستير».

جـ - حسان بن النعمان الغساني ودوره في فتح بلاد المغرب/ جزء واحد.

د - العلاقات بين العلويين والعباسيين من ٩٨-٢٣٢هـ/ جزء واحد.

هـ - وضع الموالي في الدولة الأموية/ جزء واحد.

و - له عدد من البحوث المنشورة.